حلقة دراسية حول

الإدراك الروحي

بين التصوف و النورسي

حلقة دراســـية

حول

الادراك الروحي

بين

التصوف والنورسي

أقامتها مؤسسة الثقافة والعلوم

مركز رسائل النور

استانبول

٢٦-٢٧ يوليو/تموز ٢٠٠٥


بسم الله الرحمن الرحيم

الوهج الروحاني
في حياة الأستاذ سعيد النورسي

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي
جامعة دمشق – سورية

قالوا: كان التصوف في صدر الإسلام مسمى لا اسم له، ثم أصبح اليوم اسماً لا مسمى له.

وأقول: هي كلمة صحيحة ودقيقة. فإن المسلمين في صدر الإسلام كان همهم الأول تزكية النفس الأمارة بالسوء، والسموّ بها في مدارج التربية إلى مرتبة النفس الراضية والمطمئنة دون أن يبدعوا لذلك اسماً غير الاسم الذي سماه الله عز وجل به، وهو الجهاد التأسيسي الذي يبدأ بتزكية النفس وتربيتها. وهو العمود الفقري في منهاج السلوك إلى مرضاة الله.

ثم إنه خلف بعد ذلك الرعيل الأول خلف، أفردوا لهذا المنهج السلوكي اسماً جديداً لا عهد لمن قبلهم به، وما لبثوا أن أولوه أهمية بالغة من حيث إن هذا المنهج التربوي هو المدخل الذي لا بدّ منه لسائر أنواع الصلاح الفردي والاجتماعي.

غير أن الاهتمام بالاسم الجديد تغلب شيئاً فشيئاً على الاهتمام بالمسمى القديم، فتولد من ذلك تيار من الانجذاب إلى كلمة التصوف، ولا ريب أن العامل الأول لهذا الانجذاب إنما كان اقتران الكلمة بأعمال التربية النفسية التي هي لباب السير على صراط الله عزّ وجلّ. ومن ثم فهي لباب الإسلام. ولَعلَّ رجال الرسالة القشيرية من أبرز من يمثلون هذا العهد.

ثم جاء على أعقابهم خلف آخر غدت كلمة التصوف عندهم أشبه بقبّة ليس في داخلها مزار، ولقد امتدّ عهد هذا الخلف إلى عصرنا الذي نحن فيه. إنك تتأمل فتجد أن التعامل اليوم إنما هو مع بريق هذه الكلمة وما يشعّ منها – بحكم الاقتران الطويل – من مظاهر الصلاح والتقوى وأصول الإرشاد ومناهج التربية والسلوك إلى مرضاة الله. وعندما تبحث عما تحت هذه الكلمة من هذه المضامين لا تجد شيئاً.

وهكذا فقد غدا التصوف اليوم – كما قالوا – اسماً لا مسمى له!!..

غير أن من المعلوم أنه ما من قاعدة إلا ويعتريها شذوذ، وما من عمـــوم إلا ويلحقـــه استثناء، فلا يزال في المتصوفة من هم على سنن الرعيل الأول. وإني لأجد أن سيرة الأستاذ المرشد سعيد النورسي، كانت مظهراً لهذا الاستثناء.. كانت مظهراً لحال الرعيل الأول من المسلمين، إذ كان التصوف عندهم مسمى لا اسم له. ولا ريـــب أن في عالمنـــا العـــربي والإسلامي من يشركه في هذه الحال الاستثنائية. ولكنهم قلة لا يتجاوزون عدد الشذوذ من القاعدة والاستثناء من العموم.

* * *

في أكثر من موضع في (اللمعات) يصرح الأستاذ النورسي رحمه الله بأنه ليس صوفياً.

ولكنه في كل ما يخاطب به تلامذته ومريديه من فنون النصح والتربية والإرشـــاد، لا يخرج عن ذلك اللباب الذي كان هو مسمى التصوف بل مسمى الإسلام في عصر السلف الصالح رضوان الله عليهم..

ولقد كان في مقدمة العوامل التي أكرمته بالصفاء الروحي وأيدته بالإلهـــام الصـــائب والفتوحات الربانية تلك الساعات الطويلة التي كان يأخذ نفسه فيها بالأذكـــار المـــأثورة والأوراد التي تنسب إلى كبار الأولياء والمرشدين، كالأوراد القدســـية للشـــاه نقشـــبند، وكالجوش الكبير الذي كان يقرؤه ويوصي بقراءته، كما كان من أهم تلك العوامل خلواته الكثيرة والطويلة التي يمضيها في شواهق الجبال، وأحياناً على مقاعد في أعـــالي الأشـــجار، يحاسب فيها نفسه ويراقب فيها ربه، ويتأمل صفات الخالق في مرآة مخلوقاته الكونية.. وهل كان ذلك كله إلا جزءاً من المسمى الذي لم يكن له في صدر الإسلام هذا الاسم الـــذي شاع له من بعد (التصوف). ولكنه كان–كما قلت لكم– لباب الإسلام ومكنونه، وكانت علاقته بأحكامه السلوكية الظاهرة، كعلاقة الروح بالجسد.

ولقد كان من نتائج هذه العوامل سنوحات ربانية علوية، يفيض بها قلبه، تعلو بـــه في سلّم المقامات، وترقى به إلى أعلى تلك الدرجات. من هذه المقامات أن يصل السالك من

جهوده وجهاده إلى نكران الذات والفناء في المنعم جلّ جلالُه والرقي إلى أعلى درجات الإحسان، وهو عدم شعور العبد بإحسانه، وذهوله عن أحواله ومقاماته.

وإليكم بيانه لهذه الرتبة التي لا يتذوقها ولا يرقى إليها إلا من أخذت بمجامع نفسه نشوة العبودية لله، وناله منها ما يشبه السُّكْر، يقول:

"قال لي أحد الأتقياء في قسطموني شاكياً: (لقد ترديتُ وتقهقرتُ عن حالي السابق.. إذ فقدت ما كنت عليه من أحوال وأذواق وأنوار)

فقلت له: بل ترقيتَ، واستعليتَ على الأذواق والكشوف التي تلاطف النفس وتذيقها ثمراتها الأخروية في الدنيا، وتعطيها الشعور بالأنانية والغرور.. وقد طرت إلى مقام أعلى وأسمى، وذلك بنكران الذات وترك الأنانية والغرور، وبعدم التحري عن الأذواق الفانية.. نعم إن من الإحسان الإلهي للعبد أن يُنسيَه إحسانَه بفنائه عن نفسه التي لا حول لها ولا قوة ولا وجود إلا بالمحسن الأوحد وهو الله سبحانه".[1]

أليست هذه السنوحات من المسميات التي لم يكن لها في صدر الإسلام اسم مختص به؟ لقد كان لها حضور بارز في ذلك الصدر الأول، ولكن لم يعبَّر عنها إلا بما سماها الله تعالى به، وهو تزكية النفس والصعود الدائم في درجات الإحسان.

ولقد كان من آثار هذه العوامل أيضاً تنامي مشاعر الخشية من الله بين جوانحه، وهيمنة الرقابة الإلهية على قلبه، وتعاظم الخوف في نفسه مما هو مقبل عليه بعد الموت. وكلها مسميات قدسية لهذا الذي يسمى اليوم تصوفاً، ولكن لم يكن لها وراء اسم العبودية الضارعة لله تعالى حينذاك أي اسم مصطنع آخر.

ولنتأمل ترجمة هذه الآثار لديه في هذا الدعاء الواجف الذي صاغه الأستاذ النورسي رحمه الله باللغة العربية، وكان يناجي به ربه عزّ وجلّ في أوقاته الخاصة.

يقول رحمه الله:

---

(١) الشعاعات ص ٣٧٤ ترجمة الأستاذ إحسان قاسم الصالحي.

(يا إلهي الرحيم يا إلهي الكريم: قد ضاع بسوء اختياري عمري وشبابي وما بقي من ثمراتهما في يدي إلا آثام مؤلمة مذلة، وآلام مضرّة مضلّة، ووساوس مزعجة معجزة، وأنا بهذا الحمل الثقيل والقلب العليل والوجه الخَجِل، أدنو إلى باب قبري، بيت الوحدة والانفراد في طريق أبد الآباد، مفارقاً هذه الدار الفانية الهالكة باليقين، والآفلة الراحلة، والغدارة المكّارة لا سيما لمثلي ذوي النفوس الأمارة.

فيا ربي الرحيم ويا ربي الكريم: أراني عن قريب وقد لبست أكفاني وركبت تابوتي، وودعت أحبابي، وتوجهت إلى باب قبري. فأنادي وأنا على باب رحمتك: الأمان الأمان، يا حنان يا منان، نجني من خجل العصيان.

آه.. كفني على عنقي، وأنا قائم عند رأس قبري، أرفع رأسي إلى باب رحمتك، أنادي: الأمان الأمان، يا رحمن يا حنان، خلصني من ثقل حمل العصيان.

آه.. أنا ملتفٌّ بكفني وساكن في قبري، وقد تركني المشيعون، وأنا منتظر عفوك ورحمتك مشاهد بأن لا ملجأ ولا منجى إلا إليك، وأنادي: الأمان الأمان من ضيق المكان ومن وحشة العصيان، ومن قبح وجه الآثام يا رحمن يا حنان ويا ديّان، نجني من قيود الذنوب والعصيان.

إلهي: رحمتك ملجئي ووسيلتي، وإليك أرفع بثي وحزني وشكايتي.

يا خالقي الكريم، ويا ربي الرحيم، ويا سيدي ومولاي.. مخلوقك ومصنوعك وعبدك العاصي العاجز الغافل الجاهل العليل الذليل المسيء المسنّ الشقي الآبق، قد عاد بعد أربعين عاماً إلى بابك، ملتجئاً إلى رحمتك، معترفاً بالذنوب والخطيئات، مبتلى بالأسقام والأوهام، متضرعاً إليك.. فإن تقبل وتغفر وترحم فأنت لذلك أهل وأنت أرحم الراحمين، وإلا فأيّ باب يُقصد غير بابك، وأنت الرب المقصود والحق المعبود، ولا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك. آخر كلامي في الدنيا وأول كلامي في الآخرة وفي القبر: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم).[٢]

---

[٢] اللمعات ص ١٩٧-١٩٨ والمثنوي العربي النوري ص ٢٨١-٢٨٢

تأمل في هذه المناجاة التي لا تنبثق إلا من قلب ملتاع بلوعة التعظيم والخشية والحب، فياض بمشاعر العبودية الواجفة لله عزّ وجلّ.. وتساءل معي: من أين تفجرت في قلبه هذه الأحاسيس العلوية المنصرفة بكليتها إلى الملأ الأعلى، والمعرضة عن ملكوت الأرض وزخارف الدنيا؟

أما إن هذه الأحاسيس لا تنبثق إلا من قلب من أخذ نفسه بأوراد الصباح والمساء، وغذى فطرته الإيمانية بالكثير من ذكر الله ومراقبته، وألزم نفسه بمنهاج دائم من التنقل في مدارج السالكين. وهل كان هذا إلا ديدن الرعيل الأول من المسلمين، وهل كان هذا في حياتهم إلا عملاً بدون عنوان مثير، ومسمى بدون اسم مصطنع؟

وما أظن أن الأستاذ النورسي نفى اسم التصوف عن نفسه في أكثر من مناسبة وقعت عليها، إلا ليجعل من نفسه أمام الله تعالى فعالاً بتواضع وصمت، لا قوالاً يتجمّل أمام الناس بالعناوين والألقاب، ولعله أراد بذلك أن يشد نفسه إلى عهد السلف الصالح فيسير على نهجهم وينهل من وِردهم، ويحقق بذلك في نفسه الشطر الأول من مقولة: (كان التصوف في صدر الإسلام مسمى لا اسم له..).

موقف الأستاذ النورسي من البدع:

في الناس من يظن أن من شأن الذين يكثرون الاهتمام بأسباب التزكية النفسية، وأحوال القلب ومقامات القرب من الله، أن يتساهلوا في البدع وأن يذهلوا عن خطورة الركون إليها وعن شدة تحذير رسول الله صلى الله عليه وسلم منها!..

غير أن الواقع مخالف لهذا الظن تماماً. فما تتبعنا حال من سلكوا (بصدق) مسالك التزكية النفسية واهتموا بمراقبة أحوال القلب وسبل التقرب إلى الله، إلا ورأيناهم من أكثر الناس ابتعاداً عن البدع ومن أشدهم تحذيراً منها. وارجع إن شئت إلى الرسالة القشيرية وتأمل في تراجم رجالها، تجد الجامع المشترك بينهم تلاقيهم على نبذ البدع ومحاربتها.

والأستاذ النورسي وإن كان متأخراً عن الرعيل الأول وسلف هذه الأمة في الوجود، إلا أنه ليس متأخراً عنهم في المكانة والرتبة فيما نحسب، ولا نتألّى على الله.

فقد أكثر الأستاذ في رسائله، وفي لمعه وفي إشعاعاته، من التحذير من ممارسة البدع باسم الدين، ومن التنبيه إلى ضرورة التمسك بأهداب السنة النبوية وعدم الخروج عليها.

وهو إذ ينبه إلى ذلك يلفت النظر إلى أن التمسك بالسنة النبوية والحرص الشديد عليها وعلى عدم الشرود عنها، هو دأب أولياء الله تعالى وشأن المرشدين الربانيين.

يقول رحمه الله في اللمعة الحادية عشرة: (..إن من يجعل اتباع السنة النبوية عادته، فقد حول عاداته إلى عبادات، ويمكن أن يجعل عمره كله مثمراً ومثاباً عليه).

ثم يقول:(لقد قال الإمام الرباني أحمد الفاروقي رحمه الله: بينما كنت أقطع المراتب في السير والسلوك الروحاني، رأيت أن أسطع ما في طبقات الأولياء وأرقاهم وألطفهم وآمنهم وأسلمهم، هم أولئك الذين اتخذوا اتباع السنة الشريفة أساساً للطريقة) ويعلق الأستاذ النورسي على كلام الإمام الرباني هذا قائلاً: (نعم إن الإمام الرباني مجدد الألف الثاني ينطق بالحق. فالذي يتمسك بالسنة الشريفة ويتخذها أساساً له، لهو أهل لمقام المحبوبية في ظل حبيب الله صلى الله عليه وسلم).[٣]

ومن هذا المنطلق ينكر الأستاذ النورسي رحمه الله على الشيخ محي الدين بن عربي فكرة وحدة الوجود، ولكنه لا يرميه بسببها بكفر أو زندقة أو فسوق، ولا يتجاهل سعة علومه وعمق أفكاره وعلوّ مقامه.

يقول جواباً عن سؤال يتعلق بابن عربي رحمه الله (إنك يا أخي بسؤالك هذا تضطرني إلى أن أناقش وأنا الضعيف العاجز خارقة الحقيقة وداهية علم الأسرار محي الدين بن عربي، ولكن لما كنت سأخوض في البحث معتمداً على نصوص القرآن الكريم، فسوف أستطيع أن أحلّق إلى أعلى من ذلك الصقر وأسمى منه، وإن كنت ذبابة.)

ثم يقول (اعلم أن محي الدين بن عربي لا يَخْدع ولكنه ينخدع، فهو مهتدٍ ولكنه لا يكون هادياً لغيره في كل ما كتبه، فما رآه صدق وصواب ولكن ليس هو الحقيقة..)

(٣) اللمعات ص ٨١.

وقد أطال الأستاذ النورسي في مناقشة أفكار ابن عربي رحمه الله، ملتزماً ضوابط اللياقة والأدب دون تجريح ولا اتهام له، وأتى بكلام دقيق مقنع يضيق هذا المقام عن نقله. وبوسعنا أن نوجز ذلك كله في قوله عنه (ولما كان الشيخ قد انتهج مسلكاً مستقلاً، وكان صاحب مشرب مهم وله كشفيات ومشاهدات خارقة، فإنه يلجأ باضطرار إلى تأويلات ضعيفة وتكلف وتمحّل ليطبق بعض الآيات الكريمة حسب مشربه ومشهوداته، مما يخدش صراحة الآية الكريمة ويجرحها.. فالشيخ ابن عربي له مقام خاص لذاته، وهو من المقبولين، إلا أنه بكشفياته التي لا ضوابط لها، خرق الحدود وتجاوزها وخالف جمهور المحققين العلماء في كثير من المسائل)[٤].

أقول: ولم أجد في شيء من أحاديثه عن ابن عربي رحمه الله، ما يذكره جل المترجمين له من أن الباطنيين دسوا في كتابه (الفتوحات) كثيراً من الأفكار الباطنية والعقائد الكفرية التي يتبنوها، منهم ابن العماد في كتابه (شذرات الذهب)، وابن المقري في (نفح الطيب)، والإمام الشعراني في (اليواقيت والجواهر)، وحاجي خليفه في (كشف الظنون). وأعتقد أن هذه حقيقة تعلو على الريب والظن. لا أدل على ذلك من أنك لا تجد في فتوحاته فكرة تناقض العقائد الإسلامية إلا وتجد في مكان آخر فيه رداً عليها وتحذيراً من الأخذ بها. تأمل في هاتين البيتين من تائيته تجد أنهما ينطويان على نقيض وحدة الوجود ويقرران العقيدة الإسلامية المأخوذة من كلام الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم :

وجدت وجوداً لم أجد ثانياً له ... وشاهدت ذاك الحق في كل صنعة

وطالب غير الله في الأرض كلها ... كطالب ماء من سراب بقيعة

* * *

وبعد، فكلنا يعلم أن الأستاذ النورسي ما إن تجاوز الأربعين من عمره حتى نفض فكره ويديه من السياسة وأحابيلها، واتجه في أنشطته الإسلامية إلى ميدان التربية وتزكية النفس ونقد الذات، وافتتح حياته الجديدة بقوله: أعوذ بالله من الشيطان والسياسة.

---

(٤) اللمعات ص ٥٢ و٥٣.

كانت صلته بالناس الذين يرشدهم ويربيهم عن طريق رسائله التي يكتبها إليهم فتنتشر فيما بينهم، أما هو فكانت تتلقاه السجون سجناً إثر سجن، لا يتأتى له (إلا نادراً) الجلوس إليهم والتحاور معهم. ومع ذلك فقد أثمرت جهوده هذه كما لم تثمر جهود أي جماعة إسلامية أو حزب إسلامي، اتخذ من السياسة سلّماً للبلوغ به إلى عقول الناس وأسماعهم!.. ها أنتم ترون اليوم ثمار تربيته الروحية والسلوكية، يانعة متجددة على عرض هذا المجتمع وطوله، يبدد ضياءه الساطع ما تراكم من ظلمات الجهالة والفسوق والإلحاد. وكأنه ضياء أشرق للتوّ أو لكأنها تربية تلقتها الآذان والألباب بالأمس القريب.

فما السرّ الكامن وراء هذه الظاهرة الغريبة التي تتبدى في سطور ورسائل وكلمات مضى على توجيهها إلى الناس ما يناهز القرن من الزمن؟

السر يكمن في هذه الإشراقة الروحية التي كانت تتوهج بها حياة الأستاذ النورسي.. لقد كان هذا الوهج هو الروح السارية في رسائله وكلماته، وكان مَعينه متمثلاً في ذلك الجهاد الخفي الذي كان يأخذ به نفسه، مراقبةً لله، وذكراً دائماً له، والتجاءً إليه بالأسحار، وملازمة للأوراد التي تصفّي القلب في البكور والآصال.. وإنه للجهاد القدسي الذي كان في صدر الإسلام مسمى لا اسم له، ثم غدا اليوم اسماً لا مسمى له.

فهل للجماعات الإسلامية التي تنشد اليوم ثمرات جهودها وأنشطتها في منعرجات السياسة، ولّما تعثر عليها، أن تنهج منهج الأستاذ النورسي في السلوك إلى الله وتربية النفس وتطهيرها من الرعونات والأوضار؟

أهمية روحانية النورسي المتبصرة في عالم مادي متأزم

أ.د. مصطفى بنحمزة
وجدة – المغرب

يعيش عالمنا الإسلامي المعاصر مخاضا عسيرا جراء اصطراع أفكار وتوجهات عديدة سمح ببروزها انفتاح الناس على آفاق ثقافية متنوعة تبلغ في تنوعها وتباينها درجة التضارب الذي يوحي بحتمية الصراع الفكري المستقبلي والخصومة المذهبية الآتية، وفي خضم هذا الاصطراع الذي يفرز الانبهام تشتد الحاجة إلى البحث عن الذات وإلى تأكيد الهوية.

ويظل تماسك الهوية مرتبطا أشد الارتباط بالتدين الذي يمنح الإنسان رصيدا معرفيا يؤطر توجهه العقدي والمذهبي في الحياة ويصله بمصدر إنتاج القيم التي تمنح شخصيته خصوصيتها وتوازنها وبعد الاستيقان من كون التدين هو فرصة الإنسان الأخيرة للإفلات من حال الاغتراب الشعوري، ومن الارتباك الفكري، فإن مشكلة كبرى تثور في وجه الراغب في التدين وهي تتمثل في ما أصاب هذا التدين نفسه من تمزق فظيع أصبح معه الباحث عن التدين في حيرة ممضة إذ ينخرط في تساؤلات عديدة عن الصيغة المثلى للتدين الحق هل هو تدين يستقي من ظواهر النصوص الشرعية ويخاصم العقل ويشل وظيفته القائمة على تعقل النصوص ومراعاة مقاصدها وتأويل مشكلها؟ أم هو تدين يعتمد الرأي والتأويل منطلقا من النظر في النصوص بما يجعلها شاهدة لأفكار مسبقة لم تستمد في أصلها من الوحي وإنما استجلبت نصوص الوحي لتأييدها؟ أم أن التدين هو عملية جمع رفيق ومتبصر عميق بين عطاء النص الظاهري وضرورة إعمال النظر العقلي؟ أم أن هذا التدين ليس هذا ولا ذاك وإنما هو تهويمات روحية وسبحات وجدانية تقنع باللذة الروحية وتنسحب من حركة التغيير وصنع الحضارة؟.

في هذا الجو المثقل بأسئلة متناسلة عن طبيعة التدين القادر على انتشال الإنسان من أزمة العصر الخانقة يبرز التوجه الصوفي مراهنا على جدارته وقدرته على تحقيق الاستواء النفسي للإنسان، لكن هذا التصوف قد أصابه ما أصابه من تباين واختلاف في تمثلاته، ويتسع ذلك التباين خلال زاوية منفرجة واسعة تمتد من تصور التصوف على أنه مجرد زهد وتزكية للنفس إلى أن يصير فلسفة إشراقية ورؤى حلولية اتحادية تُعدم الفرد وتلغي وجود الكائنات.

وحين يتعلق الأمر بتكوين فكرة عن التصوف في زمن فوقت فيه إلى الإسلام سهام مصمية قاتلة تحمل عناوين الوضعية والحداثة والعولمة والقيم الكونية وغيرها من المصطلحات التي تروق النظر ولكنها تشتم منها رائحة البارود حين يتعلق الأمر باستبانة حقيقة التصوف فإن الرجوع إلى فكر الأستاذ سعيد النورسي يكون مفيدا للغاية اعتبارا لمعطيات موضوعية توفرت له ومنها:

١. إن الأستاذ النورسي رجل علم بالشريعة تشبع بحقائقها وكان له فهم عميق لأسرارها، وإخلاص في التشبث بها وقد بذل الكثير من سلامته وراحته من أجلها فمن ثم يكون قوله في الموضوع قول خبير يدرك آثار القول ومؤدياته ولهذا فهو لا يقول إلا ما يرى أن الشرع يؤيده وتشهد له الأدلة.

٢. إن الأستاذ النورسي قد ألزم نفسه حياة الزهد والتأمل والعبادة، وقد صرح في جميع آثاره بخواطر صوفية عميقة تنم عن إشراق روحي وفتح إلهي لا يتوفر مثله إلا لمن جاهد نفسه في الله فهداه الله السبل الواضحة مصداقا لقوله تعالى: (**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**) (العنكبوت:٦٩)

٣. إن النورسي قد نهض برسالة التجديد في بلد كان للتصوف فيه حضور تاريخي ، وكانت فيه زوايا وتكايا قائمة وكان بعضها قد شارك في واجب الدفاع عن استانبول دار الخلافة ضد هجمات النصارى لمدة تزيد عن الخمسمائة وخمسين عاما[٥]. فالتحم موقفها بوجدان الناس فلذلك لم يكن للنورسي أن يتفرغ لمناهضة تلك الطرق ومقاومتها وهو الداعية الذي جعل الوكد من عمله المحافظة على الإيمان في وقت تجردت فيه معاول الهدم إلى اجتثاثه واستئصاله من النفوس.

---

[٥] المكتوبات. المكتوب التاسع والعشرون ٥٧٤.

إن التصوف الذي يمكن أن يستعان به على صد موجة الإلحاد هو التصوف الذي يحرص على الالتزام بأحكام الشريعة ويقاوم البدع والضلالات التي علقت ببعض أهله، وهو التصوف الذي يجعل من أهدافه بناء الإنسان ليكون إيجابيا مهتما بقضايا أمته مسهما في ترقيتها غير ناكص عن أداء واجبه نحوها ولا متقهقر أو لائذ بكهوف فكرية يحتمي بها من تبعات المدافعة والممانعة.

لهذه الأسباب مجتمعة واعتبارا لذكاء النورسي وحرصه على التعامل الشرعي والذكي مع قضية التصوف فإن تعرف موقفه مفيد ونافع جدا.

صلة النورسي بالتصوف

لقد كان النورسي رجل مرحلة عصيبة مرت بها الأمة وتمكنت فيها القوى المناوئة للإسلام من إسقاط الخلافة ومن فرض تحول قسري نحو العلمانية، ونحو التبعية المطلقة للغرب، فكان للنورسي وعي عميق بخصوصية المرحلة وبما تستدعيه من جهد فكري لتمتين علاقة أفراد الأمة بدينهم ولإبقائهم مرتبطين بهدي القرآن وبتحديد مفهوم الدين بأسلوب يعتمد الفكر العميق والمساءلة المنطقية للذهن المسلم، وهذه مهمة تستغرق العمر كله ولا يبقى في الزمن بقية للاشتغال بموضوع جزئي لا يعني مجموع الأمة، مثل موضوع التصوف الذي لا يعتني بإثبات الإيمان واستدامته في القلوب بقدر ما يعتني بتحصيل اللذة الوجدانية في قلوب من هم مؤمنون سلفا، واعتبارا لهذا لم يكن للنورسي أن يهتم بقضية التصوف إلا بمقدار ما يبين ما في مسالك أهله من الصواب أو الحياد عن الشرع من غير أن يتفرغ له أو يقف جهده كله أو معظمه على خدمته على نحو ما يفعل شيوخ المتصوفة ورؤساء الطرق الذين لا يعنيهم أمر مثلما يعنيهم دعم التصوف والدعوة إليه والدفاع عن أهله، وحمل أقوالهم على أحسن المحامل بالتأويل تارة وبالاعتذار عن أقوالهم بالأحوال وبغلبة الشوق عليهم تارة أخرى.

لقد عبر النورسي غير ما مرة عن احتياج العصر إلى من يثبت حقائق الإيمان بعد أن أصبحت مستهدفة فقال: إني أخال لو كان الشيخ عبد القادر الكيلاني والشاه النقشبند والإمام الرباني وأمثالهم من أقطاب الإيمان رضوان الله عليهم أجمعين في عصرنا هذا لبذلوا

كل ما في وسعهم لتقوية الحقائق الإيمانية والعقائد الإسلامية .... نعم لا يمكن دخول الجنة دون إيمان بينما يدخلها الكثيرون جدا دون تصوف[٦].

إن مؤدى عبارة النورسي أن الفترة التي كان يمر بها فترة متميزة في تاريخ الأمة ، وهي ليست بحال استرسالا تاريخيا لما كان عليه المسلمون وإنما هي فترة تجرأ فيها الإلحاد على المجاهرة بمناهضة الإسلام وعلى خلخلة تماسك رباط الأمة السياسي، ولو أن كبار رجال التصوف السابقين عاشوا هذه الفترة لانصرفوا إلى خدمة العقيدة التي هي أولى الأولويات وأساس كل بناء.

لقد أفصح النورسي عن تصوره لطبيعة الرسالة التي تقتضيها المرحلة فقال: مجيبا لأصحابه وقد قالوا له إن الناس يطلقون بعض الأحيان اسم شيخ فيقول: "لم أقل لمن أتاني إلا أن الزمان ليس زمان الطريقة، الإيمان ضروري، والإسلام ضروري".[٧]

نتيجة لهذا الوعي بخطورة المرحلة فقد حدد النورسي موقفه من التصوف باعتباره منتميا إليه وعاكفا على مباحثه فقال: أيها السادة إني لست شيخا صوفيا[٨]. ويكرر القول في حيز آخر فيقول أنا لست صوفيا[٩].

إن قصد النورسي من إعلاناته هذه أنه ليس صوفيا هو نفي معنى الانقطاع للمنهج الصوفي الذي يصبح صاحبه مستغرقا فيه، وإذا كان النورسي سجل على نفسه أنه ليس صوفيا فإن هذا لا يجوز أن يدفع إلى توهم انقطاع صلته بالتصوف متى كان هذا التصوف يعني تزكية النفس واكتساب خصال الخير والتصون من أمراض القلوب، وهذه وظائف لا تتوقف بالضرورة على الانتماء إلى طريقة معينة أو على الالتزام بورد بذاته، لأن تحقيق هذه المعاني هو هم كل مسلم وهو انشغاله اليومي الدائم.

إننا قد نستعرض بعض تعاريف التصوف العملي فنجدها تدور على هذه المعاني التربوية ويمكن أن نجتزئ من التعاريف الكثيرة بقول أعلام منهم:

---

(٦) المكتوبات. المكتوب الخامس ص ٢٧.
(٧) المكتوبات. المكتوب الحادي عشر ص٧٩.
(٨) المكتوبات. المكتوب الحادي عشر ص٧٩.
(٩) اللمعات ٢٤٦.

أبو محمد الحريري الذي عرف التصوف بأنه: الدخول في كل خلق سَني والخروج من كل خلق دنيّ[١٠].

أبو عمرو بن عثمان المكي الذي قال: إن التصوف هو أن يكون العبد في كل وقت بما هو أولى به من الوقت[١١].

رويم: الذي قال: إن التصوف هو استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد[١٢].

الكتاني: الذي يقول: إن التصوف خلق فمن زاد عليـــك في الخلـــق زاد عليـــك في الصفاء[١٣].

فإذا كانت هذه المعاني أخلاقا تلخص التصوف أو تلخص حالات منه فإن النورسي قد أخذ منها بحظ وافر وتحلى بها حتى صارت ميسما له، فهو الرجل الذي انقطع للحق وأنس به حتى كان يمضي عليه أكثر من شهرين أو ثلاثة وهو وحيد لا يرى شخصا إلا بعد مرور عشرين يوما أو أكثر منفردا مـــختليا بنفسه على قمة جبل جام المطل على مراعي بارلا.

وإذا كان التصوف استزادة من الخير وخروجا من كل خلق دنيء ودخولا في كل خلق سني، كما عبر به الحريري، أو كان اشتغالا بالمفيد من الأعمال واسترسالا مع مراد الله كما عبر به رويم فإن تلك المعاني متوفرة للنورسي حاضرة في أخلاقه أقوى حضور.

موقف النورسي من الواقع الصوفي، ومن التصوف النظري.

حين يتابع الباحث ما كتبه النورسي عن التصوف باعتباره واقعا ماثلا في حياة الناس، وباعتباره هدفا للتغيير والإصلاح فإنه يقف على المعطيات التالي:

– إن النورسي كان يضع نفسه في المقام المناسب له باعتباره عالما من علمـــاء الأمـــة يتحمل مسؤولية التوجيه والتقويم والحماية للشريعة، وباعتباره رجل دعوة تعتمد الحكمـــة وتتفادى توسيع دائرة الخصومة والشقاق، فلذلك كان ينطلق من اعتبار مؤسسات التصوف واقعا لا يمكن الاستهانة بوجوده ولا يجدي التفرغ لمواجهته وإنما يتعين إصلاحه من الداخل

---

(١٠) الرسالة القشيرية ٢١٧.

(١١) الرسالة القشيرية٢١٧.

(١٢) الرسالة القشيرية٢١٧.

(١٣) الرسالة القشيرية٢١٨.

وذلك بتصحيح أخطائه وتقويم مقولاته وآرائه المخالفة لمنطق الشريعة، وبوضعه أخيرا في صف القوى الحامية للإسلام . إن النورسي قد تعامل مع الطرق الصوفية الحاضرة بموضوعية وتجرد فكشف عن مشاركة بعضها في خدمة الإسلام من حيث قيامها بتأطير الناس دينيا ومن حيث قيامها بحماية وجود الإسلام وبمشاركتها في حركة الجهاد ضد الغزو النصراني[١٤] ولكن هذا لا يلغي أن الطرق الصوفية قد لابستها أخطاء فكرية وسلوكية أضرت بها وأبعدتها عن هدي الإسلام.

– إن النورسي كان أكثر انطلاقا وإسهابا في نقد بعض جوانب الفكر الصوفي، وفي تحليل بعض مقولاته التي ابتعدت عن جوهر الشريعة ومنطق الإسلام، ومنها نظرية وحدة الوجود، ووحدة الشهود واعتقاد بعضهم المبالغ في الولاية والأولياء.

– لقد كان النورسي يرى من نفسه أنه واحد من علماء الشريعة الذين خبروا التصوف علما وممارسة ولكنهم عرضوا مقولاته على الشرع فقبلوا منها ما يقبله الشرع ورفضوا ما يرفضه وبهذا مارسوا عملية الحسبة والتوجيه مثلما مارسها غيرهم في مجال تلقين العلوم فبينوا ما ينفع منها وما لا ينفع، وكما مارسها غيرهم في مجال المحافظة على الأخلاق العامة للمجتمع الإسلامي وكما مارسها غيرهم في مراقبة الأسواق وجودة السلع وصحة المكاييل والأوزان.

إن وظيفة الحسبة الشرعية على التصوف كانت حاضرة على الدوام عبر تاريخ الأمة التي وجد منها من أمثال الإمام أبي بكر الطرطوشي الأندلسي (٥٢٠) والإمام أبي إسحاق الشاطبي (٧٦٠) والشيخ أحمد زروق (٨٩٩) وتلميذه أبي القاسم ابن خجو الخلوفي الحسني (٩٥٦) وكل هؤلاء قد ناهض البدع والمحدثات وحاربها بما كتب عنها، وقد لقب الشيخ زروق بلقب محتسب العلماء والأولياء[١٥] بعد أن وضع الكثير من المؤلفات في ضبط مسيرة التصوف حتى لا ينحرف عن توجيه الشريعة ومن تلك المؤلفات كتابه قواعد التصوف الذي ضمنه سبع عشرة ومائتي قاعدة ضابطة لحقائق التصوف.

---

[١٤] المكتوبات. المكتوب التاسع والعشرون ٥٧٤.

[١٥] النبوغ المغربي عبد الله كنون ص ٢٠٨.

تشيع في أدبيات التصوف مصطلحات تعبر عن جوهر التصوف لدى بعض المتصوفة الذين خرجوا بالتصوف من طابعه العلمي إلى أن دخلوا به في مجال النظر الفلسفي، فكانت تلك المصطلحات موضع انتقاد ومراجعة من علماء الشريعة بعد أن بدا لهم أن تلك المصطلحات تناقض التصور الإسلامي في وجه من الأوجه، وقد يكون من أكثر تلك المصطلحات تعرضا للنقد والمساءلة مصطلحات وحدة الوجود، ووحدة الشهود، وحدود الولاية الصوفية، وختم الولاية والمعراج الصوفي والديوان الصوفي وثنائية الحقيقة والشريعة.

لقد وقف النورسي أمام تلك المصطلحات وأفاض في القول عنها على وجه الإنصاف مبرزا حقيقة ما في مضمونها. ويمكن استعراض موقف النورسي من جملة من تلك المفاهيم منها:

ثنائية الحقيقة والشريعة عند بعض المتصوفة.

يحرص بعض المتصوفة على إبراز فارق بين الحقيقة والشريعة أو بين علوم القلوب وعلوم الرسوم، ويجعلون علوم القلب والذوق علوما حية بينما يجعلون علوم الرسوم علوما ميتة حتى قال قائلهم متوجها بالخطاب إلى علماء الشريعة أخذتم علمكم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت.

لقد سجل النورسي أثناء حديثة عن ثنائية الحقيقة والشريعة كما افترضها بعض المتصوفة أنها وهم وخطأ نشأ عن الجهل بمدار الشريعة واستيعابها لكل التصرفات على اختلاف درجات قربهم من الخالق، وقد أثبت النورسي أن بعض المتصوفة قال: إن الشريعة هي قشر ظاهري[١٦].

لقد رد النورسي هذا القول بأن الشريعة شاملة مستوعبة وعلومها منها الجلية الواضحة التي تنكشف لعموم الناس ومنها علوم دقيقة لا يدركها إلا خواص الناس، والخطأ يكمن في تسمية بعض علوم الشريعة حقيقة وأخرى شريعة.

---

[١٦] المكتوبات ٥٨٣.

إن الشريعة هي نتيجة الخطاب الإلهي الصادر مباشرة دون حاجز أو ستار، وبناء عليه فإن أي معرفة لا يمكن أن تسمو سمو ما كان مصدره الوحي، والشريعة إنما هي بناء شامخ وأعلى مراتب الطريقة ودرجات الحقيقة ليست إلا أجزاء من كلية الشريعة[١٧].

والسالك في الطريقة يرتفع تدريجيا إلى أعلى المراتب التي ينال فيها ما في الشريعة نفسها من معنى الحقيقة وسر الطريقة[١٨]. وعلى هذا فأهل الطريقة وأصحاب الحقيقة كلما تقدموا في مسلكهم وارتقوا في معارجهم وجدوا أنفسهم منجذبين أكثر إلى الحقائق الشرعية متبعين لها مندرجين ضمن غاياتها ومقاصدها حتى إنهم يتخذون أبسط أنواع السنة النبوية الشريفة كأعظم مقصد وغاية يسعون إلى اتباعها مقلدين لها لأنه بمقدار سمو الوحي وعلوه على الأفهام فالآداب الشرعية التي هي ثمرة الوحي هي أسمى وأعلى من آداب الطريقة التي هي ثمرة الإلهام، لذا فإن أساس الطريقة هو اتباع السنة النبوية المطهرة[١٩].

إن ما قاله النورسي في موضوع ثنائية الحقيقة والشريعة هو ما حرص على تأكيده أنبه العلماء الذين نصوا على أن الشريعة هي الميثاق بين الله وعباده وعلى أساسها تجري المثوبة والمؤاخذة ، بناء على قوله تعالى: (**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الامْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ اهواء الذينَ لا يَعْلَمُونَ**) (الجاثية: ١٨)

ولقد نص الشيخ أحمد زروق الذي عرف بأنه محتسب الأولياء والعلماء على أن كبار المتصوفة كانوا متمسكين بالشرع بل ويتمذهبون بمذهب إمام معين إذ لم يكونوا من أهل الاجتهاد، فكان الجنيد على مذهب الثوري وكان الشبلي مالكيا وكان الحريري حنفيا والمحاسبي شافعيا[٢٠].

وقبل الشيخ زروق كان الجنيد يصرح بضرورة الالتزام بالكتاب والسنة. ويقول: علمنا مضبوط بالكتاب والسنة من لم يحفظ القرآن و لم يكتب الحديث و لم يتفقه لا يقتدى به[٢١].

---

[١٧] المكتوبات ٥٨٣.
[١٨] المكتوبات ٥٨٣.
[١٩] المكتوبات ٥٨٣.
[٢٠] قواعد التصوف لأحمد زروق القاعدة ٤٥ ص ٢٦.
[٢١] حلية الأولياء لأبي نعيم ٢٥٥/١٠.

النورسي ونظرية وحدة الوجود.

يلخص النورسي مفهوم نظرية وحدة الوجود عند المتصوفة فيقول: نعتبر وحدة الوجود التي تضم وحدة الشهود من المشارب الصوفية المهمة وهي تعني حصر النظر في واجب الوجود، إن الموجود الحق هو واجب الوجود سبحانه فحسب وإن سائر الموجودات ظلال باهتة وزيف ووهم لا يستحق إطلاق صفة الوجود عليها حيال واجب الوجود، لذا فإن أهل المشرب يذهبون إلى اعتبار الموجودات خيالا ووهما ويتصورونها عدما ومرتبة ترك ما سواه أي ترك ما سوى الله حتى إنهم يتطرفون ويذهبون إلى حد اعتبار الموجودات مرايا خيالية لتجليات الأسماء الحسنى(٢٢).

وما أورده النورسي عن وحدة الوجود رغم انتقاده لها يظل ألطف التعابير في محاكمة هذه النظرية إذا ما قورن بما صرح به منتقدوها والرافضون لها وما رتبوه عليها من إلزامات عقدية خطيرة.

ولقد كتب بعض الطائفين حول وحدة الوجود ما حاولوا به تصويرها والاعتذار لأصحابها، فكتب إبراهيم الكوراني المدني رسالة أسماها: المسلك الجلي في حكم شطح الولي. وقد قدم لها عبد الغني النابلسي وحققها الدكتور عبد الرحمن بدوي عن مخطوطة موجودة بالخزانة الظاهرية بدمشق رقم ٤٠٠٨(٢٣). وفي هذه الرسالة يجيب الكوراني عن سؤال توصل به من بعض جزر جاوة عن قول من قال الله نفسنا ووجودنا ونحن نفسه ووجوده، وقال الكوراني: إن هناك أربعة أطوار: أولها طور الأغيار، وثانيها هو طور الأفعال، وثالثها هو طور صفات الله وأسمائه ورابعها هو طور ذاته، فإن كان القائل قد وصل الطور الرابع فقد صدق وإلا فهو كاذب إذا لم يبلغ الطور الرابع(٢٤).

ويمثل هذا التقسيم الذي لم يحتج له صاحبه بنص شرعي من كتاب أو سنة يقع تبرير القول بوحدة الوجود في إغفال تام لصلتها بالعقيدة الإسلامية كما أسسها القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية.

---

(٢٢) المكتوبات- المكتوب التاسع والعشرون ص ٥٧٩.

(٢٣) شطحات الصوفية . د. عبد الرحمن بدوي ص ١٩٠ وكالة المطبوعات الكويت ١٩٧٦.

(٢٤) شطحات الصوفية . د. عبد الرحمن بدوي ص ١٩١ وكالة المطبوعات الكويت ١٩٧٦.

لقد كان النورسي مدركا ما تتضمنه وحدة الوجود من مضمون مجاف للتصور الإسلامي فمن ثم ردها بقوة متوسلا بكل الأدلة التي رآها كافية في دحض وحدة الوجود، ويمكن إجمال نقاشه في الجوانب التالية.

أ- يرى النورسي أن وحدة الوجود مشرب ونـزعة وحال وهي مرتبة ناقصة وهي لكونها مشربة بلذة وجدانية ونشوة روحية فإن معظم الذين يحملونها أو يدخلون إليها لا يرغبون في مغادرتها فيبقون فيها ظانين أنها هي المرتبة الأخيرة التي لا تسمو فوقها مرتبة. نعم إن الصراط المستقيم لهو طريق الصحابة والتابعين والأصفياء الذين يرون أن حقائق الأشياء ثابتة وهي القاعدة الكلية لديهم وهم الذين يعلمون أن الأدب اللائق بحق الله سبحانه وتعالى هو قوله تعالى: (**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**) (الشورى:١١) أي أنه منـزه عن الشبه والتحيز والتجزؤ وإنَّ علاقته بالموجودات علاقة الخالق بالمخلوقات فالموجودات ليست أوهاما كما يدعي أصحاب وحدة الوجود بل هذه الأشياء الظاهرة هي من آثار الله سبحانه وتعالى، إذا فليس صحيحا قولهم لا موجود إلا هو وإنما الصحيح لا موجود إلا منه[٢٥].

ب- مما يدفع به النورسي وحدة الوجود أن القائلين بها إذا كانوا يقولون لا موجود إلا الله وينـزلون الموجودات منـزلة العدم والخيال فإن أسماء الله تعالى لا تجد تجلياتها وذلك كأسماء الرحمن والرزاق والقهار والجبار والخلاق والرحيم، التي تظل اعتبارية ما دام اسم الرزاق يقتضي مرزوقا موجودا واسم القهار يقتضي مقهورا موجودا ، فإذا كانت الموجودات معدومة فإن معاني هذه الأسماء الإلهية تتعطل وتصير غير ذات موضوع.

ج- لقد خص النورسي محيي الدين بن عربي الحاتمي (٦٣٨) باعتباره أبرز الذين دافعوا عن وحدة الوجود وأفاضوا في القول عنها بحيز مهم ضمن لمعاته فأجاب عن قول ابن عربي إن مخلوقية الروح هي عبارة عن انكشافها وبين أن ابن عربي ينطلق في قوله هذا من مشرب وحدة الوجود وهو لذلك يلجأ إلى تأويلات ضعيفة وإلى تكلف تأييد رأيه بآيات قرآنية، وقد لخص القول فيه بأنه لا يخدع ولكن ينخدع وهو مهتد لكن لا يكون هاديا لغيره في ما كتبه[٢٦].

---

[٢٥] المكتوبات – المكتوب الثامن عشر ص ١٠٦.

[٢٦] اللمعات ص ٥٢.

إن المتتبع لتحليل النورسي لمضامين وحدة الوجود يتبين له أن تحليلاته اتسمت بالدقة وبالموضوعية وبسوق الأدلة القادرة على إبطال الفكرة دونما حاجة إلى الاتكاء على الجانب العاطفي الذي يتوسل بالعبارة المثيرة التي لا تصل إلى أكثر من إحداث موقف انفعالي قد لا يصمد بعد سكون فورة الغضب.

لقد حاول النورسي رد القول بوحدة الوجود إلى مقامات روحية قاصرة تجعل صاحبها ينخدع وإن لم يكن قصده أن يخدع أحدا، فمن ثم لا يكون القائل بها موضوع قدوة أو اتباع بل قد يكون أحوج إلى التوجيه والإرشاد، ليكتشف منزلقه وما يتأدى إليه من مآلات فكرية خطيرة.

موقف النورسي من مفهوم الولاية عند المتصوفة.

الولاية والنبوة

لقد أسس القرآن الكريم مفهوم الولاية وعرضه عرضا واضحا جليا يقوم على أساس الإيمان والتقوى من العبد والهداية والتأييد والنصرة من الخالق ، وبهذا جاءت آيات القرآن فقال الحق سبحانه: (**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الذين آمنوا وكانوا يتقون**) (يونس: ٦٢) وقال: (**اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) (البقرة: ٢٥٧)

وقال: (**إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ**) (لأعراف: ١٩٦) إلى غير ذلك من الآيات التي ربطت بين الطاعة والتقوى واللجأ إلى الله وبين تأييد الله لأوليائه ونصرتهم وتوفيقهم لفعل الخير، إلا أن مفهوم الولاية هذا قد اعتراه انحراف بلغ ببعض الغلاة من المتصوفة إلى القول بأفضلية الولي على النبي، ولقد سجل أبو حيان في البحر المحيط هذا الانحراف فقال: تعلق بعض الجهال بما جرى لموسى مع الخضر عليهما السلام على أن الخضر أفضل من موسى وطردوا الحكم وقالوا قد يكون بعض الأولياء أفضل من

آحاد الأنبياء واستدلوا بقول أبي يزيد خضت بحرا وقف الأنبياء بساحله وهذا كلـــه مـــن ثمرات الرعونة والظلمة من النفس[٢٧].

ولقد أشار غير واحد من الكاتبين إلى قول بعض المتصوفة بأفضـــلية الأوليـــاء علـــى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من باب الأولى ما دام الولي قد يفضل النبي نفسه.

ولما كانت هذه الدعوى ذات صلة وثيقة بالعقيدة فقد حرص النورسي على أن يكشف عن هذا الانحراف العقدي بما يتطلبه من أدلة مقنعة.

لقد شدد النورسي النكير على من يرى اقتراب مقام الولاية من مقام النبوة فضلا عـــن أن يكون أعلى منها وقد ذكر في المكتوب التاسع والعشرين أن من مزالق بعض الصوفية ممن لا يتبعون السنة على الوجه الصحيح اعتقادهم أرجحية الولاية على النبوة[٢٨].

لقد مثل النورسي للفرق بين تلقي النبي للعلوم مباشرة عن الله وبين انطبـــاع بعـــض المعارف في قلب الولي بمثال من يتلقى نور الشمس بواسطة مرآة فيقع له من النور الساقط على المرآة يقدر سعة المرآة فيسلط هو النور على ما يشاء من مكان مظلم أو مشتل لنبات لكنه لا يستطيع أن يباشر نور الشمس بنفسه ولا أن يأخذ من أنوارها ولا أن يخاطبها لأن ما لديه من نور ليس أكثر من انعكاس نور الشمس لا غير[٢٩] .

إن ما بسطه النورسي من القول في بيان شفوف مرتبة النبوة على مرتبة الولاية هـــو في حقيقته مجمل ما قرره علماء العقيدة من أهل السنة والجماعة في الموضوع خصوصا بعـــدما ترددت أقوال تنتهي إلى رفع مرتبة الولي على مرتبة النبي، وقد عبر الإمام الطحـــاوي عـــن اعتقاد أهل السنة فقال: لا نفضل أحدا من الأولياء على أحد من الأنبياء علـــيهم الســـلام ونقول نبي واحد أفضل من جميع الأولياء[٣٠].

---

[٢٧] البحر المحيط لأبي حيان ١٣٦/٦ دار الفكر بيروت ط٢. ١٩٧٨.

[٢٨] المكتوبات- المكتوب التاسع والعشرون ص ٥٨٨.

[٢٩] الكلمات. الكلمة الحادية والثلاثون ٦٦٩.

[٣٠] شرح العقيدة الطحاوية ٥٥٥ المكتب الإسلامي ط٦. ١٤٠٠.

الولاية والصحبة.

لقد تناول النورسي موضوع المفاضلة بين الصحبة والولاية ضمن ذيل رسالة الاجتهاد الذي أفرده للحديث عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صدر هذا الذيل بإيراد سؤال وجه إليه عن حقيقة ما يروى من أنه حين تنتشر البدع يمكن أن يبلغ مومنون صادقون درجة الصحابة الكرام رضوان الله عليهم وربما يسبقونهم فهل هذه الروايات صحيحة؟ وإن كانت كذلك فما حقيقتها؟

وكان رد النورسي أن إجماع أهل السنة والجماعة حجة قاطعة على أن الصحابة الكرام هم أفضل البشر بعد الأنبياء عليهم السلام فالصحيح من تلك الروايات يخص الفضائل الجزئية وفي كمال خاص معين، وإلا فلا يبلغ أحد من حيث الفضائل الكلية غير الصحابة الكرام الذين أثنى الله عليهم في قرآنه المبين ووصفهم في التوراة والإنجيل كما هو في ختام سورة الفتح[٣١].

لقد رأى النورسي أن مقارنة الولاية بالصحبة قد تكون جائزة حينما يتعلق الأمر بإرضاء الفضول العلمي، أما مقارنة الولاية بالنبوة فإنها منزلق خطير وهدم لمقررات العقيدة التي تحفظ للنبوة مكانها الذي لا يطاول، ولذلك وجب الكف عن عقد هذه المقارنة ووجب بيان وجه الحق في مقارنة الأولياء بالأصحاب علما بأن الصحابة هم سادة الأولياء وفيهم تنزل أساسا وصف الولاية لما قال الله تعالى: (**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**) (يونس: ٦٢) ولم يكن يومئذ من ولي إلا وهو صحابي كريم.

لقد ذكر النورسي أن أعظم ولي من الأولياء لا يستطيع أن ينال مرتبة صحابي كريم لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لو أن هذا الولي كان يرى النبي صلى الله عليه وسلم عيانا مرات عديدة، لأن الصحابي لقي النبي صلى الله عليه وسلم حال كونه نبيا رسولا أما الأولياء فإنما كانت رؤيتهم له بعد وفاته أي بعد انقطاع نور الوحي، فهي صحبة بنور الولاية[٣٢].

---

[٣١] الكلمات. ذيل الكلمة السابعة والعشرون ص ٥٧٣.

[٣٢] الكلمات. ٥٧٤.

ولبيان أهمية صحبة النبوة وبركاتها يذكر النورسي أن الرجل الفظ الغليظ القلب كـــان يغشى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكسبه ذلك رقة قلب وشفافية روح حـــتى يصير متحرجا من قتل نملة وما ذلك إلا لاختراق نور النبوة للقلوب السميكة وهو ما كان يؤثر دوما في قلوب الصحابة فصاروا أصحاب مزية خلقية كانوا بها خير النـــاس وخـــير القرون على الإطلاق.

وبالإضافة إلى تميز الصحابة الخلقي فقد كانوا أقدر الناس علـــى ممارســـة الاجتهـــاد واستنباط الأحكام لأن جهدهم كان قائما على طلب مرضاة الله من خلال تلمس حكمته في التشريع ولم يكن يعنيهم من النظر في النصوص إقامة مذهب خاص بهم أو الدفاع عـــن رأي إمام ومن ثم كانوا يدركون في اليوم الواحد من أسرار الشريعة ما لا يدركه غيرهم في شهر واحد.

وقد كان للصحابة فضل عما سيق فضل السبق إلى نصرة الإسلام وتأييـــده في زمـــن عصيب وكانت الآيات تتنـــزل والأحكام تتأسس والمسلمون في ضيق شـــديد ولم يكـــن هناك من المطامع المادية ما يغري بالانتساب إلى الإسلام.

إن انتصار النورسي لمنـــزلة الصحبة يندرج ولا شك ضمن التوجه العقدي لأهل السنة والجماعة الذين كتبوا الكثير في الدفاع عن الصحابة باعتبارهم نقلة الوحي ورواة الحديث ونماذج التربية القرآنية فمن ثم كانت مكانتهم في الإسلام مكانة خاصة لا يتعمد تنقصـــها إلا من يتعمد التقليل من شأن العدول الذين شهدوا لرسول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم بالبلاغ وحملوا عنه مهمة إيصال الشريعة إلى من لم يحضر عصرهم.

النورسي والمفاهيم الصوفية

تشيع في الخطاب الصوفي عبارات ومصطلحات تعبر عن تصورات هي في حاجة إلى أن ينظر إليها من زاوية التقائها مع منطق الشريعة أو ابتعادها عنه، وقد كان فحـــص تلـــك العبارات أو المصطلحات موضع انتقاد أو مراجعة من قبل علماء الشريعة خصوصا حينمـــا يلمسون في بعض التعابير أثر استمداد من ثقافات أخرى غير إسلامية.

لقد توقف العلماء طويلا عند معنى الجمع والفرق الذي قال عنه القشيري إن مـــن لا تفرقة له لا عبودية له ومن لا جمع له لا معرفة له[٣٣]. وتوقفوا عند ختم الولاية وعند معراج الولي والحقيقة المحمدية وغير ذلك من المصطلحات التي استغرق الناس في مناقشتها زمنـــا ليس بالقصير.

لقد توقف النورسي عند بعض المصطلحات فاحصا لمضامينها منبها على الآثار العملية لتبنيها ثقافيا واجتماعيا، وهي مصطلحات متعددة سأقف منها على مصطلح الفناء كمـــا يتداوله الصوفية.

موقف النورسي من فكرة الفناء

لقد تحدث المتصوفة عن الفناء بمعاني عديدة منها فناء المرء عن غير الله فلا يرى شيئا إلا الله ولا يعلم إلا الله[٣٤]. وذكر القشيري للفناء والبقاء بمعاني منها فناء المرء عـــن أوصـــافه المذمومة لتبقى الأوصاف المحمودة، وفناؤه عن شهواته لتبقى نيته وإخلاصـــه في عبوديتـــه ومنها فناؤه عن الخلق بالحق ومنها فناؤه عن نفسه وعن الخلق بـــزوال إحساســـه بنفســـه وبهم[٣٥].

لقد عرض النورسي في اللمعات إلى مفهوم الفناء فقال: فهناك اصطلاحات تدور بين المتصوفة أمثال الفناء في الشيخ والفناء في الرسول وأنا لست صوفيا ولكن الفناء في الإخوان دستور جميل يناسب مسلكنا ونهجنا تماما أي أن يفنى كل في الآخر أي أن ينسى كـــل أخ حسياته النفسانية ويعيش فكرا مع مزايا إخوانه وفضائلهم حيث إن مسلكنا هو الأخوة في الله وأن العلاقات التي تربطنا هي الأخوة الحقيقية وليس علاقة الأب بالإبن ولا علاقة الشيخ مع المريد وإن كان ولا بد فمجرد العلاقة بالأستاذ وما دام مسلكنا هو الخليلية فمشربنا إذا هو الخلة والخلة تقتضي صديقا صدوقا ورفيقا مضحيا وأخا شهما غيورا إن الأساس هـــو

---

[٣٣] الرسالة القشرية ص٦٠ — معجم مصطلحات الصوفية د. عبد المنعم الحنفي ص ٦٦.

[٣٤] معجم المصطلحات الصوفية ص ٢٠٨.

[٣٥] الرسالة القشيرية ص ص ٦٢.

الإخلاص التام[٣٦]. ويقول إن سر الأخوة هو إفناء الفرد شخصيته في شخصية إخوانه وإيثارهم على نفسه[٣٧].

إن النورسي بهذا الاختيار يمنح كلمة الفناء معنى جديدا فيجعلها دالة على معنى إماتة الذاتية والسمو بها إلى الإيثار وإلى الانصهار في الآخرين من أجل تقديم كافة المساعدات لهم وهذا يقتضي صدقا في الأخوة وصفاء في المحبة وهذا من شأنه أن يعزز صفوف المسلمين ويجعلهم قادرين على النهوض الجماعي بمهامهم الحضارية.

وبعد فإن الحيز المتاح لمثل هذه المداخلة لا يسمح بأكثر من الإشارة إلى بعض رؤوس القضايا التي تعطي فكرة عن تعامل النورسي مع التوجه الروحي الذي يظل في حاجة ماسة إلى معالجة علمية رشيدة من أجل مساعدته على تجاوز الهفوات والأخطاء والارتباط الشديد بالأحكام الشريعة الإسلامية.

---

[٣٦] اللمعات. اللمعة الحادية والعشرون ص ٢٤٥.

[٣٧] اللمعات. اللمعة الحادية والعشرون ص ٢٥٠.

بديع الزمان النورسي
من برزخ التصوف إلى معراج القرآن

أ.د. فريد الأنصاري
جامعة مولاي إسماعيل – مكناس
المغرب

مقدمة:

ككل علماء عصره انطلق بديع الزمان سعيد النورسي – رحمه الله – في طلبه للعلم الرباني والمعرفة القلبية من مدارج التصوف وقواعده. فقد تتلمذ بدء أمره على يد الشيخ سيد نور محمد النقشبندي[٣٨] وذلك سنة: ١٨٨٨م/١٣٠٦هـ، أي أوائل القرن الرابع عشر الهجري. بل إن الثقافة العامة آنئذ لم تكن تنفصل عن المفاهيم الصوفية، بما في ذلك سائر العلوم الشرعية، التي تلقاها عن عدد من العلماء، من فقه، وأصول، وحديث، ولغة، وكلام ... إلخ. فرغم استقلال هذه العلوم بعضها عن بعض؛ فقد كان التصوف هو اللحمة الجامعة لأدب الطلب، وأخلاق التعلم، كما كان هو القانون المنظم للعلاقة بين الشيخ والتلميذ.

ومن هنا لم يزل رحمه الله يجل التصوف ويقدر مشايخه رغم ما طرأ على حياته العلمية والدعوية من تحولات. وقد سئل عن ذلك بعدما انتشرت رسائل النور وتميز منهجها القرآني، فقال: (إن غاية "الطريقة" وهدفها هو معرفة الحقائق الإيمانية والقرآنية، ونيلها عبر السير والسلوك الروحاني في ظل المعراج الأحمدي وتحت رايته، بخطوات القلب، وصولا إلى حالة وجدانية وذوقية بما يشبه الشهود. فالطريقة والتصوف سر إنساني رفيع، وكمال بشري سام.)[٣٩] فبديع الزمان لم يسجل قطيعة (ابستمولوجية) مع الفكر الصوفي؛ بما يجعله وإياه على طرفي نقيض. وإنما الذي يمكن قوله: هو أنه جدد الفكر الصوفي نفسه؛ بمحاولة

---

[٣٨] قال رحمه الله: (وأستاذي في الطريقة النقشبندية: سيد نور محمد) سيرة ذاتية ص ٢٣٦. والملاحق ص٧١.

[٣٩] المكتوبات ص٥٧١.

إعادة إنتاج الحقائق القلبية الإيمانية، لا بواسطة هياكل الطريقة وقواعدها، من مشيخة، وبيعة، وأوراد قولية وفعلية، ولكن إنتاجه الإيماني كان ينطلق بصورة مباشرة من نبع القرآن الفياض. حيث إنه لم يستمر انضباطه لنظام المشيخة بمفهومها الصوفي. فبعد حصول التحولات المشهودة في حياته الإيمانية ترك الطرق وأربابها، والمشيخة وأشكالها. فلم ينصبها أمامه بعدُ في سيره إلى الله، ولا هو انتصب لها. ولا أنتج طريقة جديدة كما هو معهود في نظام الطرق الصوفي في العصور المتأخرة. وإنما صار بما سلكه من منهج قرآني شأنا آخر.

ذلك أن أحواله رحمه الله سرعان ما تطورت؛ بما تطور من حوادث في عصره، وبما وجد من قوى باطنة في نفسه، توجهه توجيها وتدفعه بقوة إلى سلوك مسلك جديد؛ فوجد نفسه مطلوبا لهمة أخرى غير التربية الصوفية بمعناها التقليدي.

ومن هنا انطلق فاتحا مسلكا جديدا في مجال تجديد الدين بهذا العصر، دون أن يحدث قطيعة كاملة مع مفاهيم الصوفية ومصطلحاتهم بل حتى قواعدهم في التربية والتوجيه.

الفصل الأول

المنهج النوري بين مقولات التصوف ومفاهيم القرآن

لقد كانت التحولات في حياة بديع الزمان تستجيب لعدة اعتبارات منها ما هو ذاتي، يرجع إلى طبيعة الرجل وخصائصه الذاتية. ومنها ما هو موضوعي يرجع إلى طبيعة التحولات العالمية والمحلية الواقعة يومئذ.

فبديع الزمان له طبيعة متأبية على المقولات والمفاهيم. فليس من النوع الذي يتلقى الحقائق بلا اقتناع. فهو ذو شخصية تفكرية وتحققية يقلب النظر فيما حوله بلا انقطاع. ومعلوم أن التصوف في زمانه وصل إلى حالة مزرية، فيما يتعلق بمنهج التربية وطبيعة السلوك، فأنتج مفارقات كبرى بين القول والعمل، ودعاوى عريضة؛ بما حصل من قطيعة لدى كثير من أهله بين الحقيقة والشريعة، وبما دخله ممن ليس من أهله المتحققين به من بعض الدجاجلة والكذابين، بما أساء إلى التصوف وأهله، وجعل كثيرا ممن لم يتحقق من حقيقته الأصلية يرمي كافة مدارسه عن قوس واحدة.

لم يكن من السهل إذن أن يستقر بديع الزمان على طريقة معينة. وهو الذي استطاع أن

يستوعب علوم عصره الدينية، واللغوية، والفلسفية، في مرحلة مبكرة جدا من عمره؛ بما بهر مشايخه وبَزَّ أقرانه![٤٠]

بل ربما يمكن القول: إن شخصيته كانت أقوى من أن تخضع له هو نفسه! لقد كان يجد نفسه يمضي إلى قدره الذي خلق من أجله بقوة لا يستطيع مقاومتها! قال رحمه الله: (لقد تحقق لديّ يقيناً أن أكثر أحداث حياتي، قد جرت خارجة عن طوق اقتداري وشعوري وتدبيـــري! إذ أُعطي لها سَيْرٌ مُعَيَّنٌ، ووُجّهت وجهةً غريبةً؛ لتنتج هذه الأنواع من الرسائل التي تخدم القرآن الحكيم. بل كأن حياتي العلمية جميعها بـــمثابة مقدمات تمهيدية؛ لبيان إعجاز القرآن بـــ"الكلمات" [٤١].

وأما ما يتعلق بالجانب الموضوعي وأثره في توجهه الفكري والوجداني؛ فقـــد كـــان للتحولات العالمية والمحلية الكبرى الواقعة يومئذ؛ بما صاحبها مـــن حركـــات سياســـية واجتماعية وفكرية أثر كبير في رسم معالم منهجه التجديدي. ذلك أن الانهيارات الكـــبرى التي عرفتها الدولة العثمانية، وما نخر جسم الخلافة الإسلامية من وهن وضعف، وما أبصره النورسي بنظره الثاقب من كيد الأعداء في الداخل والخارج، وما صاحب ذلك كله مـــن انهيار كثير من القيم وزحف فلسفة الإلحاد على العالم الإسلامي، مع بداية قيـــام الثـــورة البلشفية في روسيا ونشوء الاتحاد السوفياتي، ثم قيام الدولة العلمانية وما قامـــت بـــه مـــن حملات استئصالية رهيبة لكل ما يرمز إلى الدين شكلا ومضمونا، ثم فشل المحاولات الـــتي قادها مشايخ معاصرون لها لإعادة الأمور إلى نصابها بالقوة، أو بالدروشة. كل ذلك جعله يرفع صوته مبادرا إلى استلام زمام المبادرة، وركوب حصان الطليعة؛ لخوض غمار التحدي بالقرآن، قائلا قولته المشهورة: (إن هذا الزمان ليس زمان الطريقة الصوفية بل زمان إنقـــاذ الإيمان!)[٤٢] مقررا بكل ثقة أن: (إنقاذ الإيمان أعظم إحسان في هذا الزمان!)[٤٣].

فالمشروع التجديدي لبديع الزمان النورسي هو على المستوى المنهجي مقارب للتصوف ومفارق له في الآن ذاته. وبيان ذلك يتضح بالمقارنات التالية:

---

[٤٠] سيرة ذاتية ص ٤٦-٤٧.

[٤١] المكتوبات ص٤٨٤، وسيرة ذاتية ص١٠

[٤٢] سيرة ذاتية ص ٣٦٩

[٤٣] سيرة ذاتية ص ٣٦٨

أ- المعرفة القرآنية ضرورية والمعرفة الصوفية فاكهة:

ذلك أن التصوف في تصور النورسي رحمه الله – بالنظر إلى ظروف عصره – إنما هو ضرب من الترف الروحي! ذلك أن حاجة العصر هي التي تحدد قيمة المفاهيم وأولويتها؛ ومن هنا كان نظر بديع الزمان إلى سائر المناهج الإصلاحية مبنيا على مدى نجاعتها بالنسبة لحال الزمان وأهله. وقد نقل الأستاذ النورسي كلاما عن الشيخ شاه نقشبند مؤسس الطريقة النقشبندية ثم علق عليه بمقارنات لطيفة، وبأدب جم رفيع، فخرج بمعادلات تربوية ذات بعد منهجي متوازن، تدل على قبوله للفكر الصوفي من جهة، وتجاوزه له من جهة ثانية؛ بناء على معطيات العصر الموصوفة قبل، وما تفرضه من أولويات.

قال رحمه الله: "لقد قال رائد السلسلة النقشبندية وشمسها الإمام الرباني – رضي الله عنه – في مؤلفه "مكتوبات": "إنني أرجّح وضوح مسألة من الحقائق الإيمانية وانكشافها على آلاف من الأذواق والمواجيد والكرامات"[٤٤]. وقال أيضا: "إن منتهى الطرق الصوفية كافة هو وضوح الحقائق الإيمانية وانجلاؤها[٤٥]". وقال كذلك: "إن الولاية ثلاثة أقسام: الولاية الصغرى: وهي الولاية المشهورة. وقسم ثان: هو الولاية الوسطى. وقسم ثالث: هو الولاية الكبرى. هذه الولاية الكبرى هو فتح الطريق إلى الحقيقة مباشرة، دون الدخول في برزخ التصوف. وذلك بوساطة وراثة النبوة"[٤٦]. وقال أيضاً: "إن السلوك في الطريقة النقشبندية يسير على جناحين، أي الاعتقاد الصحيح بالحقائق الإيمانية، والعمل التام بالفرائض الدينية. فإذا ما حدث خلل وقصور في أي من هذين الجناحين يتعذر السير في ذلك الطريق"[٤٧].

---

[٤٤] المكتوبات للإمام الرباني أحمد السرهندي: ١٨٢/١ (المكتوب: ٢١٠) نقلا عن تحقيقات إحسان قاسم الصالحي لرسائل النور. ن: مكتوبات النورسي ص ٢٦

[٤٥] نفسه، نقلا عن تحقيقات إحسان قاسم الصالحي لرسائل النور. ن: مكتوبات النورسي ص ٢٦

[٤٦] مكتوبات السرهندي: ٢٤٠/١ (المكتوب ٢٦٠).) نقلا عن تحقيقات إحسان قاسم الصالحي لرسائل النور. ن: مكتوبات النورسي ص ٢٦

[٤٧] مكتوبات السرهندي: ٨٧/١ (المكتوب:٧٥) ، ٩٨/١ (المكتوب: ٩١) ، ٩٩/١ (المكتوب: ٩٤).) نقلا عن تحقيقات إحسان قاسم الصالحي لرسائل النور. ن: مكتوبات النورسي ص ٢٧.

بمعنى أن الطريقة النقشبندية [يقول بديع الزمان] لها ثلاثة مشاهد:

أولها وأسبقها وأعظمها: هو خدمة الحقائق الإيمانية خدمة مباشرة ، تلك الخدمة التي سلكها الإمام الرباني في أخريات أيامه.

الثاني: خدمة الفرائض الدينية والسنة النبوية، تحت ستار الطريقة.

الثالث: السعي لإزالة الأمراض القلبية، عن طريق التصوف والسير بخطى القلب.

فالأول من هذه الطرق هو بحكم الفرض، والثاني بحكم الواجب، والثالث بحكم السنة.

فما دامت الحقيقة هكذا: فإني إخال أن لو كان الشيخ عبد القادر الكيلاني، والشاه النقشبند[٤٨] والإمام الرباني[٤٩] وأمثالهم من أقطاب الإيمان – رضوان الله عليهم أجمعين – في عصرنا هذا؛ لبذلوا كل ما في وسعهم لتقوية الحقائق الإيمانية والعقائد الإسلامية؛ ذلك لأنهما منشأ السعادة الأبدية، ولأن أي تقصير فيهما يعني الشقاء الأبدي!

نعم؛ لا يمكن دخول الجنة من دون إيمان، بينما يدخلها الكثيرون جداً دون تصوف. فالإنسان لا يمكن أن يعيش دون خبز، بينما يمكنه العيش دون فاكهة. فالتصوف فاكهة، والحقائق الإسلامية خبز.)[٥٠]

هكذا إذن يصبح التصوف بالنسبة للنورسي – في زمن الانهيارات الكبرى – مجرد فاكهة. والعمل الضروري عنده إنما هو قائم على التشمير عن ساعد الكدح؛ لاستخراج حقائق الإيمان مباشرة من القرآن العظيم، والسير بها في الآفاق مربيا ومعلما. فكانت رسائل النور هي تلك النتيجة النورية التي سلطها النورسي على ظلمات العصر فانفجرت بشعاعات لا تنتهي من الأجيال القرآنية التي تتحدى فلسفات العصر، وكل ضروب العلمانية الزاحفة!

لقد أشبهت حالة بديع الزمان النورسي — إلى حد ما – حالة متصوفة الصدر الأول، من أمثال الإمام الجنيد والحارث بن أسد المحاسبي وأضرابهما، ممن لم يشتغلوا بالألقاب والأقطاب، ولا حتى التزموا شيخا معينا على التحديد دون سواه؛ في سيرهم إلى الله، وإنما

---

[٤٨] هو محمد بهاء الدين مؤسس الطريقة النقشبندية.

[٤٩] يعني: الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي الفاروقي.

[٥٠] المكتوبات ص ٢٧

التزموا سنة الرسول صلى الله وسلم في مجمل عبادته. فتحققوا بالمعاني الكبار من حقائق القرآن، عند ولوج معارجه بين سبحات الليل والنهار.

ومن هنا فقد ألغى — رحمه الله – وسائط المشايخ، وتتلمذ على النبي صلى الله عليه وسلم في سيره إلى الله. وهي مرتبة أعلى في سلم مراتب الولاية، كما بينه في النص المذكور، نقلا عن الإمام السرهندي. أعني قوله: (والولاية الكبرى: هو فتح الطريق إلى الحقيقة مباشرة، دون الدخول في برزخ التصوف، وذلك بوساطة وراثة النبوة.)

ومن هنا كان العنصر الثاني في هذه المقارنة النورية هو:

ب- المعرفة القرآنية مباشِرَةٌ والمعرفة الصوفية برزخية:

والبرزخ المعرفي إنما هو فاصل نفساني، أو ممر روحاني خاص، تَعْبُرُهُ الحقائق؛ فلا بد إذن أن تتأثر المعارف بطبيعته، ولا يمكنها أن تحافظ على أصالتها، وفطرتها الأولى، كما كانت في الأصل. فالمفاهيم عندما تُتَلَقَّى من معراج القرآن لحظةَ المشاهدة القلبية لحقائقه الإيمانية؛ تكون أوضح وأصفى، لكنها على غير تلك الصورة من الوضوح؛ إذا ما تُلقيت عبر البرزخ الصوفي؛ لما يخالطها من الارتجاجات الإنسانية، ولما يحجبها من حُجُبِ المسافة النفسانية على حسب مقام الشخص المتلقي وحاله. ولقد درسنا مفهوم التوحيد كما تلقاه بديع الزمان النورسي عبر المعراج القرآني، مقارَناً بما رسمه أهل الأحوال والمقامات من معان؛ فكان الأمر – كما عبر عنه هو نفسه رحمه الله – في غاية التمايز؛ لما بين المسلكين من فروق دقيقة قد لا تُرى بادئ النظر.

وذلك أنه سئل – رحمه الله – كيف (أن علماء الكلام يثبتون (التوحيد) بعد ظهورهم ذهنا على العالم كله، الذي جعلوه تحت عنوان الإمكان والحدوث؟ وإن قسما من أهل التصوف لأجل أن يغنموا بحضور القلب واطمئنانه، قالوا: (لا مشهود إلا هو)، بعد أن ألقوا ستار النسيان على الكائنات، وقسم آخر منهم قالوا: (لا موجود إلا هو) وجعلوا الكائنات في موضع الخيال، وألقوها في العدم؛ ليظفروا بعد ذلك بالاطمئنان، وسكون القلب. ولكنك تسلك مسلكا مخالفا لهذه المشارب، وتبين منهجا قويما من القرآن الكريم، وقد جعلت شعار هذا المنهج: "لا مقصود إلا هو"، "لا معبود إلا هو"! فالرجاء أن توضح لنا باختصار برهانا واحدا يخص (التوحيد) في هذا المنهج القرآني!

– الجواب: إن جميع ما في (الكلمات)، و(المكتوبات)، يبين ذلك المنهج القـويم (...) إن كل شيء في العالم يُسندُ جميع الأشياء إلى خالقه، وإن كل أثر في الدنيا يدل علـى أن جميع الآثار هي من مؤثره هو (...) أي أن كل شيء هو برهان وحدانية واضح، ونافـذة مطلة على المعرفة الإلهية؛ (...) لأن القانون الساري في الموجودات هو سلسلة تشد جميعها، بعضها ببعض، والأفعال مرتبطة به (...) ذلك لأن الأسماء المتجلية في الكون متداخل بعضها في بعض، كالدوائر المتداخلة، وألوان الضوء السبعة. كل منها يسند الآخر ويمده، كل منها يكمل أثر الآخر ويزينه!).[٥١]

إن تجلي الأسماء في الموجودات هو الخاتم، أو السكة، أو الطغراء، التي تدل على المعرفة الإلهية، جوهر (التوحيد الحقيقي). ولقد بينا ولع النورسي بتتبع هـذا المعـنى في تحقيـق التوحيد[٥٢]. لا يكاد يذكر هذا إلا من خلال ذاك! قال مثلا: (إن للصانع جل جلاله على كل مصنوع من مصنوعاته (سكة)، خاصة بمن هو خالق كل شيء! وعلى كل مخلوق من مخلوقاته (خاتم)، خاص بمن هو صانع كل شيء! وعلى كل منشور من مكتوبات قدرتـه (طغراء) غراء لا تقلد، خاص بسلطان الأزل والأبد!)[٥٣]. ومثله قوله: (وأما التوحيد لأهل الحقيقة؛ فإنما يَثْبُتُ بأن يُثْبَتَ كل شيء مما يشاهد من الأشياء ويسنده إليه سبحانه، ويرى فيه سكته، ويقرأ عليه خاتمه جل جلاله. وهذا الإثبات يثبت الحضور، وينافي الغفلة!).[٥٤]

فالمفاهيم الروحية كما يعرضها النورسي إنما يتلقاها في حال اليقظة، لا في حال المحو والسكر، كما يعبر القوم. فاليقظة عنده أكمل من السكر، والحضور أقوى من الغياب، على عكس ما هو موجود عند غيره. ذلك أن (طريق القرآن) عنده – رحمه الله – تسلك بالعبد إلى ربه عبر نفسه الواعية، اليَقظَة؛ من خلال مسلك الوجود. وذلك كمال الابتلاء وكمال التوحيد. فالعبد الذي يستوعب الوجود حوله بتعدده وتنوعه، فلا يفقد بوصلة السير إلى الله الواحد؛ هو العبد الأكمل. فإذا بالكائنات جميعها بين يديه مجالس ذكر تسير بسيره إلى الله. فلا ينبغي أن يفتنه شيء في ذلك كله عن ربه، بل يجب أن يجد كل شيء منعكسا عن أنوار الأسماء الحسنى. ومن هنا لم يكن طريق القرآن يضطر إلى محو الوجود كما يفعـل أهـل

---

[٥١] المكتوبات: ٢/٤٢٨– ٤٢٩

[٥٢] ينظر مصطلح (التوحيد) في كتابنا مفاتح النور ص ٤١

[٥٣] المثنوي العربي: ٦/٤١

[٥٤] المثنوي العربي: ٦/٣٤٦

الشطحات القائلين بوحدة الوجود. نعم! ذلك هو طريق القرآن.

قال رحمه الله في بيان عجيب، تُشد إلى مثله الرحال: (إن هذا الطريق أسْلَمُ من غيره؛ لأن ليس للنفس فيه شطحات، أو ادعاءات فوق طاقتها؛ إذ المرء لا يجد في نفسه غير العجز، والفقر، والتقصير، حتى لا يتجاوز حده. ثم إن هذا الطريق طريق عام وجادة كبرى، لأنه لا يضطر إلى إعدام الكائنات، ولا إلى سجنها، حيث إن أهل "وحدة الوجود" توهموا الكائنات عدماً، فقالوا: "لا موجود إلا هو" لأجل الوصول إلى الاطمئنان والحضور القلبي. وكذا أهل "وحدة الشهود" حيث سجنوا الكائنات في سجن النسيان، فقالوا: "لا مشهود إلا هو" للوصول إلى الاطمئنان القلبي.

بينما القرآن الكريم يعفي الكائنات بكل وضوح عن الإعدام، ويطلق سراحها من السجن. فهذا الطريق على نهج القرآن ينظر إلى الكائنات أنها مسخرة لفاطرها الجليل، وخادمة في سبيله، وأنها مظاهر لتجليات الأسماء الحسنى، كأنها مرايا تعكس تلك التجليات. أي أنه يستخدمها بالمعنى الحرفي، ويعزلها عن المعنى الاسمي، من أن تكون خادمة ومسخرة بنفسها. وعندها ينجو المرء من الغفلة، ويبلغ الحضور الدائمي على نهج القرآن الكريم. فيجد إلى الحق سبحانه طريقاً من كل شيء)[٥٥].

ذلك إذن؛ وجه من وجوه الفرق ما بين البرزخية الصوفية والمعراج القرآني المباشر. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن المعرفة الصوفية عند بديع الزمان - رغم ما كان يكنه لها من احترام - معرفة قائمة على منهج المغامرة، وذلك بما هي معرفة ناقصة غير كاملة، وبما يشوبها من تدخل الذات الإنسانية وأحوالها. فهي لذلك في حاجة إلى تأمين. وإنما تأمينها هو (المعراج القرآني). وبيان ذلك هو كما يلي:

ج- المعرفة القرآنية مضمونة مأمونة والمعرفة الصوفية مغامرة:

وقد بين بديع الزمان هذه الحقيقة المنهجية، بما يكفي ويشفي، وذلك في سياق الجواب عن سؤال وجه إليه في موضوع (منهج المعرفة)، بمعناه (الابستيمولوجي)، عندما سئل في سياق المقارنة بين المتصوفة وعلماء الكلام: (ماذا يعني محيي الدين بن عربي عندما قال في

---

[٥٥] الكلمات ص٥٦١

رسالته الموجهة إلى فخر الدين الرازي: "إن معرفة الله غير معرفة وجوده." وما قصده منه؟

فقال رحمه الله مجيبا: (إن الذي دعا محيي الدين بن عربي إلى أن يقول هذا الكلام لفخر الدين الرازي – وهو إمام من أئمة الكلام – هو: أن ما بيَّنَهُ أئمة أصول الدين وعلماء الكلام فيما يخص العقائد، ووجود الله سبحانه، وتوحيده، غير كاف في نظر ابن عربي.

حقاً! إن معرفة الله المستنبطة بدلائل علم الكلام ليست هي المعرفة الكاملة، ولا تورث الاطمئنان القلبي، في حين أن تلك المعرفة متى ما كانت على نهج القرآن الكريم المعجز، تصبح معرفة تامة، وتسكب الاطمئنان الكامل في القلب. نسأل الله العلي القدير أن يجعل كل جزء من أجزاء رسائل النور بمثابة مصباح، يضيء السبيل القويم النوراني للقرآن الكريم.

ثم إن معرفة الله التي استقاها الرازي من علم الكلام، كما تبدو ناقصة وقاصرة في نظر ابن عربي؛ فان المعرفة الناتجة عن طريق التصوف أيضاً ناقصة ومبتورة – بالنسبة نفسها – أمام المعرفة التي استقاها ورثة الأنبياء من القرآن الكريم مباشرة.)[٥٦]

وهذا ما يسبب وجود (المغامرة المعرفية) في المنهج الصوفي، كما هو الشأن في المناهج الإنسانية الأخرى كعلم الكلام والفلسفة؛ بما يجعلها جميعها (ليست مصونة من الشبهات والأوهام). على حد تعبير النورسي، كما سترى بحول الله.

إن السباحة في محيطات الروح أمر صعب جدا! لمَا في ذلك من إبحار في عالم الغيب. وواضحٌ أن الدخول إلى مثل تلك العوالم بغير صحبة دليلٍ خريت: يعني الهلكة! (**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلا قَلِيلاً**) (الإسراء: ٨٥). والدليل الحق عند النورسي إنما هو القرآن. لأن القرآن هو المفتاح المفسر لكتاب العالَم، من البحر المسجور إلى البيت المعمور! ومن دركات النفس الإنسانية إلى درجات الملائكة العندية! فمن ذا يدعي أنه أهل للدلالة على محجة تلك الطريق؟ إذن لا يكون إلا صاحب دعوى عريضة، أو أسير أهواء مريضة! إن الخرائط التي ترسمها النفس الإنسانية لمدارج الروح – بمجرد تذوقاتها الشخصانية، غير المبينة على علم بكتاب الله، وسنة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، – ليست سوى خرائط وهمية، قد تشابه الحقيقة؛ ولكنها لا تقاربها! لأنها تسير في طريقها بغير تأمين ولا ضمان!

---

[٥٦] المكتوبات ص٤٢٤

قال بديع الزمان: (إن أصول العروج إلى عرش الكمالات – وهو معرفة الله جل جلاله – أربعة:

– أولها: منهاج علماء الصوفية، المؤسس على تزكية النفس، والسلوك الإشراقي.
– ثانيها: طريق علماء الكلام المبني على الحدوث والإمكان(...).
– ثالثها: مسلك الفلاسفة.

هذه الثلاثة ليست مصونة من الشبهات، والأوهام!

– رابعها: المعراج القرآني الذي يعلنه ببلاغته المعجزة، فلا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول، فهو أقصر طريق وأوضحه، وأقربه إلى الله، وأشمله لبني الإنسان. ونحن قد اخترنا هذا الطريق!)(٥٧)

– إن الضمان والأمان الذي تفتقد إليه المعرفة الصوفية هو الذي يسبب لبعض أربابها كثيرا من الأوهام، والإلقاءات الشيطانية، التي نبها عليه النورسي تلميحا في النص المذكور أعلاه، والتي عبر عنها بعدُ تصريحا في سياق آخر، وذلك عند نقده لما يحصل من فرقة وتعصب بين مختلف الطرق؛ لما يتطرق إلى خواطر بعض المشايخ والمريدين من التخيلات والشطحات، التي تعصف بالطريقة وأهلها، وتجعل السير كله في غير مأمن من الانزلاق بمهاوي الدركات؛ بدل الارتقاء بمنازل الدرجات!

يقول رحمه الله: (إن بعض المتطرفين من أهل التصوف يظنون خطأً أن "الإلهام" بمرتبة "الوحي"، كما يعتبرون الإلهام نوعاً من أنواع الوحي، فيسقطون في هذا المزلق الخطير. وقد بَرْهَنّا (...) كيف أن الوحي سام، وعال، وساطع وضاء، وكلي شامل؛ بينما الإلهام بالنسبة إليه جزئي وخافت).(٥٨) وهذا التوهم هو الذي يدخل الطرق الصوفية في صراع عدمي، بعضها مع بعض؛ بما يخيل إلى بعض أهلها من خصوص لديها ليس لدى غيرها؛ مما ينتج عنه في نهاية المطاف الوقوع فيما سماه النورسي بـ(الورطة)، وهي تفضيل الطريقة وأورادها الخاصة على الطريقة الأم، أعني السنة المحمدية. قال – رحمه الله – يصف هذه المشكلة المنهجية: (وهي ترجيح بعض المتطرفين والمتعصبين جداً للطريقة؛ لأوراد طريقتهم

---

(٥٧) صيقل الإسلام: ١٢٢/٨–١٢٤.
(٥٨) المكتوبات ص ٥٨٩

وآدابها؛ على أذكار السنة النبوية الشريفة، فيسقطون بذلك في منـــزلق مخالفة السنة النبوية وتركها، في الوقت الذي يظلون متشبثين بأوراد طريقتهم، أي أنهم يسلكون سلوكَ غـــير المبالي بآداب السنة النبوية الشريفة، فيهوون في الورطة. وكما أثبتنا في كلمـــات كثـــيرة، وكما أكد كبار محققي الطرق، كالإمام الغزالي، والإمام الرباني: "أن اتباع سنة واحدة من السنن النبوية يكون مقبولاً عند الله أعظم من مائة من الآداب والنوافل الخاصة. إذ كما أن فرضاً واحداً يرجح على ألف من السنن؛ فان سنة واحدة من السنن النبوية ترجح علـــى ألف من آداب التصوف!")[٥٩].

إن المعراج القرآني هو صمام الأمان الذي يقترحه النورسي مسلكا لهذا العصر؛ نظـــرا للاعتبارات المذكورة أعلاه، سواء على المستوى المنهجـــي؛ أو علـــى المســـتوى الـــذاتي والموضوعي. ومن هنا كانت رسائل النور درسا متخصصا في بيان خصائص هذا المسلك، الذي يرى بديع الزمان أنه مسلك المستقبل الذي به يتجدد عهد الأمة وميثاقها، وبه تكون وحدتها وانبعاثها من جديد.

---

[٥٩] المكتوبات ص ٥٨٨.

الفصل الثاني

في خصائص الفكر النوري التربوي

بما أن الفكر النوري قرآني المشرب؛ فإنه يصعب حصر كل خصائصه المنهجية؛ لأنه استصحب أنوار القرآن الكريم في التربية والتبليغ، واعتمد على قواعده في الخطاب عند مواجهة النفس الإنسانية، وبناء النسيج الاجتماعي. بيد أنا ههنا بحول الله سنبقى في سياق المقارنة المنهجية بينه وبين الفكر الصوفي؛ وبهذا تتحدد لنا الخصائص المنهجية الكبرى، فنصوغها في كليات ترجع إليها كثير من الخصائص الفرعية. وعليه؛ فإنه يمكن أن نحصر خصائص الفكر النوري على المستوى التربوي خاصة؛ في ثلاث كليات كبرى، تميز بها عن الفكر الصوفي المعاصر له. وهي كما يلي:

- **الصبغة القرآنية**
- **الشمولية الاستيعابية**
- **المنهجية التفكرية الكونية**

ونعرض الآن – بحول الله – كلَّ واحدة على حدة، بنوع من التفصيل.

أولا – الصبغة القرآنية:

أهم خاصية تميز بها الفكر النوري جملة – بحيث لا تكاد تجد رسالة من رسائله، ولا حدثا في حياته الدعوية، خاصة بعد مرحلة (سعيد الجديد) – إلا وهي قرآنية المعنى، في كل تجلياتها، من بدايتها إلى نهايتها. ولم تكن رسائل النور في نهاية أمرها غير فيض من حقائق القرآن، كما عبر النورسي نفسه في غير ما مناسبة. وقد سبق نص قوله الصريح: (إن أكثر أحداث حياتي، قد جرت خارجة عن طوق اقتداري، وشعوري، وتدبيري؛ إذ أُعْطِيَ لها سيرٌ معينٌ، ووُجِّهت وجهةً غريبةً؛ لتنتج هذه الأنواع من الرسائل التي تخدم القرآن الحكيم. بل كأن حياتي العلمية جميعها بمثابة مقدمات تمهيدية؛ لبيان إعجاز القرآن بالكلمات!).[٦٠]

---

[٦٠] المكتوبات ص ٤٨٤، وسيرة ذاتية ص١٠.

وكأنما هو بذلك يشير إلى (الرؤيا) القرآنية التي رآها في صغره، والتي ذكرها أكثر من مرة في رسائله؛ بما يُظهر مدى ما كان لها من الأثر في بناء وجدانه، وتوجيه حياته كلها!

قال رحمه الله تحت عنوان: (رؤيا صادقة حول إعجاز القرآن:

قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، وقبل إبّان نشوبها رأيت في رؤيا صادقة الآتي:

رأيت نفسي تحت جبل (آرارات).. وإذا بالجبل ينفلق انفلاقاً هائلاً، فيقذف صخوراً عظيمة كالجبال إلى أنحاء الأرض كافة! وبينما أنا في هذه الرهبة التي غشيتني رأيت والدتي – رحمة الله عليها – بقربي. قلت لها: لا تخافي يا أماه! إنه أمر الله، إنه رحيم، إنه حكيم. وإذْ أنا بتلك الحالة؛ إذا بشخص عظيم يأمرني قائلاً:

– بيّن إعجاز القرآن!

أفقتُ من نومي، وأدركتُ أنه سيحدث انفلاق عظيم! وستتهدم الأسوار التي تحيط بالقرآن الكريم؛ من جراء ذلك الانفلاق والانقلاب العظيم! وسيتولى القرآن بنفسه الدفاع عن نفسه! حيث سيكون هدفاً للهجوم، وسيكون إعجازه هو حصنه الفولاذي، وسيكون شخص مثلي مرشحاً للقيام ببيان نوع من هذا الإعجاز في هذا الزمان – بما يفوق حدّي وطوقي كثيراً – وأدركتُ أني مرشح للقيام بهذا العمل!).[٦١]

لقد كانت هذه الرؤيا تسكن وجدانه كلَّ عمره. فكلما ألمت به ملمة من مصائب الدهر، أو حلت بأمته؛ إلا وتذكر ذلك (الأمر) القرآني الحتمي، الذي تعين في حقه – كما فهم هو رحمه الله – من رؤياه. فلم يزل كذلك يتردد بين التصورات والمناهج؛ حتى استقر به المطاف على شواطئ (سعيد الجديد)[٦٢]، ذلك الرجل القرآني بامتياز؛ فكانت (رسائل النور)، وكانت حركة القرآن تملأ كل مكان!

ومن تأمل تعريف النورسي للقرآن يدرك مدى العمق الذي تغلغل إليه التعامل مع القرآن وبالقرآن في حياة النورسي.

---

[٦١] المكتوبات ص ٤٧٥، وسيرة ذاتية ص١٢٠.

[٦٢] مصطلح (سعيد القديم) لقبٌ يطلقه النورسي على مرحلة الأربعينات الأولى من عمره، أي مرحلة ما قبل الشروع في كتابة رسائل النور، وهي مرحلة الاهتمام السياسي في حياته. وأما لقب (سعيد الجديد) فهو شخصية النورسي الجديدة، التي ودعت العمل السياسي الجزئي واشتغلت بالعمل الروحي الكلي.

قال رحمه الله: (فإن قلت: القرآن ما هو؟ قيل لك:

"هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات، والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسر كتاب العالم.. وكذا هو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض. وكذا هو مفتاح الحقائق والشؤون المضمرة في سطور الحادثات. وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة. وكذا هو خزينة المخاطبات الأزلية السبحانية، والالتفاتات الأبدية الرحمانية. وكذا هو أساس وهندسة وشمس لهذا العالم المعنوي الإسلامي. وكذا هو خريطة للعالم الأخروي. وكذا هو قول شارح، وتفسير واضح، وبرهان قاطع، وترجمان ساطع؛ لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه.

وكذا هو مرب للعالم الإنساني. وكالماء وكالضياء للإنسانية الكبرى التي هي (الإسلامية). وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد الهادي إلى ما خلق البشر له. وكذا هو للإنسان: كما أنه كتاب شريعة كذلك كتاب حكمة. وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة. وكما أنه كتاب ذكر، كذلك هو كتاب فكر.

وكما أنه كتاب واحد، لكن فيه كتب كثيرة، في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية. كذلك هو كمنزل مقدس مشحون بالكتب والرسائل؛ حتى إنه أبرز لمشرب كل واحد من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك كل واحد من أهل المسالك المتباينة، من الأولياء والصديقين، ومن العرفاء والمحققين؛ رسالةً لائقةً لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره، حتى كأنه مجموعة من الرسائل").[٦٣]

وقد سبقت لنا دراسة لهذا التعريف أثبتنا فيها شمولية التلقي لحقائق القرآن لدى بديع الزمان[٦٤]؛ مما كان له أكبر الأثر في قرآنية فكره وعمله على الإجمال. ذلك أنه رحمه الله (لم يكن يقصد في بيان (مفهوم القرآن)؛ إلى صياغة تعريف رسمي أو حدي – على طريقة المناطقة – غايته حصر العقول في معنى (القرآن) من حيث هو (مصحف مكتوب)، بما لا يدع مجالا للخلط بينه وبين غيره، أو تحريفه بالزيادة والنقصان، فتلك غاية تكفل الله بها سبحانه، إذ قال عز وجل: (**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**) (الحجر: ٩). وعلماء

---

(٦٣) إشارت الإعجاز:٥/٢٢ والمكتوبات:٢/٢٦٧

(٦٤) ن. مصطلح (القرآن) في كتابنا: "مفاتح النور" ص ٢١٢.

القرآن والمفسرون ثم حفاظ الأمة من ورائهم، هم الذين سخرهم الله جل جلاله؛ لتنفيذ هذه المهمة العظيمة. إلا أن بديع الزمان ما كان يسعى إلى هذا، بقدر ما كان يسعى إلى محاولة تعريف (القرآن) من حيث هو (كلام رب العالمين) المتوجه برسالته إلى الإنسان حامل الأمانة! فكأنه رحمه الله كان يروم تعريف (القرآن) من حيث هو مضمون، ومقاصد، لا أحرف ورسوم. بمعنى أنه كان يحاول تعريف القرآن من حيث هو رسالة ربانية، تحدد غاية الوجود البشري في الكون، وتلخص قصة التكوين، وترسم للإنسان مدار فلكه الذي ينبغي له أن يسلكه إلى ربه).[٦٥]

فبناء على هذا وذاك؛ جعل النورسي حياته كلها خادمة للقرآن، بل سمى نفسه (خادم القرآن)، وكذا كل تلاميذه إنما هم (خدام القرآن). وانطلقت بذلك حركة (خدمة القرآن) في الأرض، تبني أركان الأمة، كما بنى إبراهيم — عليه الصلاة والسلام - أركان البيت، وكما بنى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم جيل الصحابة! فكانت (رسائل النور) على المنهج نفسه، حركة قرآنية تجديدية، تحيي الموات، وتستبصر ما هو آت! فَلَكَ إنْ أردتَ الاختصار - في وصف حركة النور من حيث وظيفتها - أن تقول: إنها حركة تذويق القرآن.

فكأن النورسي خَادِمٌ سَقَّاء، لا يفتأ يذرع الأرض طولا وعرضا، يحمل كأسا مترعة بحقائق الإيمان، مقطرة تقطيرا من رياحين القرآن، يسقي العطشى.. ولقد كان أمره عجبا: قطرة واحدة من روح القرآن كافية لإرواء صحراء شاسعة من البشرية التائهة في الجحيم! ومن هنا كان الرحل - رحمه الله - يتنقل بين البلاد والعباد، مستجيبا لإرادة الله وعجيب قدرته، مرة منفيا، ومرة سجينا، وأخرى سائحا في ملكوت الله.. فيهب هذا (قطرة)، وذاك (رشحة)، والآخر (شمة)، أو (نقطة)، أو (ذرة)، وهكذا[٦٦].. يوزع الأذواق والمواجيد، ويعلم الجيل كيف يتذوق القرآن. حتى إذا حصل له الذوق الحقيقي؛ وجد نفسه أسير جمال القرآن، فلم يكن له آنئذ إلا أن يذوب في شعاعه الوهاج! ومن ثَمَّ يكون رافدا جديدا من روافد حركة النور.

---

(٦٥) المرجع السابق.

(٦٦) كلها اصطلاحات استعملها النورسي في كتاب المثنوي العربي.

ثانيا – الشمولية الاستيعابية:

والمقصود بذلك أن بديع الزمان وهو يصوغ خطابه التجديدي كان يضع نصب عينيه الأمة الإسلامية جمعاء، حاضرها ومستقبلها. فلم يكن له قصد إنشاء طريقة تجمع عددا من المريدين وكفى. إذ لا يتصور في أصحاب الطرق أنهم سيجمعون كل الأمة في هذه الطريقة أو تلك، وإنما غاية أحدهم أن تكون طريقته أوسع شيوعا وأكثر اتباعا. أما النورسي فقد كان القصد عنده هو بناء خطاب تجديدي لكل الأمة. ومن هنا قصد أن يُدخل كل الناس في مراد خطابه. وهو بعض معنى مقولته المشهورة المقررة قبلُ: (إن هذا الزمان ليس زمان الطريقة الصوفية؛ بل زمان إنقاذ الإيمان!).[٦٧]

ولذلك حرص حرصا شديدا على ألا يقدم نفسه للناس على أنه شيخ طريقة؛ بما للشيخ في الطريقة من مركزية قطبية، وإنما قدم نفسه على أنه (الأستاذ)، بما لهذا المصطلح من دلالة منهجية ضرورية في العملية التربوية. لكنها لا تصل إلى درجة التصدي للمصدرية المعرفية كما هو الشأن في مفهوم (الشيخ) لدى أغلب الطرق الصوفية. ولقد رسم كلمة منهجية بهذا الشأن في سياق تقديم رسائل النور، حقُّها أن تكتب بماء الذهب. فيها من معاني التجرد من الحول والقوة، بل التبرؤ من الذات؛ ما لا تكاد تجده عند غيره، خاصة في هذه الأزمنة المتأخرة. قال رحمه الله في الملاحق : (يا سعيد! كن صعيداً! في نكران تام للذات، وترك كلي للأنانية، وتواضع مطلق كالتراب؛ لئلا تعكر صفو رسائل النور! وتقلل من تأثيرها في النفوس!). [٦٨]

هكذا تجرد بديع الزمان من كل شيء، وتبرأ من كل فيء، ولو حتى ما يسمى اليوم بحقوق التأليف، فكأنه لا هو ألف ولا هو أملى، وإنما هي رسائل النور ذاتها تكلمت من خلاله، فلم يكن حضوره إزاءها غير خادم مطيع، يُبَلِّغُ ما تبصره روحه من أنوار القرآن!

وعليه؛ فلم يكن خطابه يخص فئة دون فئة، ولا طبقة دون أخرى، بل كان يتوجه إلى الأمة جمعاء، بل إلى (الإنسان) بما هو مركز التلقي في الخطاب القرآني ذاته. لقد كان النورسي على وعي كبير ومبكر جدا؛ بأن الخطاب المعاصر لابد لنجاحه أن يكون لكل

---

(٦٧) سيرة ذاتية ص ٣٦٩

(٦٨) الملاحق ص ١١٠.

الناس. أي لا بد أن يستوعب قضايا الإنسان أين كان وكيفما كان! ويحمل راية التحـــدي الحضاري في سياق التدافع الثقافي والحوار العالمي. وكأنه كان يرى بعين الاستبصار ما تسير به الأضواء العالمية اليوم – على المستوى السياسي والثقافي والاقتصـــادي – مـــن مفهـــوم (العولمة)! فكان بدل أن يسجل القطيعة مع الآخر — كما يفعله بعض الجهلة اليوم – يدخل عليه سوق المنافسة بقوة! ويخاطب الإنسان بمنطق العرض للبضاعة الروحية؛ بما يملكه التاجر القوي من يقين التفرد في الجودة والإتقان!

وأمثلة ذلك في رسائل النور هي كل خطاب الرسائل. وإنما نعرض ههنا بعض الأمثلة الصريحة؛ بما يدل على الوعي التام لدى بديع الزمان بهذه الحقائق العالمية الكبرى. فمن ذلك مثلا تجاوزه للزمان، وخرقه لحجب المستقبل في مخاطبة الأجيال! فلطالما نادى الأجيال المقبلة بعد خمسين سنة! وحدثها بخطاب حميمي جميل، تملؤه المحبة والود، وكأنما هو يعرفهم! قال مثلا: (يا إخوتي! ويا زملائي!.. الذين يسمعون هذا الكلام بعد خمسين عاماً!)[٦٩]

لقد كان بديع الزمان ينظر بعين القرآن إلى الأمة في كليتها، مستوعبا شمولية الدين في الخطاب والتربية، تماما كما هي طبيعة التجديد الاستغراقية الشاملة، التي لا تـــرد إلا مـــع العلماء الأبدال وُرَّاثِ النبوة، الذين لا يظهرون إلا على رأس كل قرن! كما ورد في حديث النبيصلى الله عليه وسلم : (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لهـــا دينها).[٧٠] وهذا لا يكون إلا إذا تَمَّ بمنهج شمولي جامع. وكذلك كان بديع الزمان.

ثالثا– المنهجية التفكرية الكونية:

والتفكرية الكونية التي اتصف به منهجه التجديدي كانت حاضرة بقوة في كل مجالات رسائل النور، سواء في ذلك التصورات والمنطلقات، أو التوجيهـــات التربويـــة والمقاصـــد الربانية.

فمن حيث التصور جعل بديع الزمان (الكون) ركنا مهمـــا مـــن أركـــان خطابـــه التجديدي، وركيزة أساسية من ركائز منظومته التربوية. فخاطب الإنسان لا بما هو مخلوق من مخلوقات الله وحسب، ولكنه خاطبه بما هو (كائن كوني)، يحمل أمانة كونية يسير بهـــا

---

[٦٩] صيقل الإسلام ص ٥١٨.

[٧٠] رواه أبو داود بسند صحيح.

إلى الله، وكل الكائنات خلفه تتبعه مؤتمة به سائرة إلى الله بسيره. فلم يكن إذن؛ لمفهوم الأمانة التي (حملها الإنسان) عنده إلا معنى (الإمامة الكونية)! ذلك أن الإنسان هو خلاصة الكون وثمرته الجامعة[٧١]. ومن هنا قوله رحمه الله: (إن الإنسان ثمرة شجرة الخلقة، فهو كالثمرة أبعد شيء عن البذرة، وأجمع لخصائص الكل)[٧٢]، وقال أيضا: (إن الإنسان هو الثمرة النهائية لشجرة الخلقة، ومن المعلوم أن الثمرة هي أبعد أجزاء الشجرة، وأجمعها وألطفها؛ لذا فإن الإنسان هو ثمرة العالم، وأجمع وأبدع مصنوعات القدرة الربانية، وأكثرها عجزا وضعفا ولطفا!).[٧٣]

وكثيرا ما كان يعبر عن هذا المعنى بمصطلح (الفهرست)؛ للدلالة على العلاقة الجامعة بين الإنسان والمحيط الكوني حوله، سواء في ذلك جانبه الغيبي أو جانبه المادي. حتى يستغل تلك المعطيات جميعها في المجال التربوي؛ لإعادة ربط الصلة بين الإنسان وبين عمقه الكوني، فيخرجه من السَّفَه الفكري إلى الْحِلْمِ الوجودي. تماما على وزان منهج القرآن في مخاطبة الإنسان، على نحو ما نجد في مثل قوله تعالى: (**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا!**) (الأحزاب: ٧٢). فهذه التكاملية الكونية التي ينطوي عليها الإنسان، والمتجلية في ضعفه وحاجاته التي لا تكاد تنقطع! مما يجعله ينظر إلى سائر الكون نظرة الراغب في استيعابه لخدمته وتسخيره؛ هي التي جعلت بديع الزمان يجلي الحقيقة الإنسانية في صورة الفهرست الجامع. قال رحمه الله: (إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان، وجعله نسخة جامعة للكائنات، وفهرستة لكتاب العالم)[٧٤]، ثم قال أيضا: (إن الإنسان مع صغر جرمه وضعفه، وكونه حيوانا من الحيوانات؛ ينطوي على روح غال، ويحتوي على استعداد كامل، ويتبطن ميولات لا حصر لها، ويشتمل على آمال لا نهاية لها، ويحوز أفكارا غير محصورة، ويتضمن قوى غير محدودة. مع أن فطرته عجيبة كأنه فهرستة للأنواع والعوالم)[٧٥].

---

[٧١] ن. هذا المعنى مفصلا في دراستنا لمصطلح (الإنسان) بكتابنا: مفاتح النور ص ٨٩.

[٧٢] الكلمات: ٤١٨/١

[٧٣] الكلمات: ٢٠٤/١

[٧٤] إشارات الإعجاز: ٢٦/٥

[٧٥] إشارات الإعجاز: ١٤٩/٥

وأما من حيث التربية والتزكية: فقد كان لحضور المقولات الكونية – لدى النورسي – الأثر البالغ في تكوين شخصية الإنسان القرآني، وإخراج الجيل النوري. وأساس ذلك ما ضَمَّنَهُ منهجَه التربوي من قواعد ترجع جميعها إلى مبدأ (التفكر). فالتفكر عنده وسيلة تربوية، وغاية تعبدية، قائمة على الذوق والتذوق؛ أكثر مما هي قائمة على عمليات العقل المجردة من العواطف والأحاسيس الوجدانية. بل هو فكر الروح وعقل القلب! وذلك أخذاً من قوله تعالى: (**وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ!**) (آل عمران: ١٩١). وهذا المعنى له علاقة بمصطلح آخر، هو (التدبر) المأخوذ من قوله تعالى: (**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا؟**) (محمد: ٢٤). والتدبر: هو منهج قراءة الكتاب المسطور، بينما التفكر: هو منهج قراءة الكتاب المنظور. فهما مفهومان قرآنيان متداخلان أحدهما يحيل على الآخر. ولذلك استعمل النورسي مصطلح (التفكر) باعتباره خطوة من خطواته التربوية المشهورة، التي قدمها بديلا قرآنيا عن الأوراد الصوفية؛ رغبة منه في الاستجابة لتحديات العصر الجديدة. وهي أربع خطوات، بها يتم العروج إلى الله عبر طريق القرآن الكريم. وهي: (العجز، والفقر، والشفقة، والتفكر). فهذه المعاني يستشعرها العبد في ممارسة عبادته لله الواحد القهار، هذه العبادة التي لا تختلف أشكالها، ولا أعدادها، ولا شروطها؛ عما هو معروف ومشتهر لدى جمهور المسلمين، أو ما يسمى لدى الفقهاء بـ(المعلوم من الدين بالضرورة)؛ ولذلك اعتبر النورسي منهجه هذا أقرب إلى الحقيقة الشرعية؛ منه إلى الطريقة الصوفية.

قال رحمه الله في سياق مقارنة طريق القرآن بطريق العشق الصوفي: (للوصول إلى الله سبحانه وتعالى طرائق كثيرة وعديدة. ومورد جميع الطرق الحقة، ومنهل السبل الصائبة هو القرآن الكريم (...) وقد استفدت من فيض القرآن الكريم – بالرغم من فهمي القاصر – طريقا قصيرا وسبيلا سويا هو: طريق العجز، الفقر، الشفقة، التفكر.

نعم! إن العجز: كالعشق موصل إلى الله، بل أقرب وأسلم، إذ هو يوصل إلى المحبوبية بطريق العبودية. والفقر: مثله يوصل إلى اسم الله (الرحمن). وكذلك الشفقة: كالعشق موصل إلى الله، إلا أنه أنفذ منه في السير، وأوسع منه مدى، إذ هو يوصل إلى اسم الله (الرحيم). والتفكر: أيضا كالعشق، إلا أنه أغنى منه وأوسع نورا، وأرحب سبيلا، إذ هو يوصل السالك إلى اسم الله (الحكيم).

وهذا الطريق يختلف عما سلكه أهل السلوك في طرق الخفاء (...) وهو حقيقة شرعية أكثر مما هو طريقة صوفية (...).

أما أوراد هذا الطريق القصير وأذكاره فتنحصر في اتباع السنة النبوية.. والعمل بالفرائض، ولا سيما إقامة الصلاة باعتدال الأركان والعمل بالأذكار عقبها، وترك الكبائر).[٧٦]

والحقيقة أن الخطوات الأخرى الثلاث: (العجز، والفقر، والشفقة) - رغم ضرورتها التربوية عنده في طريق العروج إلى الله — إلا أنها نتائج للتفكر وثمارٌ له. لأنها ثلاثَتها لا تتصور في الوجود بدونه، بينما هو يكون بدونها. فغير المتفكر لا يمكن أن يستشعر عجزا، ولا فقرا، ولا شفقة، بالمعنى التعبدي لتلك الكلمات، فإذا فعل؛ فمعناه أنه مَرَّ عبر مسلك التفكر، ولو بصورة لا شعورية. فهي ليست في نهاية المطاف سوى تجليات للتفكر، وآثار وجدانية له. فالتفكر إذن؛ هو الوعاء الجامع لها جميعا.

ومن هنا كان لك أن تقول: إن رسائل النور ليست سوى نتيجة وجدانية لمسلك التفكر. بل إن (سعيدا الجديد) نفسه ليس سوى ذلك! وقد استقرينا هذا في مجمل الرسائل، فوجدنا بديع الزمان كثيرا ما يصرح به تصريحا. ولطالما عبر عنه في مطالع المشاهد المعروضة لديه من الرسائل، وكذا في خواتيمها، من مثله قوله في (المكتوب التاسع عشر) من (المكتوبات): (لقد أنعم الله سبحانه وتعالى عليّ يوماً بتفكرٍ حقيقي حول مجمل ماهية القرآن الحكيم؛ فأدوّن ذلك التفكر كما ورد على القلب...)[٧٧] وقوله في السياق نفسه: (أما معنى هذا التفكر فكما يأتي...)[٧٨]. ثم يشرع في البيان. وكذا قوله في (الكلمات) مستنتجا: (إن نتيجة هذا التفكر تبيّن أنه لأجل محاكمة الإنسان وفوزه بالسعادة الأبدية، يُدَمَّرُ الكونُ كله إذا لزم الأمر. فالقوة القادرة على التدمير والتبديل موجودة فعلاً، وهي ظاهرة ومشهودة..)[٧٩]. ومثل ذلك في الرسائل كثير جدا.

---

[٧٦] المكتوبات:٥٩٤/٢.
[٧٧] المكتوبات ص ٢٤٧
[٧٨] المكتوبات ص ٢٤٨
[٧٩] الكلمات ص ٧٣٤

وعليه؛ فإننا لم نجانب الصواب – بحمد الله – بقولنا السابق: إن سعيدا الجديد ذاته إنما هو نتيجة لمسلك التفكر. وهذه شهادته هو نفسه رحمه الله ناطقة. قال في اللمعات: (حينما سار "سعيد الجديد" **في** طريق التأمل والتفكر، انقلبت تلك العلوم الأوروبية الفلسفية، وفنونها التي كانت مستقرة إلى حدٍّ ما؛ في أفكار"سعيد القديم" إلى أمراض قلبية، نشأت منها مصاعب ومعضلاتٌ كثيرة، في تلك السياحة القلبية. فما كان من "سعيد الجديد" إلاّ القيام بتمخيض فكره، والعمل على نفضه من أدران الفلسفة المزخرفة، ولوثات الحضارة السفيهة)(٨٠).

وهذا المنهاج الذي طبقه النورسي على نفسه؛ فأخرج (سعيدا الجديد) من ركام (سعيد القديم) هو نفسه ما جعله منهاج التحلية والتخلية في العملية التربوية، التي مارسها – بصفته معلما ومربيا – تجاه تلاميذه. حتى إنه رحمه الله كان يعقد مجالس لطلاب النور – كما حدثنا بعضهم – يعلمهم بصورة تطبيقية منهج التفكر، ويذيقهم من حلاوته مشاهدَ ذات لذة روحية حية! فكانوا بذلك أهل ذوق قرآني صافي المشرب!

نعم، لقد كانت (التفكرية الكونية) – بما هي ورد نوري ضروري – خاصية عميقة جدا، مميزة لمشروع النورسي التجديدي، تسري في شرايين الحقائق النورية، وتطبع كل رسائل النور. وتلك واحدة من أهم ملامح التجديد للدين الذي مارسه بديع الزمان. فاستطاع بذلك أن يخرج بالتصوف من أوراد اللسان إلى أوراد الجنان، ومن رقصات الأشباح إلى سبحات الأرواح!!

خاتمة

وأخيرا.. فإن غاية ما نخلص إليه من هذا البحث المقارن أن الأستاذ النورسي رحمه الله – مهما بدا منه من نقد للمتصوفة ومقولاتهم – فإنه لم يتجاوز التصوف تجاوز نقض وإضراب؛ وإنما تجاوزه تجاوز احتضان واستيعاب. ولقد كان – رحمه الله – في مشروعه هذا أشبه ما يكون بالشيخ الإمام أحمد زروق المغربي، الملقب بمحتسب الصوفية، صاحب كتاب (عُدَّة المريد الصادق) في نقد التصوف، ومؤسس الطريقة الزروقية في الوقت نفسه!

---

(٨٠) اللمعات ص ١٧٦

ثم الإمام ابن القيم في (مدارج السالكين)، وكذا الإمام أبي إسحاق الشاطبي بين (الموافقات) و(الاعتصام). كل أولئك وأضرابهم من أعلام التجديد، الذين انتقدوا التصوف تصحيحا واستيعابا؛ لتجديد السير إلى الله، واستئناف الإشعاع الحضاري للأمة في مجال التربية والتدافع الإنساني، كانوا عبارة عن محطات حضارية مضيئة في تاريخ الأمة، ترسل النور عبر القرون ملهمة ذاكرة الأجيال؛ لتستأنف السير في مجال الإصلاح العلمي والمفهومي والتجديد الأخلاقي. فلم يكن بديع الزمان إذن سوى محطة جديدة من محطات الإرسال النوري لهذا العصر الجديد، خاطب الزمان بما ناسبه من مقامات الخطاب مرشدا ومتحديا.. عسى أن يكون هناك من يتلقى الإشارة للانطلاق من جديد!

ذلك والله الموفق للصواب والمعين عليه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه عبد ربه، راجي عفوه وغفرانه: فريد بن الحسن الأنصاري السجلماسي.

وكان تمام تسويده بمكناسة الزيتون، عشية يوم الاثنين: ١٤ ربيع الثاني: ١٤٢٦هـ، الموافق لـ: ٢٣/٠٥/٢٠٠٥م.

لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

- صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. شرح وتحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي. دار القلم بيروت. ط. الأولى: ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

- صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار الحديث بالقاهرة. ط. الأولى: ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

- صحيح الجامع الصغير وزياداته للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي بيروت/ دمشق. ط. الثالثة: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨.

- كليات رسائل النور تأليف الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، نشر دار (سوزلر) للنشر، فرع القاهرة ط ٢ بمصر ١٤١٢ هـ/ الموافق ١٩٩٢م. وتتضمن:

  - الجزء الأول : الكلمات
  - " الثاني : المكتوبات

- " الثالث: اللمعات .
- " الرابع: الشعاعات
- " الخامس: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز.
- " السادس: المثنوي العربي النوري .
- " السابع : الملاحق .
- " الثامن : صيقل الإسلام .
- " التاسع: سيرة ذاتية .

– مفاتح النور: (نحو معجم شامل للمصطلحات المفتاحية لكليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي) تأليف د. فريد الأنصاري. نشر معهد الدراسات المصطلحية بجامعة السلطان محمد بن عبد الله بفاس، ومركز النور للدراسات والبحوث بتركيا. مطبعة نسيل إستنبول/ تركيا. ط. الأولى: ٢٠٠٤.

انتهى.

"النورسي"
ما بعد التصوف

ذ.أديب إبراهيم الدباغ
مركز الدراسات الأكاديمية– استانبول

– ١ –

قُوىً إدراكيه هائلة تتفجَّر في أعماق روحه بين ساعة وأخرى.. وَعيٌ ذكـيٌّ لَّمـاح كشعلة نار دائمة الاستعار.. صَحْوٌ إشراقيٌّ واعٍ على عَتمَات النَّفس البشرية.. إرادة ملتهبة لا تقف عند حَدّ.. وَجَعٌ أليمٌ على إيمان سقيم.. استنهاض العقل للّحاق بخيال الروح.. فكر ملكوتي يصل بين الله والإنسان .. لَمْلَمَةُ النفس المشتَّتة التي تَنْشُدُ الوحدة والتوحيد.. كُـلَّ ساعة يَقْبُرُ أجزاءً من نفسه ويَبْعَثُ أخرى.. إنَّهُ يمضي صاعداً إلى الأعالي دون مَوْتَاهُ.. لا وقوفَ بل تجربة ومعاناة وانتقال.. فيض غامر من الودّ والإشفاق يضُمُّ العالمَ إلى أحضـان الفؤاد.. حضور دائم للأبدية على أجنحة "اللحظات اللاَّزمانية".. قلب مترع حتّى الثمالة برحيق جمال الوجود.. لا عدمية للوجود ولا انسحاباً منه.. لا وحدة وجود ولا وحـدة شهود.. بل وحدة معبود ووحدة مقصود.. لا فناء للإنسان ولا عدماً.. بل بقاء وخلود.. هو في علم الله موجود قبل أنْ يوجد.. وهو في علم الله موجود حتَّى عنـدما ألاَّ يكـون موجوداً.. فهو رهين الخلود.. وحبيس الوجود.. أراد ذلك أم لم يرد.. فهو إمَّا موجود في دائرة العلم.. أو موجود في دائرة القدرة.. لا مهرب لنا من وجودنا.. ولا مهرب لنا مـن تَبِعَات هذا الوجود مهما تغيرت صوره واختلفت أنماطه.. ومَنْ يعتقد أنه لا يملك وجـوداً لكي يدركه لا يدرك – في الحقيقة – شيئاً.. هذا هو "النورسـي" كمـا أراه في فهمـي المتواضع.

– ٢ –

لم يكن "النورسي" يوماً ما تقليدياً ولا نمطياً ولا سكونياً.. إنَّه ليس بغدير ساكن بـل شلاّلٌ هادر.. لا يرمِّمُ عتيقاً.. ولا يرفو مخزوقاً.. ولا يؤلف بين مُزَعٍ.. إنه يستنهض مـن القرآن عالماً فكرياً جديداً فيه روح من روحه، وظِلٌّ من سرمديته.. روح قلمه القرآن.. إذا كتب نَفَثَ منه لهيب أخضر فيه الريح العاصفة والنسيم الرخاء.. إنه قلم من أين أُتَيْتَهُ فلـن تَعْدِمَ هِزَّةَ فكر، أو وَمْضَةَ وَجْد..

– ٣ –

إنَّ أعظم جزء في النفس البشرية كثيراً ما يكون خافياً عن الإنسان ، على الرغم من كونه الأعلى والأسمى، وهو ما يسعى "النورسي" إلى ابتعاثه فيه، وهو الجزء الذي يقف بالضدّ من العادي والتقليدي والمكرور، و"الّلابطولي" ويدفعه لكي يمارس كُلَّ ما هو بطولي وعظيم وخارق وجديد في الدين والحياة، وهذا الجزء السامي من النفس الإنسانية هو المعول عليه لكي يجعل الإنسان يدير ظهره لكل ما هو آفل وزائل وماضٍ. ويتعلق بِمَنْ هو أبدي الحياة، أبدي الوجود، إنه الله تعالى الذي هتف باسمه البشرية كلها مهما اختلفت عقائدها وتصوراتها عن الألوهية والربوبية، وهل العظماء إلاّ أولئك الذين يتسلقون جوانب العظمة من أنفسهم ليزيدوا في غبطة الحياة وفي وفرتها وسعتها..؟

– ٤ –

صحيح أنه عرف أئمة التصوف وأحبَّهم وأشاد بهم، وربما استشهد ببعض آرائهم.. عرف الغزالي والكيلاني وابن عربي والربَّاني والرومي وغيرهم.. وصحيح أنه خرج من تحت عباءاتهم.. لكنه لم يكن يوماً تبعاً لواحد منهم.. وحين اختَطَّ طريقه المستقلة وشرع بالسير فيها لم يتعثَّر أبداً بظِلِّ أيٍّ منهم.. كانت روحه من القوة والنورانية بحيث إنها لم تقبل أن تكون ظِلاًّ لأحدٍ سوى القرآن.

– ٥ –

عذراً سادتي.. عذراً أشياخي.. أنتم لم تُصْعَقُوا صَعْقَي.. و لم تتزلزلوا زلزلتي.. ما عرفتم "غلادستون" و لم تسمعوا به.. وما سمعتم قَالَتَهُ في القرآن.. آه.. لو سمعتموها لانشطرت منكم القلوب، ولتمزقتْ منكم الأرواح.. ولخرجتم إلى الصُّعُد تجأرون.. ولعلوتم فوق كل حال ومقام وفتح وإكرام.. ولجئتم إلى القرآن سراعاً لتذودوا عنه، وتردُّوا كُلَّ قالة سوء بحقه.

أتظنون الرجل يفصح عن دخيله نفسه هو وحده.. كلاَّ.. بل هو لسان قرن من الزمن حافل بالمضللات.. وصوت حضارة عجزت حتى هذا اليوم أن تقتل الوحش الذي يسكنها، أو تعمل على تمدينه على الأقل.

وهذا الوحش يستعر في جوفه – بين حين وآخر – جوع رهيب يدفعه لطلب المزيد من الفرائس، ولن يكون القرآن – بعون الله – واحداً من فرائسه، وحاشا أن يكون، ومن أجل هذا كتبتُ "رسائل النور".

– ٦ –

لقد ارتقى "النورسي" بالروح "الصوفي" مراقي عظيمة فوق مراقيه وقطع به أشواطاً شاسعة، لقد دعا الإنسان المسلم إلى أن يتخلى عن إحباطاته، وألاّ ينفصل عن دورة الحياة و أن يمضي بقوة إلى تفجير طاقاته الإيمانية المكنونة، وأن يَتَقَحَّمَ الحياة دون هياب، وأن يزيد قواه الإدراكية، ويشحذ طاقته الذهنية، ويؤجج حيويته.

إنه رجل إيجابي التفكير، لا يحب الخوض في السلبيات، فلم يتحدث عن الموت قبل الموت، ولا عن الفناء قبل الفناء، ولا عن "لا شيئية" الوجود، ولا عن "شبحية" الأكوان، ولا عن الخمريات، وسكارى العشق ولا عن المأخوذين والذاهلين والشاطحين، بل كأنه يقول:

كنتُ ميتاً منذ زمن بعيد وإنني إنما أحيا الآن حياة ما بعد الموت، ويأبى الله تعالى أن يجمع عليّ ميتتين.. صدقوني.. إنني لا أقول ما ليس فيَّ.. أَوْ لَيْسَ بعضاً مني.. إنني بلا تخوم ولا حدود.. لم يَبْقَ في الكون مكان ليس فيَّ أو لستُ فيه.. نهايتي هي "اللانهاية".. جذوري ممتدة بين الأزلية والأبدية.

قولوا لي – سادتي – كيف أموت وينابيع الحياة القرآنية تَصُبُّ في عروق روحي..؟ وكيف أفنى وخلود القرآن يملأ جوانحي..؟ وكيف أجود بوجودي والقرآن هو وجودي..؟

– ٧ –

فـ " النورسي" يؤمن بالإنسان إلى أقصى حدّ، وهو يرى أَنَّهُ الكائن الوحيد في هذا العالم الذي ليس لقواه الإدراكية حدود، وإذا كان اليوم يتخبط في مَهَامِه الشك والاضطراب فإنه سيأتي ذلك اليوم يدرك فيه أن القرآن هو الملاذ الأخير الذي لا ملاذ له سواه، وأيُّ فكر لا يمضي مع هاجس الإنسان "الغيبي الماورائي" حتى النهاية فإنه يعمل على قتله وعزله في حدود كينونته الضيقة المحدودة وحدها.

لقد حاول الفكر المعاصر أن يستقرئ كُلَّ شيءٍ، وأن يُحَلِّل كُلَّ شيء، ولكنه مَرَّ بالروح الإنساني مروراً عابراً، ولم يحاول أن يحلله ويسبر غوره، بل اهتمَّ بالجانب الأضعف من النفس الإنسانية، وَبَّررَ سقوط الإنسان وانحداره عن الآدمية السوية بمبررات لم تعد تقنع أحداً.

والنورسي يرى أنه قد حان الوقت لكي نسبر الروح الإنساني بشكل جديٍّ وعميق، لكي نكتشف مناجم الروح وقواه العظيمة الهائلة التي لا زالت غير مكتشفة، وربما غير اكتشافها وجه العالم.

إنَّ جوهر الحرية الذي حار فيه الفكر المعاصر هو "روحي" قبل أن يكون اجتماعياً أو سياسياً، فالدين يعني فيما يعنيه كسر جميع الأغلال التي تكبل الإنسان وتجعله حبيس ألوهيات زمانية أو مكانية، وهذا الإنسان المسكين لم يحصد من عبوديته للحسِّيَّات والجسديات إلاَّ المزيد من الإحباط والشقاء.

– ٨ –

لقد بلغت روح "النورسي" حَدَّاً من العظمة والسعة بحيث خشي ألاَّ يكون العالم متسعاً لاحتواء جيشاناتها وَمَدِّها العظيم. وهذا هو – كما أحسب – سرٌّ لجوئه إلى القرآن وبقائه في معيته، لأنَّ القرآن هو وحده الذي كان يجد لروحه فيه متسعاً، بينما كانت روحه بسعتها قادرة على أن تأخذ العالم في أحضانها في لحظة "لازمانية" واحدة هي جوهر كل لحظات الزمن، وأرجو ألاَّ أكون مغالياً إذا قلتُ: إنَّ حياته كلها إنما هي سلسلة متصلة من هذه اللحظات الإلهية اللازمانية القرآنية. ولعلَّ الرجل يشير إلى هذه اللحظة الفريدة حين يقول: "فيستفيد السالك في "رسائل النور" في لحظة ما لا يستفيده سالكو سائر المسالك في سنة". (٨١)

– ٩ –

إنَّ عظماء الروح هم في الوقت نفسه روح للأرض، وهم الجذوة التي تَمُدُّ وجدانها بالدفء والحياة، ومن دون هؤلاء الرجال تبقى الأرض جسداً خامداً متصلباً لا حياة فيه. وكلما غشي الأرض غاشيةُ ظلام تظلُّ تنتظر بفارغ الصبر بلوج الفجر من روح عظيم تبعثه

(٨١) المثنوي العربي النوري ص ٣٢

الأقدار ليضيء الأرض من جديد. وكأنَّ هذه الروح العظيمة إنما هي تكفير عن الضعف البشري الذي يسوق الملايين إلى دركات خطيرة من السقوط، ولعلَّ المقصود بـ "الأبدال" كما يرد ذكرهم كثيراً في التراث الصوفي هم هؤلاء الرجال الذين يُعطِّرُون الأرض بأنفاسهم ويمنحونها روحاً من روحهم.

- ١٠ -

و"النورسي" ليس بدعاً من بين عظماء الروح، فهو روح مُعَبَّأةٌ على الدوام بطاقات قرآنية تدفعه إلى آفاق ملكوتية معرفية تتفَتَّقُ في كل مرة عن مَعَانٍ إيمانية مبتكرة تزيد في عملية تنظيف أبواب الإدراك عند الإنسان، ليبصر لمحة من لمحات الخلود وهي تتألق على جبين البشر الساعين فوق هذه الأرض.

وَلأَنَّهُ يأتي الإنسان بمعارفه من أبواب قلبه ووجدانه وعقله، فإنَّ الجوع الروحي الرهيب الذي يجعل الإنسان يُحسُّ بالمرض والخوف حتَّى من وجوده نفسه لم يعد له وجود عند طلبته المتتلمذين على "رسائل النور".

ولأننا ممنوحون الوجود من ربِّ الوجود، فإنَّ فضولاً فكرياً يدفعنا لكي نتعرَّفَ عليه تعالى، وذلك من خلال "أسمائه الحسنى.. الفاعلة في الإنسان وفي السماوات والأرض وفي كُلِّ حَيٍّ وجامد.

وهذه "المعرفة" العالية تبقى رفيقة "طالب النور" لا تفارقه أبداً في حلِّه وتَرْحَاله، وفي أيِّ مكان يكون فيه، سواءً كان طالباً على مقاعد الدارسة، أو عالماً من علماء الذَرَّة، فطالب النور لا يحتاج إلى "تكية" يتردد عليها لأنَّ "تكيته" في قلبه دوماً، ولا يحتاج إلى شيخ يجلس بين يديه لأَنَّ شيخه في روحه دوماً، - والشيخ هنا هو "رسائل النور — يكون معه في سرَّائه وضرّائه، وفي مُتقلبه ومُضْطربه في شؤون الحياة، و"النورسي" كاتب الرسائل نفسه لم يستغن عنها، بل هو يعود إليها في كُلِّ مرة، ويحيل القرَّاء عليها، وهو لا يجد حرجاً — على الرغم من عظيم تواضعه — من الإشادة بها، والإكبار لها، لأنه يجدها شيئاً منفصلاً عن ذاته، لها ذاتها وشخصيتها المستقلة عن ذاته وشخصيته، وأنها بالتأكيد — كما صرح — ليست من نتاج ذهنه، وإنما هي رشحات من أنوار القرآن، وبعضُ فيوضٍ من معارفه، وأنه

ليس له عمل فيها سوى إملائها على طلبته، ولا يخفي أنَّه قرأ بعض الرسائل عشرات المرات وأنه كان يستفيد في كل قراءة شيئاً جديداً منها.

– ١١ –

و"النورسي" لا يرى ما يمنع من اندفاع العقل لَيَمْخُر عُباب بحرٍ زاخرٍ من المجاهيل، إلاَّ أنَّه يرى كذلك أنَّ سفينته – وبعد نضال ذهني شاق – سترسو في خاتمة المطاف في برزخ ضيق بين معلوم لا يدري كيف يفعل به، ومجهول لا يدري كيف تنفتح له أبوابه، عند ذلك يلوح له وجه الله، وتبدو نهاياتُ كُلِّ شيءٍ هي بدايات لا نهايات "كُلِّ شـــيء" وعنـــدها يضطر العقل إلى أنْ يطأطئَ رأسه ويستسلم. ولا يسعه إلاَّ أنْ يُرَدِّدَ: سبحان اللّه العظـــيم. ربِّ كُلِّ معلوم ومجهول، وربِّ كُلِّ محدودٍ ولا محدود. ربِّ النهايات و"اللاَّنهايـــات" ربِّ الأرض والسماوات:

و"النورسي" يشير إلى هذه الحقيقة حين يقول:

"اعلم أيها المتحير المتحدي:

إذا انتهى علمك إلى شيء، أو رأيت في شيءٍ جهة من "عدم التناهي" فسبِّحْ بحمـــده تعالى على قربك من الحق، إذْ المجهولية" و "الّلاتناهية" عنوانان وعلامتان نصبتا على حدود تَعرُّف ربوبيته المطلقة جلَّ جلاله".[٨٢]

– ١٢ –

وهذه المعرفة الإيمانية التي نتشربها من "رسائل النور" ترفع أذهاننا إلى مستويات عاليـــة من التفكير، وهذا المستوى العالي من التفكير لا يؤتي ثماره إلاَّ إذا وهبناه جوهرنا الإنســـاني كُلَّهُ مَرَّةً واحدة، فالمعرفة لا تعطينا بعضها إلاَّ إذا أعطيناها كُلَّنا كما يقول علماؤنا.

وَحُمَّى المعرفة هذه قد تكون مصحوبة بآلام جسدية، غير أنها تظل مع ذلـــك آلامـــاً محتملة، وهي زكاة هذه المعرفة، لأننا لا نستطيع النجاة من التفاهة والضحالة و"اَلّلا معنى" إلاَّ بمعاناة التجارب المعرفية القوية والحادَّة.

---

(٨٢) المثنوي العربي النوري ص٤٠٠

فالعذاب والشقاء والمعاناة التي عاشها "النورسي" هي مصادر هذا العلم الذي نلتقيه على صفحات الرسائل. فهو حيٌّ يأخذ عن حَيٍّ هو "القرآن الكريم" وحتى إنْ استشهد ببعض أفكار رجال طواهم الموت، فأولئك الرجال المضطجعون تحت التراب ينطقون بالحياة التي عاشوها من أجل الحقيقة الإيمانية وليس من أجل أيّ شيءٍ آخر، فالاستشهاد بآثارهم هو استشهاد بأحياء يحيون بأفكارهم ومعارفهم، وليس في ذلك ما يعيب.

– ١٣ –

وثلاثية (الحب والجمال والخلود) تشكل معلماً رئيساً من معالم الفكر النورسي.. فالحب خَلاَّق، والخَلْقُ جمال، والجمال خلود..

فالله تعالى أحَبَّ فخلق ليُعْرَف، وعلم فأوْجَدَ ليُعبد، ثم صنع فأتقن ليُشْده، وصَوَّرَ فجمَّل ليُبْهِر.. وعلى أساس من هذه العناصر الثلاثة قام الوجود، وانتظم الكون، وَخُلِقَ الإنسان ، ومن امتزاجها الثلاثي تركب "الجوهر الإنساني"، وهذا هو سرُّ التوق الإنساني إلى الخلود، إلاَّ أنَّ خلود الإنسان مرتبط بعشقه للجمال الخالد، أي بالجمال الإلهي الأقدس، فالجمال الأبدي لا يرضى بعشق زائل، فإذن لا بد من خلود العاشق.. ومن هذا السر فإنَّ أعظم لذة في الجنة للمؤمن هي لذة النظر إلى وجهه تعالى كما جاء في الأثر.. هكذا يفسر النورسي علَّة الخلق، وعلَّة الآخرة، وعلَّة خلود الإنسان .

فإذا ما كُتبَ لنا أن ننعم بنسيم هاب من أفق مستقبلنا الواعد بالخلود، فإنَّ ذلك يساوي كُلُّ الأفكار التي حاول الناس أنْ يحشروها في أذهاننا، والتي لم تشعرنا يوماً بأنَّنا أبناء للخلود، وأنَّ بقاءنا هنا هو أمر موقت سرعان ما نغادر إلى غير رجعة.

إنَّ مَنْ لا يستطيع أنْ يمنحنا شيئاً لا يمكن أن نفقده ليس بجدير أن يجلس على كرسي المعرفة.

إنَّ "النورسي" حقَّق لنا على مدى حياته كلها أوضح إدراك لليقين الأخروي وخلود الإنسان فيه، وهذا ما لم يستطعه إلاَّ قلَّة نادرة من المتصوفة وأصحاب الدعوات ولا سيما في هذا العصر.

– ١٤ –

و"النورسي" كان ينأى بنفسه دوماً عن مناقشة "متشابهات التصوف" غير أنه يضـــطر أحياناً إلى أن يدلي بدلوه فيها عندما يُسأل عنها.

ومعلوم أنَّ "أهل السنة والجماعة" لم يختلفوا في أحد كما اختلفوا في الشيخ "محي الدين بن عربي" فمنهم مَنْ علا به وارتفع حتى جعله قطب زمانه، ووليَّ وقته، ومنه مَـــنْ اشـــتطَّ وغال حتى أنـــزله منـــزلة هي دون منـــزلة العصاة والفسقة.

أما "النورسي" — رحمه الله — فيزن الرجل بميزانه العدل، الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، فيقول:

"إن محي الدين بن عربي مهتد ومقبول ولكنه ليس بمرشد ولا هاد وقدوة في جميع كتاباته، إذ يمضي غالباً دون ميزان في الحقائق، فيخالف القواعد الثابتة لأهل السنة، ويفيد بعض أقواله – ظاهراً – الضلالة غير انه بريء من الضلالة، إذ الكلام قد يبدو كفرا بظاهره، إلا أن قائله لا يكون كافراً".[٨٣]

ويقول كذلك: "إن قراءة كتب محي الدين ولاسيما مسائله التي تبحـــث في وحـــدة الوجود مضرة في هذا الزمان".[٨٤]

ويلخص "النورسي" بعد ذلك منهج "محي الدين بن عربي" وقاعدته التي بـــنى عليهـــا مذهبه، فيقول:

"إن ابن عربي يقول **"لا موجود إلاّ هو"** لأجل الحصول على الحضور القلبي الدائم، أمام الله سبحانه وتعالى، حتى وصل به الأمر إلى إنكار وجود الكائنات.

أما الآخرون فلأجل الحصول على الحضور القلبي أيضاً قالوا: **"لا مشـــهود إلاّ هـــو"** وألقوا ستار النسيان المطلق على الكائنات واتخذوا طوراً عجيباً.

بينما المعرفة المستقاة من القرآن الكريم تمنح الحضور القلبي الدائم، فضلاً عن أنها لا تقضي على الكائنات بالعدم ولا تسجنها في سجن النسيان المطلق، بل تنقذها من الإهمال

---

[٨٣] اللمعات ص ٤٤٥

[٨٤] اللمعات ص ٤٤٥

والعبثية وتستخدمها في سبيل الله سبحانه، جاعلة من كل شئ مرآة تعكس المعرفة الإلهية وتفتح في كل شيء نافذة إلى المعرفة الإلهية".[٨٥]

وينتهي "النورسي" إلى تقرير حقيقة مهمة، ووضع ميزان عادل، وطريق وسط في الحكم على الرجال والأعمال، فيقول في المكتوب "السادس والعشرين":

"إن أهل الحق والاستقامة الذين يطلق عليهم "أهل السنة والجماعة، وهم يمثلون الغالبية العظمى في العالم الإسلامي، قد قاموا بحفظ حقائق القرآن والإيمان كما هي على محجتها البيضاء الناصعة، وذلك باتباعهم السنة الشريفة بحذافيرها كما هي، دون نقص أو زيادة، فنشأت الأكثرية المطلقة من الأولياء الصالحين من هذه الجماعة. ولكن شوهد أولياء آخرون في طريق تخالف أصول أهل السنة والجماعة، وخارجة عن قسم من دساتيرهم، فانقسم الناظرون في شأن هؤلاء الأولياء إلى قسمين:"

فماذا حدث معهم؟ وكيف نظر الناس إليهم وتعاملوا معهم؟

يجيب "النورسي قائلاً:

"الأول:

هم الذين أنكروا ولايتهم وصلاحهم، وذلك لمخالفتهم أصول أهل السنة والجماعة بل قد ذهبوا إلى أبعد من الإنكار، حيث كفّروا عدداً منهم.

أما الآخر:

فهم الذين اتبعوهم وأقروا ولايتهم، ورضوا عنهم، لذا قالوا:إن الحق ليس محصوراً في سبيل أهل السنة والجماعة. فشكلوا بهذا القول فرقة مبتدعة وانساقوا إلى الضلال. ناسين أن المهتدي لنفسه ليس من الضروري أن يكون هادياً لغيره، ولئن كان شيوخهم يُعذرون على ما ارتكبوا من أخطاء لأنهم مجذوبون، إلا انهم لا يعذرون في اتباعهم لهم.

وهناك قسم ثالث:

سلكوا طريقاً وسطاً، حيث لم ينكروا ولاية أولئك الأولياء وصلاحهم، إلا أنهم لم يرضوا بطريقتهم ومنهجهم، وقالوا: إن ما تفوهوا به من الأقوال المخالفة للأصول الشرعية، إما أنها ناشئة عن غلبة الأحوال عليهم مما جعلهم يخطئون، أو أنها شطحات شبيهة

---

[٨٥] المكتوبات ص ٤٢٥

بالمتشابهات التي لا تعرف معانيها ولا تفهم مراميها".

إلى أن يقول:

"فالقسم الأول ولاسيما علماء أهل الظاهر قد أنكروا ولاية كثير من أولياء عظام – مع الأسف – وذلك بنية الحفاظ على طريق أهل السنة، بل ذهبوا مضطرين إلى الحكم بضلالهم تحدوهم تلك النية.

أما الآخرون المؤيدون لهم، فقد تركوا طريق الحق وأداروا ظهورهم لها، لما يحملون من حسن الظن المفرط بشيوخهم، بل حصل انحراف قسم منهم إلى الضلال فعلاً".[٨٦]

– ١٥ –

وأوضح معالم "الصوفية النورسية" – إذا صَحَّ التعبير – هو العودة إلى استبطان "قوى الفطرة" في مناطق بعيدة من الكيان البشري، وهو صاحب المقولة الشهيرة "الفطرة لا تكذب" وقد استطاع المزج بين فِطْرات الإنسان وقواه العقلية في عملية نسج معرفي غاية في الوضوح والإقناع، فتخطى بذلك إشكالية التصوف في تعميق الشعور لدى المتلقي بلا حقيقية الأشياء، وهي نوع من أنواع "العدمية" لم يوافق عليها، وهي عدمية مرعبة يشاركه فيها "العدميون" اليوم فهي سلاح ذو حدين حيث يمكن أن يتبنَّاها ويقول بها مَنْ ليس بينه وبين الله تعالى أية صلة. لقد أنفق الكثير من المفكرين أعمارهم في التأمل بتعقيدات "الوجود الإنساني" ولم يرجعوا من التأمل بطائل يذكر، وعجزوا في خاتمة المطاف عن حصولهم على أجوبة مقنعة لمثل: مَنْ أنا..؟ ولماذا أنا..؟ وما "أنا..؟ وما الحياة...؟ وما الموت..؟ وما الوجود..؟ وما العدم..؟ وكان الأجدر بهم معالجة تعقيدات القلب المرضية إذا كانوا – حقاً – يريدون للبشرية أن تنعم بشيء من السلام والأمان، لأنه ليس من شيء يقرب ما بين البشر مثل قلوبهم المُشْتَركة.

لقد انحنى "النورسي" أمام "القلب البشري" بإجلال وأصغى إلى حديثه الذي لا يكذب فيه أبداً، فليس ثمة حديث اكثر صدقاً مما يقوله القلب.

---

[٨٦] المكتوبات ص ٤٣٩– ٤٤٠

إنَّ "رسائل النور" ليست بأكثر من حبَّات منظومة بسلك نوراني مقتطعة مـــن قلـــب النورسي، ففي القلب يختبئ سرُّ الفكر والوجود والحياة، ومن أجل هذا كان صيانة القلب والحفاظ عليه من كل ما يكدر صفاءه مسألة في غاية الأهمية والجدية.

– ١٦ –

و" أنا" – كما يفيدنا "النورسي"– هو النافذة التي يطل منها الإنسان على العالم، وهو بمثابة وحدة قياسية يستطيع الإنسان أن يدرك بها نسبية ذاته بالقياس إلى المطلـــق الـــذات الإلهي وصفاته، وهو المفتاح الذي يمكن أن يديره في قفل المجاهيل من حوله، وهو الجوهر الإنساني المصون في ركن ركين من الذات، فلا يستطيع أحد أن يطاله، أو ينال منه، لأنـــه غيب من الغيوب، غير أنه موجود نشعر بوجوده ونحسه.

إننا في الحقيقة لا نعرف شيئاً عن سعة الإنسان وعن عدد طبقات "أناه" فهي ممتدة من السطح الذي تعوم فوقه (إنِّيتُهُ) إلى "اللانهائيات" الأعماق حيث السرُّ الإلهي القـــوَّام عليـــه، وبهذا الصدد يقول "النورسي":

" اعلم أنَّ مفتاح العالم بيد الإنسان، وفي نفسه، كالكائنات مع أنها مفتحة الأبواب – ظاهراً – إلاّ أنها متغلقة – حقيقة – فالحق سبحانه وتعالى، أودع من جهـــة الأمانـــة في الإنسان مفتاحاً يفتح كُلَّ أبواب العالم، وطلسماً يفتح به الكنوز المخفية لخلاَّق الكـــون، والمفتاح هو ما فيك من "أنا"، إلاَّ أنَّ "أنا" أيضاً مُعَمَّىً مغلق، وطلسم منغلق، فإذا فتحـــتَ "أنا" بمعرفة ماهيته الموهومة وسرِّ خلقته، انفتح لك طلسم الكائنات كالآتي:

إنَّ الله جلَّ جلاله وضع بيد الإنسان أمانة هي "أنا" الذي ينطوي على إشارات ونماذج يستدل بها على حقائق أوصاف ربوبيته الجليلة وشؤونها المقدسة، أي يكون "أنا" وحـــدة قياسية تعرّف بها أوصاف الربوبية وشؤون الألوهية".[٨٧]

و"أنا" هذا الحرف الشاحب الموهوم والمفترض قد يكبر على حين غِرَّه وينمو ويستغلظ ويتوسع حتى يهيمن على مفاصل النفس كلها وربما امتدَّ أكثر من ذلك فتسلّل إلى أنســـجة الروح والفكر، وضرب معاقل الضمير في الصميم، ونشر الخراب في مواطن الإيمان، وقـــد يستطيب الانسحاب من العالم إلى أعماق قوقعة "الإنيَّة" فيغمض عينيه عن الأغيار فلا يرى

---

[٨٧] الكلمات ص ٦٣٥-٦٣٦

غير نفسه، وقد يتفاقم شعوره بذاته، فيحسُّ أنه محور الدنيا وقطب العالم، وأن كل شـيء مصنوع له، وموضوع تحت يده وملك يمينه، ولا يرى "النورسي" سقطة أشـنع مـن أن يتجرد "أنا" من أي معنىً إلهي يمكن أن يذكره بحجمه المتواضع، وبعبوديته لله تعالى، وبكونه ليس بأكثر من حرف لا معنى له في سطر من سطور ماهية الإنسان، فإذا أقفرت سماء "أنا" من نجمٍ هادٍ يهديه إلى الحق والحقيقة فقد تودع منه، و لم يعدله مندوحة مـن السـقوط في هاوية الهلكى مع الهالكي، وهذا ما يكثر "النورسي" من التحذير منه، وفي هذا الصدد نفسه يقول:

"ولكن إذا نسي "أنا" حكمة خلقه، ونظر إلى نفسه بالمعنى الاسمي، تاركـاً وظيفتـه الفطرية معتقداً بنفسه أنه المالك، فقد خان الأمانة ودخل ضمن النذير الإلهي: ﴿**وقد خاب مَنْ دَسَّاها**﴾ (الشمس: ١٠).

وهكذا فإن إشفاق السماوات والأرض والجبال من حمل الأمانة، ورهبتهنَّ من شِـركٍ موهوم مفترض، إنما هو من هذا الوجه من "الإنيَّة" التي تولد جميع أنواع الشرك والشـرور والضلالات".[٨٨]

فـ "أنا" عند النورسي ليس كما هو عند بعض الصوفية الذين يريـدون لـه المحـق والسحق والعدم، فهو عنده صاحب عمل منوط به - إذا عقل — وظائف عظيمة هي مدار للإدراكات الإيمانية، وهو مفتاح الأكوان والعوالم والفهم عن الله، وحافظ التـوازن بـين عالمي الغيب والشهادة.

-١٧-

إنَّ انفجار قلب المرء وتطايره شظايا في الهواء، أفضل ألف مَرَّة من أنْ يبقى مجدباً مـن أية خفقة إيمانية، فهذه الخفقات الإيمانية هي التي تخلق أنفسنا خليقةً جديدة في كل مـرَّة، وتشكل أفكارنا، وتُنَاسِقُ بينها، إنها عالَمٌ من القوة ينصَبٌّ في أرواحنا فيحفزنا لمواجهة أيـة تحديات كارثية تفجؤنا على حين غِرَّة.

فـ "النورسي" يكاد يكون العقل المرصود لتصحيح مسارات التصوف، ونقله من عالمه التنظيري إلى دنيا الحياة والواقع، فصيانة طهر القلب في هذا العالم الزحامي الذي يزدحم فيه

---

[٨٨] الكلمات ص ٦٣٨

البشر بأجسادهم وأفكارهم وعواطفهم وشهواتهم ونـزعاتهم وتدافعهم واعتراكهم، أمرٌ في غاية الصعوبة، إلاَّ أنَّ "النورسي" استطاع ذلك إلى الحد الذي يجعل فكرة ضلال أصحاب هذه القلوب وزيغهم تبدو مستحيلة وسخيفة في الوقت نفسه، فقد استطاع أن يصوغ هذه القلوب في صدور طلبته وقرائه، ففي رحاب هذه القلوب مفتاح لكل باب، وفيها كل ما نحن جائعون وعطاشى إليه، لأنه لا يتكلم بالعقل وحده، بل بعقل مضمخ بأنداء الروح، فكل الذين دخلوا من أبواب هذا القلب لم يعد لهم ميل للخروج عنه أبداً، حتَّى أنَّ الحقيقة نفسها لم تعد تتحاشاهم بل هي لا تنفك تطرق على هذه القلوب لكي تستقر فيها، وتدفعهم إلى رصد شعاع الحكمة من أية مشكاة أتى وإلى أي مكان يسير.

بينما يشعر معظم الصوفية بالخوف والتوجس عندما يكونون خارج التكية، وهم يزدادون انسحاباً إلى أعماق عالمهم كلما اضطرهم الظروف إلى مواجهة دنيا الواقع.

فالطاقات الروحية التي يكتسبها الصوفي من التكية والشيخ تبدو عديمة الجدوى إذا لم يستعملها في إدارة دواليب الحياة في الخارج، إنَّ الجانب الأكبر من كيان الصوفي الروحي سيصيبه الضمور ويتوقف عن النُمُّو والتوسع إذا هو لم يضعه على محك التحديات الدنيوية التخريبية، وسيظل بجوب المكان كالطائر الحائر لا يعرف ما يفعل حتى يعود إلى وكره.

فإذا أردت للصوفي أن يصاب بالذعر فألقه في الزحام البشري، فلا يلبث حتى يشرع بالصراخ شاعراً أنهم يسحقون روحه حتى الموت، فلا يكاد يهتدي إلى طريق للخروج من غابة هذا الضجيج البشري حامداً الله على سلامته.

-١٨-

ومهما يكن بناؤنا الإيماني هشاً فهو أفضل — على أقل تقدير — من أنْ لا يكون لدينا أيٌّ بناء أصلاً، لأنه يخفف شيئاً ما من وطأة شعورنا بالانكسار الحضاري إزاء الحضارات المجافية للإيمان وبهذا نستطيع أن ندلل على أننا قادرون أن نعيش إيماننا دون أن نكون مضطرين إلى نفي الحياة، أو نفي ما تُعْطِيَنَاهُ الحضارات الأخرى، إننا على أقل تقدير نملك الضدَّ الإيماني — مهما كان ضئيلاً — لتلك الثقافات الجسدية العنيفة.

وأحسب أنَّ "النورسي" كانت تخامره مثل هذه الأفكار حين أطلق مقولته الشهيرة:

"إنَّ عصرنا هو عصر إنقاذ الإيمان" هذا الإيمان المهدد بأخطار جسيمة تحاصره من كل جانب.

إننا ما زلنا – والحمد لله – فوق خط الإفلاس الروحي التّام، فما زلنا نجد في إيماننا هذا الإيماضة من القوة تسري في كياننا فتشعل فيه أشواقاً إلى حياة إيمانية أفضل وأكمل، فـأيُّ درك من الشقاء يمكن أن ينحدر إليه الإنسان إذا كان بلا إيمان، فالفكر وحده لا يكفـي، فأعلى درجات الفكر، وأعظم ما وصل إليه العقل يمكن أن يفقده صاحبه في ضربة فكـر نقيض، في حين لا يستطيع أحدٌ أن يفقده إيماناً كان قد تشربه حتَّى النخاع، فالإيمان يفتح للإنسان أبواب عوالم أخروية "ماورائية" يعجز العقل عن فتحها، وإلى جلال هذه العـوالم وجمالها دَعَتْ "رسائل النور" وما زالت تدعو.

التصوف وأثره
في شخصية الأستاذ بديع الزمان
سعيد النورسي

د. محمد توفيق رمضان البوطي
جامعة دمشق– سورية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اقتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد فإن طرح مسألة (التصوف وأثره في شخصية الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي) وآثاره المباركة في هذه الفترة من حياة الأمة، له دلالته المهمة في رسم تصور صحيح لمقومات تكوين شخصية الداعية، وبيان منهج العمل الدعوي، وبناء خطة سليمة في المنهج التربوي الذي يجب أن نلتزمه في بناء أنفسنا ومن قد يكونون في عهدتنا.

أذكر هذا الأمر لأن الأمة بدأت تشعر بأن عليها أن تعود فتراجع نفسها، وتعيد النظر في كثير من أساليب العمل الدعوي والتربوي، ليكون أكثر اتصالاً بأصوله واستمداداً من ينابيعه.

ولعل من مظاهر بُعد النظر وإخلاص النفس أن يكون الأستاذ بديع الزمان قد أدرك منذ تلك الفترة، ضرورة التكامل في بناء شخصية المسلم بناءً يمكنه من مواجهة الكثير من نقاط الضعف، ويعدّه لمواجهة مختلف الإشكالات.

التصوف بين مؤيديه ومعارضيه

ومسألة التصوف والطرق الصوفية، التي يرى البعض أنها ضرورية لتحقيق تزكية النفس وتهذيبها من ظاهر الإثم وباطنه، ويرى آخرون أنها انحراف صريح عن الإسلام وخروج عليه؛ إنما اكتنفها هذا الجدل بسبب التشويه الذي أصابها على يد أصحابها بالذات قبل غيرهم.

بادئ ذي بدء لا بد لي من بيان ما هو موضع اتفاق من قبل الجميع، كي نقطع الطريق على تصور الخلاف الذي يمكن أن يجعل مسألة التزكية أو التصوف أو ما شئت لها من التسمية موضع نقاش.

١- لا خلاف في أن علينا جميعاً أن نجعل إمامنا ومرجعنا في التزامنا بديننا الحنيف كتابَ الله وسنةَ رسوله صلى الله عليه وسلم . وأن مخالفة كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام انحراف مرفوض، مهما كانت الأسباب. فالله سبحانه يقول: (**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**) (النساء: ٥٩)

٢- لا ينبغي أن يكون ثمة خلاف في أن تزكية النفس و تطهيرها من ظاهر الإثم وباطنه واجب شرعي. فالله تعالى يقول: (**وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ**) (الأنعام: ١٢٠) ويقول: (**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**) (الشمس: ٩). وغني عن البيان بأن ظاهر الإثم آثام الجوارح، كالغيبة والنميمة والنظر إلى المحرمات وأكل أموال الناس بالباطل، ونحو ذلك. وأن باطن الإثم ما يمكن أن تنطوي عليه نفس المرء من عيوب وآثام كالكبر والحقد والرياء والحسد. ولا شك أن كلا النوعين من الذنوب يجب أن نهذب النفس منه، وأن نجتهد في تجنبه. ولكي يتمكن المرء من تزكية نفسه من ظاهر الإثم وباطنه لا بد من سلوك طريق يوثق صلة العبد بربه، ويوقظ في قلبه مشاعر المراقبة لله والخشية منه والحب له. ولئن سمى بعضهم هذا الطريق تصوفاً أو سماه بغير ذلك من التسميات فإن ذلك لا ينتقص من عظيم أهميته وخطورة شأنه.

٣- لا أرى اختلافاً في أن الأجدى لتربية المرء على الأخلاق الحميدة، ومعالجة ما بالنفس من أخلاق ذميمة، يتطلب وجود مرشد حكيم يتولى تربية من هم في عهدته، من خلال كونه القدوة الحسنة في سلوكه وأخلاقه وعباداته، وبالتزام منهج تربوي صحيح مستمد من أصول شرعية.

٤- لا خلاف في أن البدع الدخيلة على الدين، والمخالفة لنصوصه يجب نبذها وتجنبها، عملاً بقوله عليه الصلاة والسلام: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ)[٨٩]

معنى التصوف الذي أعنيه في موضوعي:

وبعد فإنني من خلال ما وجدته في كتب أئمة أهل التصوف، ومما عرفته في أصل هذا المنهج أنه في حقيقته لا يتجاوز هدفين اثنين هما:

- تعميق الحقيقة الإيمانية المتمثلة بالدرجة الأولى بتوحيد الله سبحانه، لتتجاوز القناعة العقلية الراسخة، إلى التمكن من القلب والتعمق في الوجدان حباً وخشية وحياء نحو من يستحق منا ذلك، وهو الله تعالى وحده، وليظهر أثر ذلك على جوارحنا سلوكاً والتزاماً بحدود الله تعالى وشريعته.

- تزكية النفوس بحيث تسمو إلى معارج التقى والصفاء والإخلاص، فلا رياء ولا كبر ولا عجب ولا حسد ولا حقد في القلب، ولا معاص تلوث الجوارح، وتبعد صاحبها عن ربه سبحانه وتعالى، تطبيقاً لقوله تعالى: (**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**) وقوله جل شأنه: (**وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ**).

وأساس هذين الأمرين مستمد من الكتاب والسنة، فلا يقبل عند أئمة هذا المنهج تجاوز للكتاب والسنة بحال من الأحوال.

فقد كتب الشيخ أبو القاسم القشيري رسالته المشهورة بالرسالة القشيرية حول هذا الموضوع ذاته..فعرف بأهل التصوف قائلاً: [إعلموا رحمكم الله أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد، صانوا بها عقائدهم من البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة...][٩٠] ونقل رحمه الله عن أبي سليمان الداراني أنه قال: [ربما يقع في قلبي النكتة (أي الحكمة) من نكت القوم (أي الصوفية) أياماً فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة.][٩١] ونقل عن الجنيد البغدادي قوله: [من لم يحفظ

---

[٨٩] رواه البخاري في كناب الصلح : باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود :ج٢/ ص٩٥٩

[٩٠] عبد الكريم أبو القاسم القشيري :الرسالة القشيرية ص ١٩

[٩١] المصدر نفسه ص ٥٩

القرآن و لم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر (أي التصوف) لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة][٩٢]

ويقول الشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله تعالى: [أحكموا أعمالكم على الأركان الخمسة التي بني عليها الإسلام، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة و حج البيت وصوم رمضان) إياكم ومحدثات الأمور قال عليه الصلاة والسلام: (من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد)] [٩٣]

وفي هذا يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى، موضحاً أن أمور التصوف من أصول الإيمان وقواعد الدين: [أما بعد فهذه كلمات مختصرات في أعمال القلوب التي قد تسمى المقامات والأحوال. وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين، مثل محبة الله ورسوله، والتوكل على الله وإخلاص الدين له، والشكر له والصبر على حكمه والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك..][٩٤]

بهذا المعنى للتصوف كان يعيش الأستاذ بديع الزمان، ومن هذا المعين الثر العذب كان يصوغ رسائله ويلقنها لتلاميذه. ولئن لم يقل بأنه منتهج لطريقة صوفية، فإن ذلك لا يغير من هذه الحقيقة شيئاً.

وهو إن لم يسم منهجه تصوفاً فهو إنما فعل ذلك بغية توسيع دائرة منهجه الدعوي لتتسع أكثر مما كان صوفيو زمانه ينهجون؛ والذين ضيقوا دائرة دعوتهم ضمن نطاق التربية الوجدانية، والعلاقة بين الشيخ والمريد، في كثير من الأحيان. فدعوته إلى الله سبحانه اتسعت لتكون ترجماناً للمنهج القرآني الشامل للحقيقة التربوية التي يهدف إليها أهل التصوف، والمشتملة على الحقائق العقلية التي يخاطب بها الذين أعشت أعينهم الضلالات الفكرية السائدة آنذاك، ولسائر جوانب الإسلام التي تصحح حياة الفرد والمجتمع، وترسم العلاقة الصحيحة مع الحق ومع الخلق.

---

[٩٢] المصدر نفسه ص ٧٢

[٩٣] البرهان المؤيد: ص٢٠

[٩٤] شيخ الإسلام ابن تيمية مجموع فتاوى المجلد العاشر ص٥ الطبعة المغربية (طبعت بأمر الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود)

موقف الأستاذ بديع الزمان رحمه الله من التصوف:

كان للأستاذ بديع الزمان فهمه الدقيق للحقيقة الصوفية، ضمّنه تلويحات تسعة من كتابه: "حقيقة نورلري" أو "أنوار الحقيقة" إذ يقول: [توجد تحت أسماء التصوف والطريقة والولاية والسير والسلوك حقيقة حلوة نورانية منشطة قدسية روحانية. حتى إن محققي أهل الذوق والكشف قد ألفوا آلاف الأسفار في إيضاح وإعلان وتدريس تلك الحقيقة القدسية، وبينوها لنا وللأمة جزاهم الله عن الجميع خير الجزاء. ونحن بناء على ضرورة هذا العصر نبدي بعض رشحات من ذلك البحر المحيط.] ثم يعرف بالطريقة فيذكر أنها معرفة الحقائق الإيمانية وتذوقها بالحال والشهود الذي يسمو بصاحبه إلى درجة الكمال البشري. ويشير إلى ضرورة تآزر القلب والدماغ (أو العقل والوجدان) لتحقيق هذا المعنى: ولذلك يقول في شأن القلب: [والواسطة الكبرى لتحريك القلب وترقيه في مراتب الولاية ومسلك الطريقة مع ذكر الله تعالى: التوجه إلى الحقائق الإيمانية]

وفي **التلويح الثاني** من تلويحاته حول حق الطرق والولاية، يوضح فوائد الذكر على المرء في حياته الدنيوية، فيذكر أن الذكر يحرره من قسوة الحياة المادية التي تعود على المرء بظلمات الهموم والأحزان، وينقلهم إلى تذوق حلاوة الاستئناس بالله، وعندئذ يشعر بالسعادة.

وفي **التلويح الثالث** يشير إلى ما يمكن أن يفسر بما يسميه أهل التصوف بالحقيقة والشريعة، وأنهما متكاملان، بهما يتحقق كمال إسلام العبد، وباجتماعهما يتذوق المرء حقائق هذا الدين. والذين يعيشون في الشريعة ولا يتصلون بمذاق الحقائق يغلقون خزائن من الدرر واليواقيت التي يحتويها هذا الدين في أسرار حقائقه، ويفقدونه من ماء الحياة أو ما يسميه كوثر نبع ماء الحياة.

ويحذر من ليس لهم نصيب من ذلك المورد العذب من أنهم على خطر، يمكن أن تودي بهم دسائس زندقة هذا الزمان. ثم يشير إلى أن سبيل مقاومة إغراءات وشبهات الدعوات الباطلة أنوار مجالس الذكر التي تحصن إيمان المؤمنين وتحمي دينهم.

ولكن هذا لا يعني انه كان يؤيد واقع التصوف الذي شاهده في عصره. لذلك نجده يشير إلى غلاة جهلة أهل التصوف ويرد على ترهاتهم، كما في التلويح السابع إذ يقول:

[فتصور الشريعة قشراً والحقيقة لباً ونتيجة وغاية له، كما هو ظن بعض أهل التصـــوف، ليس بصواب...ثم يقول: ينبغي أن لا تخرج الطريقة والحقيقة عن كونهما وسيلتين وخادمتين للشريعة، وأن لا تتجاوزا إلى مرتبة المقصودية بالذات. فإذا كان المقصود بالـــذات تطبيـــق السنة السنية فإن التزام أحكام الشريعة وتطبيقها هو الاتباع الرسمي للسنة المحمدية علـــى صاحبها الصلاة والسلام.

وإن ميل القلب إلى جهة أخرى، بأن يتصور حلقة الذكر أفضل من الصلاة، وانجذابـــه إلى الأوراد أقوى من توجهه إلى الصلاة، وفراره من مخالفات الطريقة أشد من فراره مـــن الكبائر، مع أن أوراد الطريقة كلها لا تقابل واحداً من الفرائض التي أمرت بها الشريعة، ولا تنوب مناب فرض واحد من الفرائض، فذلك خطأ محض.

فلا بد أن تكون آداب الطريقة وأوراد التصوف بمثابة متمم لنيـــل الـــذوق الحقيقـــي بالفرائض. لا أن يجعل غايته تلك الآداب والأوراد. إن الذي يتصور أن صـــلاة المســـجد تصلى بالعجل وإنما يجد الذوق الحقيقي في زاويته بعيد عن الحقيقة.]

ويتابع في **التلويح الثامن** الرد على غلو بعض جهلة الصوفية، والمفرطين منهم في مـــا سماه (ثمان ورطات)، من ذلك: ترجيحهم مرتبة بعض رجالهم على مرتبة بعض الأنبياء، أو الصحابة. وتفضيلهم أوراد الطريقة التي تندرج في نوافل عموم لذكر على الأذكار المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وما يذهب إليه بعضهم من اعتبار الإلهام أو الكشف الذي قد يناله بعضهم بمثابة الوحي(٩٥). و يشير إلى أولئك الذين تعلقوا بالكرامات، و تشوفوا إلى نيلها أو ادعوها لأنفسهم ليوهموا العامة برفيع منـــزلتهم. كما أشار إلى خطأ أولئك الذين اكتفوا بأشباه الأولياء، ممن يدعون منازلها، بينما هم بعيدون عن نيل مراتبهـــا، أو أولئـــك الذين يرجحون الفخر والدلال والشطحات.. على الشكر والابتهـــال والاســـتغناء عـــن المخلوقين، وهي أعلى المراتب، لأنها المرتبة التي تشرف بها النبي صلى الله عليه وســـلم. ثم يشير إلى أولئك الذين غدا تصوفهم لوناً تعجل ثمرات التقرب إلى الله تعالى لينالها في الدنيا.

وفي **التلويح التاسع** يذكر للطريقة تسع فوائد:

---

[١] بل إن بعضهم يعد ما يراه في منامه، إن صدق أنه رأى في منامه، بمثابة الوحي ويبني عليه أحكاماً قد ينسخ بها نصوصاً ثابتة ومبادئ شرعية.

– أولها أن الطريقة سبيل ليغدو المرء مؤمناً حقا، يسمو إيمانه ليبلغ درجة [عين اليقين] ولعله يقصد ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم أن يعبد الله كأنه يراه...

– وفي الثانية أن الطريقة تهتم بالقلب الذي إذا صلح صلح الجسد كله، ليرقى بصاحبه إلى مرتبة الإنسانية الحقيقية.

– وفي الثالثة يشير إلى توثيق الصلة مع طبقات الذين مضوا إلى الحياة البرزخية. فهم وإن مضوا إلى تلك المرحلة فإن الصلة بهم أنس و تأييد قوي للقلب.

– وفي الرابعة يوضح أن الهدف بلوغ درجة الحب، وهو ما يشير إليه الحديث القدسي الصحيح: (ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به.) الحديث..

– وفي الخامسة يوضح هدفاً أو فائدة للطريقة، وهي أن يتحول أداء المرء للتكاليف الشرعية إلى نوع من التمتع بالعبادة والتقرب إلى المولى سبحانه، وهذا بالتالي يؤدي إلى:

– الثمرة السادسة وهي أن يتلذذ ويستأنس بما يقربه إلى الله ليرتقي في مراتب القرب إلى مرتبة التوكل والتسليم والرضا.

– وفي السابعة يبين ثمرة في غاية الأهمية هي التخلص من الرياء والتصنع بواسطة تزكية النفس، لتنجو من مهالك الأنانية.

– أما الثمرة الثامنة فهي أن تغدو بذلك كله وبالحضور والشهود الدائم عاداته لوناً من العبادات. بينما تظل عبادة الغافل لوناً من العادات التي يمارسها وهو غافل عن مولاه.

– وفي التاسعة والأخيرة يذكر فائدة عظيمة هي الفوز بحقيقة الإيمان وحقيقة الإسلام، فيتحرر من رق الحوادث، ويمارس وظيفة الخلافة عن مولاه، ويطير إلى ربه بجناحي الحقيقة والشريعة.[٩٦]

على هذه القاعدة الواضحة بنى الأستاذ منهجه الدعوي، و لم يشأ أن يسمى منهجه تصوفاً، وإن كان موقفه من التصوف قد أوضحه فيما أسلفت. لتكون دعوته مسمى لا اسماً، وحقيقة لا دعوى.

---

[٨] جميع التلويحات وما تفرع عنها من كتاب : تلويحات تسعة من كتاب أنوار الحقيقة من رسائل النور. ترجمة الشيخ أمين الفاروقي.

أثر التصوف في شخصية الأستاذ بديع الزمان ورسائله:

نجد الأستاذ بديع الزمان قد اصطبغت شخصيته بتلك المعاني التي ذكرهـا للطريـق وفوائده، كما نجده يركز في رسائله على تلك الأهداف التي ذكرها، وإن لم يسمِّ مسـلكه في الدعوة والإرشاد طريقة.

إنه قد ذاق، وهو يريد أن ينقل طيب طعم ما ذاقه إلى قراء رسائله. وليس كل مـن يتكلم أو يكتب يملك أن ينقل إلى الآخرين الذوقيات الوجدانية. يقول في المثنوي العـربي: [ما في نون ﴿نعبد﴾ من سر الجماعة يصور للمصلي المتنبه سطح الأرض مسجداً اصـطف فيه مع المصلي جميع المؤمنين، ويرى نفسه في تلك الجماعة العظمى. وبما في إجماع الأنبيـاء والأولياء على ذكر (لا إله إلا الله) من توافق الأصوات يتيسر للذاكر أن يـرى الزمـان: [حلقة ذكر] تحت رئاسة إمام الأنبياء ... يذكرون الله بصوت يسمعه من ألقى السمع وهو شهيد. فإن كان حديد السمع والبصيرة سمع ذكر مجموع المصنوعات أيضا، ورأى نفسه في حلقة ذكرها.][٩٧]

ويثني الشيخ رحمه الله تعالى على السادة النقشبندية في طريقتهم بالذكر الخفي، ويـرى لها أعظم الأثر في معالجة آفات النفس سواء المتمثلة في آفة الأنانية والتكبر، أم في آفة الغفلة التي هي رأس كل آفة. وفي الوقت ذاته لا ينكر فضل الذكر الجهري[٩٨]، ويؤكد هذا الثناء على أصحاب الطرق وأئمتها من أمثال الشيخ الجيلاني والسيد الرفاعي والشيخ الشـاذلي، رضي الله عنهم، في منهجهم التربوي الذي يربط قلوب المريدين بربهم بسلاسل الـذكر، ليدرك العبد بذلك حقيقة ضعفه، فيلوذ بباب مولاه، لا يعـول علـى الـدنيا ولا علـى زخارفها[٩٩].

ثم يحلق في عالم محبة الله وتعظيمه، مستعرضاً آيات الله في خلقه مستنطقاً إياها معـاني تعظيم الله سبحانه وبديع آلائه. وهو يعيش مع معاني قوله سبحانه (**تُسَبِّحُ لَهُ السَّـمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ**) يقول: [إن عظمة وسعة هذه

---

[٩٧] المثنوي العربي النوري ط٢ استانبول ١٩٩٤ ص١٦٢

[٩٨] المرجع نفسه : ص١٩٢

[٩٩] المرجع ذاته ص: ٢٧١

الآية اقتضت تفسيراً فتوجه إليها فترشحت متقطرة منها في قلبه كلمات مفسرة لها، وسلم مرقاة للصعود إليها. فإن أحببت أن ترشف تلك القطرات المفسرات المترشحات من معان تلك الآية والنازلات من سموات عظمتها فاستمع بقلب شهيد..] واقرأ معه تلك المناجـــاة البديعة التي يحلق فيها في معاني تلك الآية وفيها يقول: [سبحانك ما أعظم سلطانك وأوضح برهانك، سبحانك ما ذكرناك حق ذكرك يا مذكور بألسنة جميع مخلوقاتك وبذوات جميع مصنوعاتك، وبأنفس جميع كلمات كتاب كائناتك...] ويتابع تلك المناجاة، أو القصـــيدة البديعة من قصائد الحب والتعظيم للمولى سبحانه، مستعرضاً كل شيء يســـبح بحمـــده، موضحاً مظاهر تسبيح الأشياء، من مثل قوله رحمه الله تعالى: [سبحانك يا من تسبح لـــك طبقات الجو بأفواه رعودها وبروقها ورياحها وسحابها وشهابها وأمطارها ، بكلمات لمعاتها وقطراتها، بلسان نظامها في ميزانها في غاياتها وثمراتها..][١٠٠]

ويقول في الكتاب نفسه، مستلهماً من قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللهِ﴾** وقوله سبحانه: **﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾** مقاصد للذكر ومعاني يحرض على تذوقها واستحضـــارها: [اعلم أيها السعيد القاصر العاجز الفقير أن في نفسك قصوراً بلا نهاية، وعجزاً بلا غايـــة، وفقراً بلا انتهاء، واحتياجاً بلا حد، وآمالاً بلا عد. فكما أودع فيك الجوع والعطش لمعرفة لذة نعمة الله تعالى، كذلك ركبت فيك من القصور والفقر والعجز والاحتياج لتنظر بمرصاد قصورك إلى سرادقات كماله سبحانه، وبمقياس فقرك إلى درجات غناه ورحمته، وبميـــزان عجزك إلى قدرته وكبريائه، ومن تنوع احتياجاتك إلى أنواع نعمه وإحسانه. فغاية فطرتك هي العبودية، والعبودية أن تعلن عند باب رحمته قصورك بـــ: " أستغفر الله " و"ســـبحان الله" وفقرك بـــ: "حسبنا الله " وبـــ "الحمد لله" وبالسؤال وبالعجز بـــ "لا حول ولا قوة إلا بالله" وبـــ"الله أكبر" . وباستمداده ليظهر بمراتب عبوديتك جمال ربوبيته.][١٠١]

عوامل في تكوين هذا الجانب في شخصية الأستاذ بديع الزمان :

---

[١٠٠] المرجع ذاته ص: ٣٨٨

[١٠١] المثنوي العربي ص:٣٦٤ والسيرة الذاتية ص: ١٥٨

ولكي لا أمضي في الجزئيات التي قد لا أصل منها إلى نتيجة ذات أهمية؛ لا بـــد لي أن أشير إلى عوامل مهمة أدت بأستاذنا إلى التحليق في تلك الآفاق التي قل من يتذوقها مـــن دعاة اليوم، مع أنها هي حقيقة الدعوة وروحها، أو قل هي حقيقة هذا الدين. لعل من أبرز تلك العوامل أمران اثنان:

الأمر الأول : المقومات الأولى في تكوين شخصية بديع الزمان من حيث العلم والتربية والورع، وهي كثيرة ومهمة بلا شك. [أشير إلى بعض تلك المقومات: غزارة علمه وذكاؤه المتميز، والصلة الروحية المبكرة بينه وبين الشيخ عد القادر الجيلاني، والتي تنم عـــن صـــلة قائمة قبل الرؤيا، حيث رآه في الرؤيا وأمره الشيخ أن يتوجه إلى أحـــد الكـــبراء ليـــأمره بالصلاة، وكان من نتيجة ذلك أن انصاع الرجل لنصح الشيخ، ومن ذلك تورعه في مطعمه ومشربه. وغضه لبصره ...]

والأمر الثاني : هو ذلك التحول الذي جرى في شخصية الأستاذ بعد عودته من الأسر، والذي كان نتيجة عدة أمور، أشار إليها في سيرته الذاتية. أحدها شعوره ببوادر الشيخوخة ونذر دنو الأجل لتكون بداية ميلاد شخصية سعيد الجديد. والآخر تأثره بالشيخ الرباني عبد القادر الجيلاني من خلال كتابه (فتوح الغيب) إذ يقول الشيخ رحمه الله تعالى وطيب ثراه: [وأصبح الشيخ الجيلاني رضي الله عنه أستاذاً لي وطبيباً ومرشداً بكتابه "فتوح الغيـــب"، وصار الإمام الرباني [أحمد السرهندي الفاروقي] رضي الله عنه كذلك بمثابة أستاذٍ أنـــيسٍ ورؤوفٍ شفيقٍ بكتابه "المكتوبات" فأصبحت راضياً كلياً وممتناً من دخولي المشيبِ، ومن عزوفي عن مظاهر الحضارة البراقة ومتعها الزائفة...][١٠٢] .

وعامل ثالث لا مجال لإغفاله، أعني أنه عامل في تكوين شخصيته المتميزة بتلك النفحة الروحانية، التي قد تسمى تصوفاً: أوراده وأذكاره التي كان حريصاً ودؤوباً عليها، وقيامه الليل، وكثرة تلاوته القرآن.

نتيجة البحث:

---

[١٠٢] سيرة ذاتية ص: ١٦٠

يمكن القول بأن سعيداً الجديد، كما يسمي نفسه أستاذنا رحمه الله تعالى في المرحلة الثانية من حياته، والتي اتجه فيها إلى كتابة رسائله والبعد عن المجال السياسي، والأنشطة الأخرى، لم يكن إلا ثمرة لسعيد القديم بتكوينه العلمي والتربوي، بسعة علمه، وبورعه وتقواه، بزهده وعبادته. لقد كانت فترة سعيد القديم فترة إعداد وفترة سعيد الجديد فترة عطاء وإنتاج. فسعيد القديم في شخصية الأستاذ بمثابة الجذع، وسعيد الجديد منها بمثابة الأغصان والثمار المتدلية والمتفرعة كلها والمنبثقة عن ذلك الجذع. كانت الفترة الأولى بمثابة الوضوء والفترة الثانية بمثابة الصلاة.

لذلك فإن نبوغ شخصية بديع الزمان في مرحلة حياته الثانية ليست إلا نتيجة طيبة لأصل طيب. إن الأغصان لا يمكن أن تنشأ فتعطي أطيب الثمار إلا بمقدار ما يطيب الجذع الذي تنبثق عنه، ولئن كانت المرحلة الثانية بمثابة الصلاة فإن الصلاة لا تصح بغير وضوء.

وإن علينا ونحن نتتلمذ على شخصية بدع الزمان ورسائله أن نجعل من حياته ومقومات شخصيته أساساً لبناء أنفسنا فرسائل النور ثمرة مهمة لتربية متكاملة لا غنى لنا فيها عن بقية المقومات العلمية والتربية التي كونت شخصية أستاذنا فهي ضرورية لنا لنصل إلى ما يريد أستاذنا أن نصل إليه.

رحم الله الأستاذ بديع الزمان وطيب الله ثراه، وجعل من إرشاداته وحياته نبراساً لنا نستضيء به لبناء شخصية إسلامية متكاملة.

والحمد لله رب العالمين

المنهج الصوفي المعرفي والسلوكي في حياة الأستاذ النورسي

د. محمود أبو الهدى الحسيني– باحث
حلب – سورية

أولاً – تمهيد:

يتميز عظماء أمتنا الذين انفعل الزمان لسِيَرِهم، بأنهم جمعوا من معين دين الإسلام أموراً ثلاثة:

- العلم الواسع القابل للتطبيق العملي.
- والدعوة المتدفقة بحيويتها وحركتها.
- والتصوف المحرق الذي ينفخ الروح في العلم والدعوة.

والأستاذ النورسي واحد من أولئك العظماء، الذين جمعوا تلك المضمونات، ومزجوها في وعاء واحد، حتى إنه يكادُ غير المستبصر لا يميز بين تلك المضمونات الثلاثة في حياته ورسائله، وربما قرأ بعضهم أو رأى مضموناً واحداً يتناسب مع شخصه وفكره لا مع حياة الأستاذ وسيرته الشاملة، وهو بهذا يقرأ ما وصل إليه هو من الأستاذ، ولا يكون قارئاً لما كتبه الأستاذ نفسه.

ومن هنا كان للندوات الفضلُ في فرز الموضوعات، وتنبيه الباحثين والدارسين على الجوانب التي لم تلح لهم من قبل، مع أنهم يمرون عليها مصبحين وفي الليل، ولا يتدبرون ما فيها من المعاني والآيات.

ولعلَّ كثرةَ أخبارِ الأستاذ في الدعوة والجهاد والعلوم، شغلتْ بعضهم عن رؤيةِ سِرِّه الباطن وحقيقته الباهرة.

وأجزم بتصوف الأستاذ، وحسبي لمعرفة رقيٍّ تصوفه أنه بلسان قلمه الصادق يقرُّ بأنه ارتقى إلى رتبة "تلميذ القرآن"(١٠٣)، ويحمد الله تعالى على أن وُفِّق إلى "جمع الطريقة مع الحقيقة بفيض القرآن وإرشاده" (١٠٤) ويكشف النقاب عن فلكه بين شموس التصوف وأعلامه الذين وصلوا إلى رتبة التلمذة على القرآن بقوله: "فانظر إلى تلاميذ التنـــزيل من الأولياء أمثالِ الكيلاني، والرفاعي والشاذلي" (١٠٥)

ولقراءة تصوف الأستاذ وتلمس بركاتِ سلوكه، لا بد من التصنيف والتفقيـــر، وقد جعلت البحث في المحورين الآتيين:

- تصوف الأستاذ في حقائقه.
- وتصوف الأستاذ في طرائقه.

وما أعنيه في هذا التقسيم راجعٌ إلى كونِ الدينِ أركانًا ثلاثةً، " الإسلام والإيمان والإحسان" وكونِ "ركني الإسلام والإيمان" كالوسائل والطرائق لركن الإحسان، وكون التصوف في غاياته إحسانيًا، وفي طرائقه إسلاميًّا إيمانيًّا .

ثانيًا – البحث:

أ- تصوف الأستاذ في حقائقه:

قدمتُ الحقائق على الطرائق؛ لأنها المقصود والغاية، وما أكثر المشتغلين بالطرائق، وما أقل المتحققين بالحقائق. ورحم الله القائل:

خليليَّ قُطّاعُ الفيافي إلى الحمى   كثيرٌ فأما الواصلون قليلُ

ولا أعني بالمتحققين بالحقائق من تكلم باصطلاحها، فالمتكلمون باصطلاحاتها كثيرٌ أيضًا، ولكنّي أعني بهم من سلكوا بقلوبهم وأرواحهم، بعدما تبينوا المعالم بعقولهم، وساروا إلى مولاهم بكُلِّ ما آتاهم من عطيّةٍ وفضل.

---

(١٠٣) انظر المثنوي العربي النوري ص ٣٠.

(١٠٤) المثنوي العربي النوري ص ٣١.

(١٠٥) المثنوي العربي النوري ص ٢٧١.

والأستاذ النورسي هو من هذا النوعِ الفاضل، الذي يَعتبرُ نظر العقل، ثم يسير فاتحًا بصر قلبه وروحه، مشاهدًا أمامَه في هذا المسلك عظماءَ أهلِ الحقيقة كالإمامِ الغزالي ، وجلالِ الدين الرومي(١٠٦).

أ-١ – حقيقة معرفة الله:

أ-١ –١- أداة هذه المعرفة:

إن أداة المعرفة عند الأستاذ هي الروح والقلب، وحين استرشد بالقرآن الكريم سلك إلى حقائقه بروحه وقلبه وقال معبراً عن سيره: "فشرع بإرشادٍ من ذلك الأستاذ القدسيِّ، بالسلوك بروحه وقلبه" (١٠٧). وبيَّـــنَ أنه ما كتب مثنويَّه إلا ليكُون معبرًا عن ذوقه وشهوده فقال: "ما كتبتُ إلا ما شاهدتُ" (١٠٨)؛ لأن ذلك المثنوي العربي هو "نوع تفسيرٍ شهوديٍّ لبعض الآيات القرآنية" (١٠٩).

وقال : "والقلب مرآة الأحد الصمد، لكن له شعورُ إحساس بما تجلّى فيه، وعلاقةٌ مفتونيّةٌ بما تمثل فيه، خلافًا لسائر المرايا " (١١٠).

وليس مقبولًا عند الأستاذ أن يخوض الفكر والعقل في الحقائق الصوفية الذوقية بمقاييسهما المجردة، وهو يرى أنَّ أهل الفكر والعقل حينما حصروها في المقاييس الفكرية والعقلية جعلوها مصدر كثير من الأوهام والأفكار الباطلة(١١١).

وكان يرى أن مداومة النظر في مجرد كتب الفلسفة تورث العقل بعض الأسقام، وأنه لا بد للحكيم الذي يطالعها من تصفية عقله من شوائبها، وقال يصف سيره: "بل جهد كل

---

(١٠٦) انظر المثنوي العربي النوري ص ٣١.

(١٠٧) المثنوي العربي النوري ص ٣٠.

(١٠٨) المثنوي العربي النوري ص ١٠٤.

(١٠٩) المثنوي العربي النوري ص ٣٤.

(١١٠) المثنوي العربي النوري ص ٣٩٨.

(١١١) انظر المثنوي العربي النوري ص ٤٣٣.

الجهد أولًا لإنقاذ عقله وفكره من بعض الأسقام التي أورثته إياها مداومة النظر في كتب الفلسفة" (١١٢).

وقال: "قد شاهدتُ ازدياد العلم الفلسفي في ازدياد المرض، كما رأيت ازدياد المرض في ازدياد العلم العقلي، فالأمراض المعنوية توصِلُ إلى علوم عقلية، كما أن العلوم العقلية تولّد أمراضًا قلبية" (١١٣).

ويتبين مما تقدم أنَّ أداة المعرفة لديه أصلًا هي الروح والقلب، أما العقل فإنه يصلح أن يكون مبتدأ الطريق ثم لا بد له من الخضوع لسلطان الروح.

ويظهر بهذا جَلِيًّا تجانسُ مشربه مع مشرب مولانا الرومي، الذي يقول في ديوانه شمس تبريز:

"رأى العقل سوقًا فبدأ بالتجارة، ورأى العشق أسواقًا كثيرة وراء سوق العقل" (١١٤)... "للعشاق الذين شربوا حتى الثمالة أذواقٌ في داخلهم، ولأرباب العقل المظلمي القلوب إنكارٌ في داخلهم" (١١٥) .... "وبرغم أن العقل صاحب الصدارة وعالـمٌ نحرير، فإن رداءه وعمامته صارا رهنًا عند كأس العشق" (١١٦) ..." العقلُ لا يعرفُ ويغدو حيرانَ أمام مذهب العشق، رغم أنه مُطّلعٌ على جملة المذاهب" (١١٧).

أ-١ - ٢- مراتب هذه المعرفة:

إن أولى مراتب معرفة الله تعالى الذوقية: **التوحيدُ الحضوري الشهودي**، والأستاذُ يقرر أن التوحيد توحيدان:

- توحيدٌ عامي ... يمكن تداخُلُ الغفلات بل الضلالات في أفكار صاحبه.

---

(١١٢) المثنوي العربي النوري ص ٢٩.
(١١٣) المثنوي العربي النوري ص ١٥٨.
(١١٤) انظر د١٦ /١٣٢ من يد العشق ص ٤٩
(١١٥) انظر د١٦ / ١٣٢ من يد العشق ص ٤٩
(١١٦) انظر د١٦٠/ ١٢٨٩من المصدر السابق ص ٢٤٥.
(١١٧) انظر د٢٨ / ٢٣٢ من المصدر السابق ص ٦٣.

– وتوحيدٌ حقيقي يقول: «هو الله وحده له الملك، وله الكون، له كل شيء» ... يثبته له إثباتًا حضوريًا، ولا يمكن تداخل الضلالة والأوهام في هذا التوحيد [١١٨].

وفي هذا التوحيد تزولُ "ظلماتُ الجهات الستة، وتتنورُ الجهات الآفاقيةُ والأنفسية الستة، وتظهر الأضواءُ الثلاثة[١١٩]، المنعكسة من شمس معرفة سلطان الأزل" [١٢٠].

فإذا تحقق بهذا التوحيد الشهودي، **انحصر نظره في وجود «واجب الوجود»** ورأى الموجودات كلَّها ظلالًا باهتةً لا تستحق إطلاق صفة الوجود عليها حيال «واجب الوجود» وصغرت وتضاءلت في نظره «الممكنات المخلوقات»[١٢١]، ولا يكون هذا إلاّ لأخَصِّ الخواصّ عند حالات الاستغراق المطلق، وللمتجردين من الأسباب المادية ومن الذين قد قطعوا علائقهم بما سوى الله من الممكنات والأشياء[١٢٢].

فإذا أفاق من عالم استغراقه ونشوته، أثبتَ الأشياء المخلوقة بإثبات الأزل، لا باعتبار وجوداتها الاستقلالية. وفي هذا يقول الأستاذ:

"وبسرّ أنّ في إسناد كلّ الأشياء إلى الواحد لا يكون الإيجادُ من العدم المطلق بل يكون الإيجادُ عينَ نَقْلِ الموجود العلمي إلى الوجود الخارجي" [١٢٣].

ويقول: "ختَم أقطارَ السموات والأرض بخاتم الواحدية، وضرب على مجموع العالم سكَّةَ الأحدية" [١٢٤].

ويقول: ".. هو الشمس الأزلي الذي هذه الكائناتُ ظلالُ أنواره وتجلياتُ أسمائه وآثارُ أفعاله، باتفاقِ أهل الشهود" [١٢٥].

ويزيل وهم استقلال وجود الأشياء المخلوقة عن مولاها بقوله:

---

[١١٨] المثنوي العربي النوري ص ٤٠.

[١١٩] يشير إلى ضوء المصباح وضوء الزجاجة وضوء المشكاة، في الآية: (مثل نوره...) سورة النور الآية ٣٥.

[١٢٠] انظر المثنوي العربي النوري ص ١٣٥.

[١٢١] انظر المكتوبات ص ٥٧٩ .

[١٢٢] انظر المصدر السابق ص ٥٨٠.

[١٢٣] المثنوي العربي النوري ص ١٤٣.

[١٢٤] المثنوي العربي النوري ص ٤٥.

[١٢٥] المثنوي العربي النوري ص ١٣٨.

"لو لم تُسند تماثيلَ الشمس المتلألئة في القطرات، إلى تجلّي الشمس يلزم عليك أن تقبل شُمَيْسَةً حقيقيةً وبالأصالة في كل قطرة قابلتها الشمس وفي كل زجاجة أضاءها الشمسُ، بل في كل ذرة شفافة تشمّستْ ..كذلك .. للشمس الأحدية السرمدية على كل حياة ... طرةٌ وسكةٌ من تجلّي الأحدية" (١٢٦).

وخشيةَ توهُّمِ الحلول أو الاتحاد من كلماته يقول:

"ولا يمكن دخولُ شرارةٍ من كبريت في عينها بالأصالة، بل لو دخلت لانطفأت العين... كذلك ... يجب مظهريةُ كلِّ ذرة لتجليات أسماء شمس الأزل، ولا يمكن، بل يمتنع أن تكون ذرةٌ مصدرًا وظرفًا لمؤثرٍ حقيقي، ولو كان أصغر وأقل من الذرة" (١٢٧).

ويبين الفروق بين الأولياء والفلاسفة في الكلام على هذه الحقائق، وخلاصتها أنَّ :

١ – الأولياء الصوفية توجهوا إلى الله تعالى وحده بكليتهم فلم تعد أسرارهم ترى في الوجود إلا هو، وكانوا غائبين بقلوبهم وأرواحهم عن المادة. أما الفلاسفة الماديون وضعفاء الإيمان، فقد توجهوا بكليتهم إلى المادة وصرفوا كل تفكيرهم ونظرهم فيها، وصاروا لا يرون غيرها فغابوا عن الألوهية، ثم ازدادوا جهالة حين توهموا امتزاج الألوهية بتلك المادة.

٢ – الأولياء الصوفية لم تشاهد أرواحُهم إلا الحقَّ. أما الماديون فإنَّ بواطنهم العالقة في المادة لم تر إلا وحدة المادة الموجودة.

٣ – مسلك الأولياءِ الصوفية مسلكٌ ذوقي بينما مسلك الماديين مسلكٌ عقلي.

٤ – نظرُ الأولياء إلى المخلوقاتِ تابعٌ لمعرفتهم بالله وفرعٌ ثانويٌّ عنها، أما الماديون فإن نظرهم إلى المخلوقاتِ أصلٌ، وقد حصروا فيها ذلك النظر.

٥ – الأولياء يعبدون الله ويستغرقون في محبته، والماديون يعبدون أنفسهم وهواهم؛ فأين الثرى من الثريا.. وأين الضياء الساطع من الظلمة الدامسة(١٢٨).

---

(١٢٦) المثنوي العربي النوري ص ٤٢.

(١٢٧) المثنوي العربي النوري ص ١٧٨.

(١٢٨) انظر المثنوي العربي النوري ص ٤٣٢-٤٣٣.

وبين التعلق بالحقيقة الأزلية وملاحظة المخلوقات الظلالية يتدلى ويترقى الأستاذ، يقول رحمه الله:

"يتدحرج رأسي في آن واحد من الأوج إلى الحضيض، ومن الحضيض إلى الأوج"[١٢٩]

ويقول:

"سلكت طريقًا غير مسلوك، في برزخ بين العقل والقلب، ودار عقلي من دهشة السقوط والصعود " [١٣٠].

ويفصِّلُ في ترقيه فيقول:

"مكمّليةُ هذه الآثار المشهودة في هذه الكائنات بلا قصور ولا فطور، تشهد بالمشاهدة الحدْسية على مكملية أفعال مستترة خلفها... ومكمّليةُ هذه الأفعال التي هي كالمشهودة، تشهد بالبداهة على كمال أسماء ذلك الفاعل؛ وكمال تلك الأسماء، يشهد بالضرورة على كمال الصفات؛ إذ الأسماءُ ناشئة من نسَب الصفات، وكمالُ الصفات يكشف باليقين عن كمال الشؤون الذاتية التي هي مبادئ الصفات القدسية، وكمالُ الشؤون يشهد بحق اليقين على كمال الذات بما يليق بجنابه سبحانه" [١٣١].

وكأنه في هذا يتوافق مع ما قاله ابن عطاء الله السكندري في حكمه :

"دَلَّ بوجود آثَاره عَلَى وُجُود أَسمَائه، وَبوُجُود أَسمَائه عَلَى ثُبوت أَوْصَافه، وَبوُجُود أَوْصَافه عَلَى وُجُود ذَاته، إذْ مُحَالٌ أَنْ يَقُومَ الوَصْفُ بنفسه، فَأَهْلُ الجَذْب يَكْشَفُ لَهُمْ عَنْ كَمَال ذَاته، ثُمَّ يردُّهمْ إلَى شُهُود صفَاته، ثُمَّ يردُّهمْ إلَى التَّعَلُّق بأَسمَائه، ثُمَّ يردُّهمْ إلَى شُهُود آثَاره، وَالسَّالكُونَ عَلَى عَكْس هَذَا، فَنهَايَةُ السَّالكين بدَايَةُ المَجْذُوبينَ لكنْ لا بمَعْنًى وَاحد، فَربَّمَا التَقيَا في الطَّريق، هَذَا في تَرَقِّيه وَهَذا في تَدَلِّيه" [١٣٢].

وعبَّـــر الأستاذ عن الترقي والتدلي بعباراتٍ متعددة، منها تقسيمه السَّيْرَ إلى أنفسي وآفاقي:

---

[١٢٩] المثنوي العربي النوري ص ٣٥.

[١٣٠] المثنوي العربي النوري ص ٣٥.

[١٣١] المثنوي العربي النوري ص ٥٢.

[١٣٢] الحكم العطائية الحكمة ص ٢٥٠.

"فالسير الأنفسي يبدأ من النفس ويصرف صاحبُ هذا السير نظرَه عن الخارج ويحدّق في القلب مخترقًا أنانيته. ثم ينفذ منها ويفتح في القلب ومن القلب سبيلًا إلى الحقيقة.. ومن هناك ينفذ إلى الآفاق الكونية فيجدها منوّرةً بنور قلبه، فيصل سريعًا إلى أن الحقيقة التي شاهدها في دائرة النفس يراها بمقياس أكبر في الآفاق، وأغلب طرق المجاهدة الخفية يسير وفق هذه السبيل.

وأهم أسس هذا السلوك هو كسْرُ شوكة الأنانية وتحطيمها، وترك الهوى وإماتة النفس.

أما النهج الثاني فيبدأ من الآفاق ويشاهد صاحبُ هذا النهج تجليات أسماء الله الحسنى وصفاته الجليلة في مظاهر تلك الدائرة الآفاقية الكونية الواسعة، ثم ينفذ إلى دائرة النفس فيرى أنوار تلك التجليات بمقاييس مصغَّرة في آفاق كونه القلبي، فيفتح في هذا القلب أقربَ طريق إليه تعالى، ويشاهد أن القلب حقًّا مرآةُ الصمد فيصل إلى مقصوده ومنتهى أمله"(١٣٣).

ويقول الأستاذ النورسي مفصِّلًا في وجه آخر من وجوه التدلي والترقي: " اعلم أن محبة ما سواه تعالى على وجهين: وجه ينـــزل من علو؛ أي يحب الله فبحبه يُحب من يحبهُ الله، فهذه المحبة لا تُنقص من محبة الله بل تزيدها.

والوجه الثاني: يعرج من سُفْل؛ أي يحبّ الوسائلَ فيتدرج في محبتها ليتوسل إلى محبة الله، فهذه المحبة تتفرق، وقد تصادف وسيلة قوية فتقطع عليها الطريق فتهلكها، وإن وصلت وصلت بنقصان" (١٣٤)

أ–١ –ً ٣– التعبير عن هذه المعرفة:

يقرُّ الأستاذ بأنه قد جرى عليه ما جرى على كُمَّلِ الصوفية الذين هجمت عليهم الوارداتُ المعبِّرة عن الحقائق من غير إرادةٍ منهم، فيقول في مثنويه العربي:

"وكذا لا تظنن أني باختياري أشكَلْتُ عليك عبارةَ هذه الرسالة، إذ هذه الرسالة مكالمات فجائية مع نفسي في وقت مدهش" (١٣٥).

(١٣٣) المكتوبات ص ٥٧٥

(١٣٤) المثنوي العربي النوري ص ١٦٢.

وقد صرّح بمثل هذا الشيخ ابن عربي، ومولانا جلال الدين الرومي، ومن كلمات الرومي قوله:

"والله ، إنني لا أميل إلى الشعر .. صار مفروضًا علي" (١٣٦)....

"كل شعرة مني صارت بفضل حبك بيتًا وغزلًا " (١٣٧)....

" إذا لم أنشد الغزَل ، فإنه يشق فمي" (١٣٨)

وفي هذا المعنى يقول صاحب الحكم العطائية:

"قَلَّمَا تَأْتِي الوَارِدَاتُ الإِلَهِيَّة إِلاَّ بَغْتَةً لِئَلاَّ يَدَّعِيهَا العِبَادُ بِوُجُودِ الاسْتِعْدَاد" (١٣٩)

وبعد هذا، فإننا نجد الأستاذ ربما عبـّـَر عن حقيقة من الحقائق التي يشهدها بالرمز أو الإشارة، فمن كان من الراسخين في المعرفة يدرك إشارة رمزه، ومن لم يكن أهلًا لذلك فالرمز يكفيه مؤونة سوءِ فهمِ الجاهل.

يقول الأستاذ: "وكثيرًا ما أضع كلمةً على ما لا يمكن لي التعبير عنه، للإخطار والتذكير، لا للدلالة" (١٤٠). ويقول: "إنك ترى .. من المسائل والحقائق الدقيقة التي من شأنها أن يكون كلٌّ منها موضوعًا لرسالة..قد ذكرتْ ضمن ألفاظٍ ضيقةٍ لا تسعها، وفي سطورٍ معدودةٍ لا تستوعبها.." (١٤١)

وهو "يشير إلى ترقياته الفكرية وفيوضاته القلبية بأدق العبارات وأقصر الجمل التي لا يفهمها إلا هو، لذا فقد لا يدركُ قسمًا منها – بعد جهد جهيد – إلا الراسخون في العلم"(١٤٢)، ثم كأنه يفتح الطريق للراسخين في العلم ليفصِّلوا في بعض ما فهموه من رموزه

---

(١٣٥) المثنوي العربي النوري ص ٣٥.

(١٣٦) الشمس المنتصرة ص ٩٦.

(١٣٧) الشمس المنتصرة ص ٩٨ ص د ٣٠٤٨ ص ٣٢٤٢٢ .

(١٣٨) الشمس المنتصرة ص ٩٨ ص د ٢٩٣٨ ص ٣١١٨٣.

(١٣٩) الحكم العطائية الحكمة(٦٩) .

(١٤٠) المثنوي العربي النوري ص ٣٥.

(١٤١) المثنوي العربي النوري ص ٣٣.

(١٤٢) المثنوي العربي النوري ص ٣٢.

بقوله: "فلو كانت تلك الخواطر القلبية مبيَّنةً بعبارات سهلة مفصَّلة وموضَّحة بإيضاح يقرّبها إلى الإفهام لكان ذلك «المثنويُّ العربي» مُعِينًا تامًّا لرسائل النور" [١٤٣].

أ-٢ – حقيقة معرفة محمد رسول الله ﷺ:

يشاهد الأستاذ نور النبي ﷺ غامرًا للكون، ويرى خَلْقَ الأفلاك من أجل محمد ﷺ ، وهو لا يكتفي بالنظر إلى مسجده ﷺ الكبير الذي مساحته الأرض، ومحرابه مكة ومنبره المدينة[١٤٤]، بل يراه في كل تسبيحة سبّحها الكونُ فكانت بلسان محمدها[١٤٥]، ثم إنه ﷺ في مشهد الأستاذ "كالشمس يدل على ذاته بذاته" [١٤٦].

وهو ﷺ المرآة الصفائية للأسماء الحسنى، يقول الأستاذ: "ولا يمكن حُسْنٌ لا نهاية له، بلا طلبِ ذي الحسن، ومحبته لمشاهدة محاسن جماله ولطائف حسنه في مرآة. وبلا إرادته لإشهاد أنظارَ المستحسنين عليه وإراءته لهم بواسطة عبدِ حبيب يتحبب إليه ورسولٍ يحببه إلى الناس، أي هو بعبوديته مرآةٌ لشهود ذي الجمال" [١٤٧].

ويقول: "كذلك هو مظهرٌ ومرآة لصفة الربوبية" [١٤٨].

ويرى الأستاذ أننا حين لا نستضيء بنور رسول الله ﷺ "نرى في الكائنات مأتمًا عموميًّا،..... ونرى جامداتها جنائز دهاشة،..... ونرى الإنسان قد صار بعجزه...... أدنى وأخسر من جميع الحيوانات" [١٤٩]. ويقول: :فانظر الآن بنوره، وبمرصاد دينه، وفي دائرة شريعته، إلى الكائنات كيف تراها؟ انظر! قد تبدل شكل العالم، فتحوّل بيتُ المأتم العموميّ مسجدَ الذكر والفكر ومجلسَ الجَذْبة والشكر... وتحول الأعداء الأجانب من

---

[١٤٣] المثنوي العربي النوري ص ٣٢.
[١٤٤] المثنوي العربي النوري ص ٥٥.
[١٤٥] انظر المثنوي العربي النوري ص ٣٨.
[١٤٦] المثنوي العربي النوري ص ٥٦.
[١٤٧] المثنوي العربي النوري ص ٨٧.
[١٤٨] المثنوي العربي النوري ص ١٢٣.
[١٤٩] المثنوي العربي النوري ص ٥٨.

الموجودات أحبابًا وإخوانًا...، وتحوّل ذوو الحياة منها، الأيتام الباكون المشتكون، ذاكرين في تسبيحاتهم"[١٥٠].

ويرى النبيَّ ﷺ يدير حلقة الذكر الكونية الكبرى، فيقول:

"إذ بينما تراه قال: "لا إله إلا الله" ... فإذا نسمع من الماضي والمستقبل من الصفَّين النورانيين (أي شموس البشر ونجومِه القاعدين في دائرة الذكر) عينَ تلك الكلمة فيكررونها"[١٥١]

ويراه ﷺ كيف يهيِّجُ ببكائه بكاء كل الكائنات، ويقول:

"انظر إلى طَوْره في طُرُز تضرعاته كيف يتضرع بافتقار عظيم، في اشتياق شديد، وبحزن عميق في محبوبيّة حزينة! بحيث يهيج بكاء الكائنات فيبكيها فيشركُها في دعائه.. ثم انظر كيف يتضرع باستمداد مديد، في غياث شديد، في استرحام بتوددٍ حزين، بحيث يُسْمِع العرشَ والسمواتِ، ويهيج وجْدها" [١٥٢].

ويتوسل بالنبي ﷺ قائلًا: "اللهم بحق القرآن وبحق من أنزل عليه القرآن" [١٥٣].

أ-٣ – حقيقة معرفة الكائنات:

يرى الأستاذ أن العارفين وحدهم يشهدون حُسْنَ الكائنات؛ لأنها مرايا أسماء الأزل، ويقول: "أكثر الغافلين لا يدرك حُسْنَ الحادثات" [١٥٤].

ويتحدث عن : "«الجمال الحزين» في خد الكائنات المنعكس المرمِز إلى وجوب وجود ذي الجمال المجرد" [١٥٥].

---

[١٥٠] المثنوي العربي النوري ص ٥٨.
[١٥١] المثنوي العربي النوري ص ٥٦.
[١٥٢] المثنوي العربي النوري ص ٦٣.
[١٥٣] المثنوي العربي النوري ص ٧٩.
[١٥٤] المثنوي العربي النوري ص ٤٠.
[١٥٥] المثنوي العربي النوري ص ١١٧.

ويتحدث عن " ما يُرى في قلبها من «العشق الصادق» المنادي على المحبوب الحقيقي، وما يُحَسّ به في صدرها من «الانجذاب والجذبة» الملوِّحَيْنِ بالحقيقة الجاذبة التي تنجذب إليها الأسرار" (١٥٦).

أ–٤ – حقيقة معرفة الإنسان:

معرفة الإنسانِ هي آخرُ المعارف في منازل التدلّي، وللأستاذ كلامٌ عليها، فهو يرى أنَّ الإنسانَ في تكوينه مزوَّدٌ بوجهين، وجه ناظرٍ إلى الحق سبحانه له قيمة عالية غالية، ووجه ناظر إلى الخلق لا قيمة له لفنائه وزواله.(١٥٧)

ويرى الإنسانَ ثمرةً في شجرة الكون فيقول: " الإنسان لكونه أجمعَ وأبدعَ المصنوعات فهو الثمرة الشعورية لشجرة الخِلْقة" (١٥٨).

ويقول :"فالبشر ثمرٌ لهذه الكائنات فهو المقصود الأظهرُ لخالق الموجودات" (١٥٩)

ويقول: "انظر إلى الإنسان في هذه الكائنات حتى تشاهد بالعيان دائرتين متقابلتين، ولوحتين متناظرتين:

فأما إحدى الدائرتين ،فدائرة ربوبية محتشمة منتظمة في غاية الاحتشام والانتظام.

وأما أحد اللوحين فلوحُ صَنْعةٍ مُصَنَّعٍ مرصَّع في غاية الإتقان والاتزان.

وأما الدائرة الأخرى فهي دائرةُ عبودية منوّرة مزهرة في غاية الانقياد والاستقامة. وأما اللوح الآخر، فهو لوح تفكر واستحسان في غاية الوسعة، وصحيفة تشكر وإيمان في غاية الجمع" (١٦٠).

أ–٥ – مانع المعرفة:

بيَّن الأستاذُ رحمه الله أنَّ مانعَ المعرفة هو وجود النفس، فقال:

---

(١٥٦) المثنوي العربي النوري ص ١١٧.

(١٥٧) انظر المثنوي العربي النوري ص ٣٩٢.

(١٥٨) المثنوي العربي النوري ص ٦٦.

(١٥٩) المثنوي العربي النوري ص ١٤٦.

(١٦٠) المثنوي العربي النوري ص ٦٧.

" "أي واه" وا أسفًا ! إنَّ وجود النفسِ عمًى في عينها، بل عينُ عُميها، ولو بقي من الوجود مقدار جناح الذباب يصير حجابًا يمنع رؤيتَها شمسَ الحقيقة، فقد شاهدتُ أن النفس بسبب الوجود تَرى، على صخرة صغيرة في قلعة عظيمة مرصوصة، من البراهين القاطعة ضعفًا ورخاوة فتنكر وجود القلعة بتمامها"[١٦١].... وجهلها ناشئ من رؤيتها لوجودها[١٦٢].

ب – تصوف الأستاذ في طرائقه:

ب–١– الإرادة والنية مُبتدأ كل طريق:

لا يصحّ للإنسان سَيرٌ إلى الحقائق عبر الطرائق إلا بعد إحكام النية، ومما يروى عن الجنيد رحمه الله تعالى قوله:

" أكثر العوائق والحوائل والموانع من فساد الابتداء؛ فالمريد في أول سلوك الطريق يحتاج إلى إحكام النية، وإحكامُ النية تنـــزيهها من دواعي الهوى... حتى يكون خروجه خالصًا لله تعالى".

وفي هذا يقول الأستاذ: "نعم، إنَّ النية ، إكسيرٌ عجيب تَقْلِب بخاصيتها العاداتِ الترابية والحركاتِ الرملية إلى جوهر العبادة" [١٦٣].

ويقول أيضًا: " فالنية روح، وروحها الإخلاص، فلا خلاص إلا بالإخلاص، ويمكن بالنية... عملُ كثيرٍ في زمانٍ قليل" [١٦٤].

والأصل في تصحيح الإرادة وتعيين النية قولُه تعالى:

{ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون } [١٦٥].

ب–٢– مذهبُ الأستاذ في الطريقة القيامُ بحق البدن، مع الروح:

---

[١٦١] المثنوي العربي النوري ص ١٧٠.

[١٦٢] انظر المثنوي العربي النوري ص ١٧٠.

[١٦٣] المثنوي العربي النوري ص ١٥٩.

[١٦٤] المثنوي العربي النوري ص ١٥٩.

[١٦٥] سورة الروم: ٣٨ .

توهم بعض المشتغلين بالطرائق أنها تدعوهم إلى إهمال البدن كَسْرًا للنفس، وهو غير مذهب المحققين، فالإمام الشاذلي رحمه الله يقول في وصاياه: " لا تسرف بترك الدنيا فتغشاك ظلمتُها وتنحلّ أعضاؤك فترجع لمعانقتها بعد الخروج منها بالهمة أو بالفكر أو بالإرادة أو بالحركة .... بَرِّدِ الماءَ فإنك إذا شربتَ الماء الساخن فقلتَ الحمد لله قلتها بكزازة، وإذا شربت الماء البارد وقلت الحمد لله استجاب كل عضو فيك بالحمد لله" (١٦٦).

وفي هذا يقول الأستاذ:

" إني رأيت نفسي مغرورة بمحاسنها، فقلت: لا تملكين شيئًا. فقالت: فإذًا لا أهتم بما ليس لي من البدن. فقلتُ: لابد أن لا تكوني أقل من الذباب، فإن شئتِ شاهدًا فانظري إلى هذا الذباب كيف ينظِّفُ جَناحيه برجليه ويمسح عينيه ورأسه بيديه، سبحان من ألهمه هذا وصيّره أستاذًا لي وأفحم به نفسي" (١٦٧).

وهو الموافق للسنة فيما روي عن النبي ﷺ وأصحابه.

ب-٣- مذهبُ الأستاذ في الطريقة استعمالُ العقل مع القلب:

يقول الأستاذ: مخبرًا عن سَيْره: " وكان لا يقنع ولا يكتفي بالحركة القلبية وحدها- كأكثر أهل الطريقة" (١٦٨) ... " أراد أن يقتدي ببعض عظماء أهل الحقيقة المتوجهين إلى الحقيقة بالعقل والقلب" (١٦٩).

وهكذا نجد كلامًا استدلاليًا كثيرًا يعدّه الأستاذ جزءًا من الطريقة، وهو بذلك يتشابه مع الإمام الغزالي رحمه الله.

ومن نماذج خطابه العقلي الاستدلالي في الطريقة ما يأتي:

" يا أيها الغافلُ المنغمس في الأسباب! إنّ الأسبابَ حجابُ تصرُّف القدرة؛ إذ العزة والعظمة تقتضيان الحجابَ، لكن المتصرِّف الفعال هو القدرةُ الصمدانية" (١٧٠).

---

(١٦٦) من وصايا الإمام الشاذلي عن السوانح الكمالية.

(١٦٧) المثنوي العربي النوري ص ١٦٨.

(١٦٨) المثنوي العربي النوري ص ٢٩

(١٦٩) المثنوي العربي النوري ص ٢٩

" هذه الوسائط لإظهار عزة القدرة وحشمة الربوبية " [١٧١].

"وضِعَت الأسباب لتتوجه الشكاوي إليها" [١٧٢].

"التوحيد والجلال يردّانِ أيدي الأسباب عن التأثير الحقيقي" [١٧٣].

"التعلّقُ بالأسباب سببُ الذلة والإهانة" [١٧٤].

"إنك موزون بين موازين... فَتَنَبَّهْ وأقم الوزن بالقسط.. والحال أنك تلهو كمجنون بين مجانين" [١٧٥].

ويحاور المبتلى بأحد الأمراض الأربعة المضلَّة، فينصحه بعلاج مرض اليأس بـــ {لاتقنطوا من رحمة الله} وعلاجِ مرض العُجْب بتذكُّر عدم مالكية نفسه لشيءٍ ، وعلاجِ الغرور بالنظر الواعي إلى أعمال الأسلاف وأمجادهم، وعلاجِ سوء الظن بردِّ العيبِ إلى نفس المسيء ظنه [١٧٦].

ب-٤- الاتصال بالطرائق وشيوخها:

اتصل الأستاذ من حيث الإسنادُ بالطريقة النقشبندية، وهي طريقةٌ تربي أبناءها على الأخلاق والآداب، لكنَّ انجذابه الروحي كان إلى أستاذ الطريقة القادرية الشيخ الكبير الكيلاني المتوفى سنة (٥٦١هـــ)، ولعلَّ ذلك يرجع إلى الأمور الآتية:

- توجيه الشيخ الكيلاني - فيما نقله عنه تلامذته — إلى المعرفة والحقيقة، وهو ما يهواه النورسي الشابُّ، الراغب في الانطلاق من مراسم الآداب الظاهرة إلى فضاء المعارف الجاذبة. وقد تكون الطبيعة الجبلية الصفائية الموصولة بنقاء السماء التي يعيش فيها ساعدت في ذلك.

---

[١٧٠] المثنوي العربي النوري ص ٣٩.

[١٧١] المثنوي العربي النوري ص ٣٩.

[١٧٢] المثنوي العربي النوري ص ٤٠.

[١٧٣] المثنوي العربي النوري ص ٤٠.

[١٧٤] المثنوي العربي النوري ص ١٦٠.

[١٧٥] المثنوي العربي النوري ص ٣٩٦.

[١٧٦] انظر المثنوي العربي النوري ص ١٢٦-١٢٧.

- انجذابُ الشابّ النورسي الروحيُّ الخاص للشيخ الكيلاني.

- شدةُ الشيخ الكيلاني في الحق، وعدَمُ مبالاته بالخلق، وبغضه الشديد لتملق الناس، وهي مفرداتٌ تروق للنورسي الشابّ وتستهويه، وتتناسب مع شخصيته.

يقول الأستاذ: "وعلى الرغم من أنني منتسب إلى الطريقة النقشبندية بثلاث جهات فإن محبة الطريقة القادرية ومشْرَبــها يجري فيّ حُكْمُه دون اختيار مني، كنت ... أقول: أيها الشيخ الكيلاني، أقرأ لك سورة الفاتحة، جُدْ لي ما ضيعته من جوز مثلًا أو أي شئ ... وإنه لأمرٌ عجيب، فوالله لقد أمدني الشيخ بدعائه وهمته ألف مرة، ولهذا ما قرأت من أوراد وأذكار طوال حياتي إلاّ وأهديتها أولًا إلى حضرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ثم إلى الشيخ الكيلاني " (١٧٧).

وبعد تقدّمه في السن كان سعيد النورسي الجديد يقول:

"وأصبح الشيخ الكيلاني رضي الله عنه أستاذًا لي وطبيبًا ومرشدًا بكتابه فتوح الغيب، وصار الإمام الرباني رضي الله عنه كذلك بمثابة أستاذ أنيس ورؤوف شفيق بكتابه "مكتوبات"، فأصبحت راضيًا كلّيًا وممتنًا من دخولي المشيب، ومن عزوفي عن مظاهر الحضارة البرّاقة ومتعها الزائفة، ومن انسلالي من الحياة الاجتماعية وانسحابي منها، فشكرت الله على ذلك كثيراً" (١٧٨).

وكانَ الأستاذُ كثيرَ الرؤيا للنبي ﷺ .

وإنَّ حديثه عن نسَبه وأنه لا يعدّ نفسه من آل البيت، لأن الأنساب مختلطة في زمانه، قد يشير إلى شيءٍ يجول في نفسه أو مكاشفة روحانية حصلت له، أفادته أنه من آل بيت رسول الله ﷺ ، يقول الأستاذ: "إنني لا أستطيعُ أن أعدّ نفسي من آل البيت حيث الأنساب مختلطة في هذا الزمان....رغم أنني بمثابة ابن معنويٍّ لسيدنا علي كرم الله وجهه وتلقيت درس الحقيقة منه" (١٧٩).

---

(١٧٧) سيرة ذاتية لبديع الزمان سعيد النورسي – إعداد إحسان قاسم.

(١٧٨) اللمعات ص ٣٦٣ .

(١٧٩) سيرة ذاتية لبديع الزمان سعيد النورسي – إعداد إحسان قاسم..

"ويقول السيد "حسن فهمي باش أوغلو" بعد استغرابه مما رآه في بديع الزمان من سعة العلوم وعجيب أجوبته على المسائل: "اطمأننتُ تمامًا وعلمتُ علم اليقين بأن علمه ليس كسبيًّا كعلمنا، بل هو علم لدني" (١٨٠).

وقد بحث الإمام الغزالي مسألة التحصيل من غير معلِّم، ثم أجابَ عن المسألة بقوله:

"اعلم أن الأستاذ فاتحٌ ومسهِّلٌ والتحصيلُ معه أسهل وأروح، والله تعالى بفضله يمتن على من يشاء من عباده فيكون هو معلّمهم " (١٨١).

وقال أيضًا:

" اعلم أن العلوم التي ليست ضرورية، وإنما تحصل في القلب في بعض الأحوال، تختلف الحال في حصولها: فتارة تهجم على القلب كأنه ألقي فيه من حيث لا يدري، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم، فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلةِ الدليل يسمّى إلهامًا، والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصارًا" (١٨٢)

ويقول الأمير عبد القادر الجزائري:

" تنفع أكملية الشيخ من حيث الدلالة الموصلة إلى المقصود، وإلا فالشيخُ لا يعطي المريد إلا ما أعطاه له استعداده، واستعداده منطوٍ فيه وفي أعماله" (١٨٣).

على أنَّ ما وُفِّقَ إليه الأستاذُ النورسي رحمه الله من الاختصاص، لا ينبغي أن يصرف المتعلم عن المربي إن وجد. يقول الشعراني رحمه الله:

" كانت صور مجاهداتي لنفسي من غير شيخ، أنني كنتُ أطالع كتب القوم كرسالة القشيري وعوارف المعارف والقوت لأبي طالب المكي والإحياء للغزالي وأعملُ بما ينقدح لي من طريق الفهم، ثم بعد مدة يبدو لي خلاف ذلك فأترك الأمر الأول وأعمل بالثاني، وهكذا فكنت كالذي يدخل دربًا لا يدري هل ينفذ أم لا، فإن رآه نافذًا خرج منه وإلا رجع، ولو

---

(١٨٠) المصدر السابق.

(١٨١) منهاج العابدين للإمام الغزالي — دار الطباعة الميمنية ١٢٨٧هـ.

(١٨٢) إحياء علوم الدين ص ١٣٧٦.

(١٨٣) المواقف ج١ ص ص٣٠٥.

أنه اجتمع بمن يعرِّفه أمْرَ الدرب قبل دخوله لكان بيّن له أمْرَه وأراحه من التعب، فهذا مثال من لا شيخ له" [١٨٤].

ويقول الشيخ أحمد زروق في قواعده:

" أخْذُ العِلْمِ والعمل عن المشايخ أتمُّ من أخذه دونهم" [١٨٥].

وينبغي أن لا يُنسى أثر والدة الأستاذ (نورية) في تربية الأستاذ، وهو الذي يقول:

" أقسم بالله، إن أرسخ دَرْسٍ أخذتُه، وكأنه يتجدد عليّ، إنما هو تلقينات **والدتي** رحمها الله ودروسها المعنوية، حتى استقرت في أعماق فطرتي وأصبحت كالبذور في جسدي، في غضون عمري الذي يناهز الثمانين" [١٨٦].

ب–٥– قواعد الطريقة وأصولها:

يذكر الأستاذ قواعد الطريقة، وخلاصتها الأمور الآتية:

١– **اتباعُ السنة النبوية المطهرة** هو أجملُ وألمع طريق موصلة إلى مرتبة الولاية من بين جميع الطرق.... واتباع السنة المطهرة هو طريق الولاية الكبرى، وهو طريق ورثة النبوة من الصحابة الكرام والسلف الصالح.

٢– **الإخلاص** هو أهم أساس لجميع طرق الولاية وسبل الطريقة؛ لأن الإخلاص هو الطريق الوحيد للخلاص من الشرك الخفي....

٣ – **المحبة** تشكِّل أمضى قوة في تلك الطرق....والذين يتوجهون بقلوبهم إلى معرفة الله عن طريق المحبة لا يصغون إلى الاعتراضات ويجاوزون سريعًا العقبات والشبهات، وينقذون أنفسهم بسهولة، ويحصنونها من الظنون والأوهام، حتى لو اجتمع عليهم آلاف شياطين الأرض[١٨٧].

---

[١٨٤] لواقح الأنوار القدسية ج١ ص٥١.

[١٨٥] قواعد التصوف – القاعدة ص ٦٥.

[١٨٦] سيرة ذاتية لبديع الزمان سعيد النورسي – إعداد إحسان قاسم..

[١٨٧] انظر المكتوبات ص٥٨١.

٤- الدنيا هي دار العمل ، وليست دارًا للمكافأة والجزاء... ويجب **عدم المطالبة بثمرات الأعمال** الأخروية وجزائها في هذه الدنيا، ولو أعطيت يجب أخذها وقبولها من يد الرب سبحانه بفرح مشوب بالحزن، وسرور ممزوج بالأسى وليس بفرح وسرور خالصين...[١٨٨]

ب-٦- أوصاف السالك في الطريقة:

على سالك الطريقة أن يسلك طريق العجز، والفقر، والشفقة، والتفكر.

- **فوصف العجز** كالعشق طريق موصل إلى الله؛ إذ هو يوصل إلى المحبوبية بطريق العبودية [١٨٩]..

ومنبعه من القرآن الكريم قوله تعالى: {فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ}[١٩٠].

قال صاحبُ الحكم العطائية: "تَحَقَّقْ بِأَوْصَافِكَ يُمِدَّكَ بِأَوْصَافِه ، تَحَقَّقْ بِذُلِّكَ يُمِدَّكَ بِعِزِّه، تَحَقَّقْ بِعَجْزِكَ يُمِدَّكَ بِقُدْرَتِه ، تَحَقَّقْ بِضَعْفِكَ يُمِدَّكَ بِحَوْلِه وَقُوَّتِه " [١٩١].

- **ووصف الفقر** يوصل إلى اسم الله «الرحمن»[١٩٢].

ومنبعه من القرآن الكريم قوله تعالى: {وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ}[١٩٣]، أي أنساهم واقع أنفسهم أنها محضُ فقرٍ وعجزٍ فتوهموا فيها الغنى والقدرة.

وقال صاحبُ الحكم العطائية أيضًا: "إِنْ أَرَدْتَ بَسْطَ الْمَوَاهِبِ عَلَيْكَ ، صَحِّحِ الفَقْرَ وَالفَاقَةَ لَدَيكَ {**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَاكِينِ**}[١٩٤].

---

[١٨٨] انظر المكتوبات ص٥٨٢.
[١٨٩] انظر المكتوبات ص٥٩٤.
[١٩٠] النجم: ٣٢.
[١٩١] الحكم العطائية – الحكمة (١٧٨) .
[١٩٢] انظر المكتوبات ص٥٩٤.
[١٩٣] الحشر: ١٩.
[١٩٤] الحكم العطائية – الحكمة (١٧٦) .

– **ووصف الشفقة** كالعشق موصل إلى الله إلا أنه أنفذ منه في السَّيْر وأوسع منه مدى، إذ هو يوصل إلى اسم الله «الرحيم»[١٩٥].جاء في الحديث عنه ﷺ : "ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"[١٩٦].

ومنبعه من القرآن الكريم قوله تعالى: {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}[١٩٧]، فإن كنتَ شفيقًا فهي حسنة من الله تعالى عليك توفيقًا في الابتداء وإثابةً في الانتهاء، وإن كنتَ قاسيَ القلب فهي سيئةٌ مصدرها النفس الأمارة، ولا تعود عليك إلا بالعقاب.

وقد أورد الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه من كتاب الإيمان بابًا سماه: "بَاب دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُمَّته وَبُكَائه **شَفَقَةً عَلَيْهِم**" عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ:

" أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَلا قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي} الْآيَةَ، وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي وَبَكَى، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ فَقَالَ اللَّهُ يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ".

– **ووصف التفكر** أيضًا كالعشق إلا أنه أغنى منه وأسطع نورًا وارحم سبيلًا، إذ هو يوصل السالك إلى اسم الله «الحكيم»[١٩٨].

ومنبعه من القرآن الكريم قوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ [١٩٩]} [٢٠٠]، فمن تفكر في عدمية الأشياء وزوالها، يقوده ذلك إلى معرفة الحكمة الكبرى من وجوده ووجود الكائنات من حوله، ويجذبه إلى الحقيقة الواحدة الأزلية الأبدية.

---

[١٩٥] انظر المكتوبات ص٥٩٤.

[١٩٦] أخرجه أحمد في مسنده وأبو داود والترمذي والحاكم في المستدرك عن ابن عمر.

[١٩٧] النساء: ٧٩ .

[١٩٨] انظر المكتوبات ص٥٩٤.

[١٩٩] القصص: ٨٨.

[٢٠٠] انظر المكتوبات ص ٥٩٥

ومن أصوله قوله تعالى:

{الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ **وَيَتَفَكَّرُونَ** فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلًا } [٢٠١].

ب–٧– أوراد الطريقة وأفعالها:

ب–٧– ١– أوراد الطريقة:

أعظم أوراد الطريقة وأفعالها عند الأستاذ فعل الفرائض والسنن، وتأتي بعدها أنواع القربات المتعددة، وهو بهذا متوافق مع أكابر أهل الحقيقة كالرفاعي والشاذلي والإمام الرباني والشيخ الكيلاني.

يقول الكيلاني رحمه الله: " أدِّ الأمر، وانتهِ عن النهي، واصبر على هذه الآفات، وتقرب بالنوافل، وقد سُمِّيتَ مستيقظًا " [٢٠٢].

ويقول الأستاذ النورسي: "أهل الطريقة وأصحاب الحقيقة كلما تقدموا في مسلكهم وارتقوا في معارجهم وجدوا أنفسهم منجذبين أكثر إلى الحقائق الشرعية" [٢٠٣].

ويعيب على بعض المبتدئين سوء فهمهم حين يكون اهتمامهم وانشغال قلوبهم بآداب الطريقة فائقًا اهتمامَهم بأعمال الشريعة الواجبة والمسنونة، فيقول:

"... فإن الأعمال الشرعية المحكمة وآداب السنة السنية، تنحسر حتى تأخذ الدرجة الثانية من الاهتمام لدى السالك، وتصبح صورية شكلية بانشغال القلب بالتوجه إلى آداب الطريقة ورسومها، أي إن المرء عندئذ يفكر بحلقة الذكر أكثر من تفكيره بالصلاة، وينجذب إلى أوراده أكثر من انجذابه إلى الفرائض، ويُلزم نفسَه بتجنب مخالفة آداب الطريقة أكثر من التزامه بتجنب الكبائر، والحال أن أداء فريضة واحدة التزامًا بالأوامر الشرعية لا يمكن أن توازيها أوراد الطريقة، أو تحل محلها. فآداب الطريقة وأوراد التصوف وما يحصل

---

[٢٠١] آل عمران: ١٩١

[٢٠٢] الفتح الرباني للكيلاني المجلس الثاني والثلاثون ص ١٤١

[٢٠٣] المكتوبات ص٥٨٤-٥٨٥

للسالك منهما من أذواق ينبغي أن تكون مدخلًا لأذواق أحلى وأعلى وأسمى، يحصل عليها هذا السالك من أداء الفرائض والسنن" (٢٠٤).

وبعدها نجد الأستاذ لا يهمل ما زاد على ذلك من الأوراد، بل ويبين منافعه وفوائده ودقائق معانيه. وانظر إليه وهو يتحدث عن خواصِّ بعض الأذكار وتباين الحاجة إليها مع غيرها فيقول:

"كما أن الحاجات الجسمانية مختلفةٌ في الأوقات فإلى بعضٍ (في كل آن كالهواء) وإلى قسمٍ (في كل وقتٍ حرارة المعدة كالماء) وإلى صنفٍ (في كل يومٍ كالغذاء) وإلى نوعٍ (في كل أسبوعٍ كالضياء) وإلى طائفة في (كل شهرٍ .. أو سنة كالدواء)...كذلك إن الحاجات المعنوية الإنسانية أيضاً مختلفة الأوقات: فإلى قسم (في كل آن كـــ "هو" ، و "الله") وإلى قسم (في كل وقت كـــ بسم الله) وإلى قسم في كل ساعة كـــ (لا إله إلا الله) وهكذا فقس.

فتكرار الآيات والكلمات للدلالة على تكرار الاحتياج، وللإشارة إلى شدة الاحتياج إليها. ولتنبيه عِرْق الاحتياج وإيقاظه، (وللتشويق) على الاحتياج، ولتحريك اشتهاء الاحتياج على تلك الأغذية المعنوية" (٢٠٥).

ويتحدث عن كلٍّ من الذكر الخفي والجهري وفوائد كلٍّ منهما بقوله:

" اعلم ! كما أن الحبة من بذور الحبوبات ونوى الثمرات إذا ثقبت في قلبها، لا تتكبر بالتنبت. كذلك حبة «أنا» إذا ثقبت بشعاع ذكر: الله...الله...لا تتعاظم تلك الأنانيةُ متفرعةً بالانتعاش ومتفرعنةً بالغفلة، ومستحصنةً ومستندةً بآثار النوع، ومبارزةً بالعصيان لجبار السموات والأرض. والأولياء النقشبنديون موفَّقون لفتح حبة القلب وكشف طريق قصير بثَقْب جبل«أنا» وكسْرِ رأس النفس بمثقاب الذكر الخفي. كما أنك بالذكر الجهري تخرب طاغوت الطبيعة".(٢٠٦)

ويبين سر تكرير الأذكار بقوله:

---

(٢٠٤) المكتوبات ص٥٨٤–٥٨٥

(٢٠٥) المثنوي العربي النوري ص ٧١.

(٢٠٦) المثنوي العربي النوري ص ١٩٢.

" اعلم أن تكرار كلمة التوحيد، لتجريد القلب من أنواع العلاقات، وطبقات المعبودات الباطلة، ولأن في الذاكر أنواعًا من لطائف وطبقات من حواس، لكلٍّ توحيدٌ وتجريدٌ من الشرك المناسب له" [(٢٠٧)].

ويدعو إلى كثرة الصلاة على النبي ﷺ بقوله:

"اعلم أن الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام كإجابة دعوة المنعِم الذي أفاض فيضه، وبسطَ مائدة إنعامه على مقام صاحب المعراج، وإذا وصف المصلّي النَبيَّ بصفةٍ، لابد أن يتأمل في مُناط تلك الصفة ليشتاق المصلي لتصلية جديدة" [(٢٠٨)].

ويذكر فائدة الدعاء ويبين حاجة السالك إليه بقوله:

" اعلم أن الدعاء، لاسيما من المضطرين، له تأثير عظيم يسخَّر بسببه أقوى الأشياء وأعظمها لأضعف الأشياء وأصغرها، كسكوت غضب البحر لأجل معصوم على لوح منكسر دعا بقلب منكسر فيدل على أن المجيب يحكم على الكل فهو رب الكل" [(٢٠٩)].

ب-٧- ٢- أفعال الطريقة:

آكَدُ أفعال الطريقة مجاهدةُ النفس، قال الله تعالى :

{ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [(٢١٠)]

وقد سلك الأستاذ مسلك مجاهدة النفس، وقال يصف سَيْرَه: "واضطرته نفسه الأمارة بشكوكها وشبهاتها إلى المجاهدة المعنوية والعلمية " [(٢١١)].

وقال ناصحًا: "كن من شئت، فلا نفسك أطغى وأعصى من نفسي، ولا شيطانك أغوى وأشقى من شيطاني" [(٢١٢)].

---

(٢٠٧) المثنوي العربي النوري ص ١٧٩.
(٢٠٨) المثنوي العربي النوري ص ١٨٠.
(٢٠٩) المثنوي العربي النوري ص ١٦٦.
(٢١٠) العنكبوت: ٦٩ .
(٢١١) المثنوي العربي النوري ص ٣٠.
(٢١٢) المثنوي العربي النوري ص ٣٤.

وقال: "ولا تخف من تمرد النفس؛ لأن نفسي الأمارة المتمردة المتجبرة انقادت..... بل شيطاني الرجيم أُفحم وانخنس" . [٢١٣]

وكان الأستاذ مع مكانته المرموقة في المجتمع لا يبالي بأمر مخالفة ثيابه الجبلية لثياب الناس في إستانبول وأنقرة، وكان يقول:

" إنني أعلن بملابسي المخالفة للناس: استغنائي عن المقاصد الدنيوية... واعتذاري عن عدم مراعـــاتي للعادات الجارية في البلاد.. ومخالفة أحوالي وأطواري عن الناس.. وفطرية إنسانيتي بموافقة الظاهر والباطن" [٢١٤].

ومن مجاهداته انسحابُه إلى تل يوشع ودخولُه مسلك التفكر والتأمل.. حتى اكتمل سعيداً جديداً في طريق قرآني[٢١٥].

وكان يذهبُ في شهر رمضان إلى جامع بايزيد في إستانبول؛ ليستمع إلى القرآن الكريم من الحفاظ المخلصين، فسمع منهم قوله تعالى: {كُلُّ نَفسٍ ذائقةُ الموْت} [٢١٦] فنفذ هذا الإعلان المدوّي إلى أعماق أعماق قلبه، وكان ينظر إلى المرآة، فيرى أنَّ الشعرات البيضاء تخاطبه قائلة: انتبه، وعرف حينها سراً من أسرار رابطة الموت التي يزاولها أهل الطرق الصوفية، ورأى أن رياءً ثقيلًا، وأَثَرة باردة وغفلة، تكمن تحت الستار المزركش للسمعة والصيت، التي هي المثل الأعلى لأرباب الشهرة وعشاقها، وصار يداوم على الذهاب إلى مكانٍ مرتفعٍ في مقبرة إستانبول، فبدا له أهالي إستانبول جنائز يمشون، وباتت المقبرة عنده مؤنسةً أكثر من إستانبول نفسها، وأصبحت الخلوة والعزلة عنده أكثر لطافة من المعاشرة والمؤانسة؛ مما حدا به أن يجد مكانًا للعزلة في صارى ير على البسفور [٢١٧].

وتبدلت نشوة سعيد القديم وابتساماته إلى نحيب سعيد الجديد وبكائه...

---

[٢١٣] المثنوي العربي النوري ص ٣٤.

[٢١٤] سيرة ذاتية لبديع الزمان سعيد النورسي – إعداد إحسان قاسم..

[٢١٥] انظر المصدر السابق.

[٢١٦] آل عمران: ١٨٥.

[٢١٧] سيرة ذاتية لبديع الزمان سعيد النورسي – إعداد إحسان قاسم.ص ١٦٠.

ولا يُنسى كم قضى الأستاذ أوقاتًا في المنفى في بارلا وغيرها أو السجون وكانت خلوات بالنسبة له أيضًا.

وكان يخاطب نفسه قائلًا: "فيا أيتها النفس! تفرغي من هذه الدعوى الباطلة، وسلِّمي المُلْكَ إلى مالكه، وكوني أمينة على هذه الأمانة" (٢١٨).

"اعلمي يا أيتها النفس الأمارة ! أن لك دنيا هي قصر، واسعة مبنية بآمالك وتعلقاتك واحتياجاتك إلى الأكوان، فالحجر الأساس في ذلك القصر والأصل الأول والعمود الفريد، هو وجودك وحياتك، مع أن هذا العمود مدوِّد، ... والأساسَ فاسدٌ ضعيف مهيَّأٌ للخراب في كل آن، فليس هذا الجسم بأبديٍّ ولا من حديد ولا من حجر، بل من لحم ودم مهيأ لأن يتفرق في كل آن، فبانحلاله تنفلق عنك هذه الدنيا بجذافيرها، فتخرب على رأسك دنياك، فانظري إلى الماضي إذ هو قبر واسع خَرِب على رأس كل ميت كان مثلك في دنياه، والمستقبل أيضًا قبر واسع يكون مثله، وأنت الآن بين ضغطة القبرين" (٢١٩).

وكان يقول لنفسه: " اعلم أيها السعيد الشقي! ما هذا الغرور والغفلة والاستغناء؟ ألا ترى أن ليس لك من الاختيار إلا شعرة، وليس من الاقتدار إلا ذرة، وليس من هذه الحياة إلا شعلة تنطفئ، وليس من العمر إلا قليل مثل دقيقة تنقضي، وليس من الشعور إلا لمعة تزول، وليس من الزمان إلا أن يسيل، وليس من المكان إلا مقدار القبر!.... ولك من العجز ما لا يُحدّ، ومن الاحتياج ما لا يتناهى، ومن الفقر مالا يحصى، ومن الآمال ما لا غاية لها ... ومن كان بهذه الحالة من العجز، وفي هذه الدرجة من الحاجة ، هل يتوكل على ما في يده ويعتمد على نفسه... أو يتوكل على الله الرحمن الرحيم" (٢٢٠).

وكان يرى العلة كل العلة في طلب الصوفي للكرامة:

" الذين يرغبون في سلوك طريق الولاية والطريقة إن كانوا يرغبون في تناول بعض الثمرات الجانبية للولاية، أمثال اللذات المعنوية أو الكرامات، ويتوجهون إليها ويطلبونها ويلتذون بها.. فإن هذا يعني رغبتهم في تناول تلك الثمرات في هذه الحياة الفانية، وهي –

(٢١٨) المثنوي العربي النوري ص ١٢٨.

(٢١٩) المثنوي العربي النوري ص ١٣٠.

(٢٢٠) المثنوي العربي النوري ص ١٩١.

إذا حصلت لهم – ثمراتٌ فانية على أي حال كان. وبذلك يفقدون الإخلاص في أعمالهم)[٢٢١].

وكان يرى الشهرة سبب موت القلب وينصح قائلًا : لا تطلبها لئلا تصير عبْدَ الناس، فإن أُعطيتَها فقل: {إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـــا إِلَيْهِ رَاجِعونَ} [٢٢٢]

ب–٨– انتصار الأستاذ للطريقة ودفاعه عن أبنائها:

كان الأستاذ يقرر أنَّ " ما بلَّغته الرسالةُ من الحقائق الإيمانية تراها «الولايةُ » بدرجة «عين اليقين» بشهود قلبيّ وتذوق روحاني فتصدّقها، وتصديقها هذا حجة قاطعة لأحقية الرسالة .... الولايةُ حجّةُ الرسالة، والطريقة برهان الشريعة...الولاية والطريقة سِرٌ كمال الإسلام، ومحور أنواره، وهما معْدنُ سمو الإنسانية ورقيّها" [٢٢٣]

وكان يقول: "تحت عناوين «التصوف والطريقة، والولاية، والسير والسلوك» حقيقة روحانية نورانية مقدسة، طافحة باللذة والنشوة، أعلن عنها كثير من علماء أرباب الكشف والأذواق".[٢٢٤]

ويقول: "«الطريقة» هي في مقدمة الوسائل الإيمانية التي توسع من دائرة الأخوة الإسلامية بين المسلمين وتبسط لواء رابطتها المقدسة في أرجاء العالم الإسلامي" [٢٢٥].

ويقول: "نعم، نرى كل عصر نمر عليه قد انفتحت أزاهيره بشمس عصر السعادة وأثمر كلٌّ عصر من أمثال أبي حنيفة، والشافعي، وأبي يزيد البسطامي، والجنيد البغدادي، والشيخ عبد القادر الكيلاني والإمام الغزالي، ومحيي الدين بن عربي، وأبي الحسن الشاذلي، والشاه النقشبند، والإمام الرباني ونظرائهم ألوفَ ثمرات منوَّرات من فيض هداية ذلك الشخص النوراني"[٢٢٦].

---

[٢٢١] المكتوبات ص ٥٨٣

[٢٢٢] البقرة:١٥٦.

[٢٢٣] المكتوبات ص ٥٧٣.

[٢٢٤] المكتوبات ص ٥٧١.

[٢٢٥] المكتوبات ص ٥٧٤.

[٢٢٦] المثنوي العربي النوري ص ٦٤٦٥.

وكان الأستاذ يذكر فضل أهل الطريقة وثباتهم في أوقاتِ المحنة الدينية فيقول:

"ولا أدلُّ على ذلك من احتفاظ أهل الطريقة بإيمانهم أثناء هجوم أهل الضلالة، حتى إن منتسبًا اعتياديًا مخلصًا من أهل الطريقة يحافظ على نفسه أكثر من أي مدعٍ كان للعلم، إذ ينقذ إيمانه بما حصل عليه من الذوق الروحي في الطريقة وبما يحمله من حب تجاه الأولياء" [٢٢٧].

ويفسر ثباتهم : بالقوة الإيمانية، والمحبة الروحانية والأشواق المتفجرة من المعرفة الإلهية وهم يرددون «الله...الله» في الزوايا والتكايا المتممة لرسالة الجوامع والمساجد والرافدة لهما بجداول الإيمان[٢٢٨].

ويقول: "يجب أن لا ننسى فضل أهل الطرق في المحافظة على مركز الخلافة الإسلامية «إستانبول» طوال خمسمائة وخمسين سنة" [٢٢٩].

ويخاطب الماديين الزاعمين نصرة الوطن بقوله:

(فيا أدعياء الحمية ويا سماسرة القومية المزيفين! ألا تقولون أية سيئة من سيئات الطريقة تفسد هذه الحسنة العظيمة في حياتكم الاجتماعية) [٢٣٠].

وكان يقارن بين مجالس الصوفية المشرقة، وتجمعاتِ الغرب الشهوانية الغريزية المحرقة ويقول:

" فإن شئت فاذهب بخيالك إلى مجلس "سيدا" قدّس سره في قرية نورشين.. وما أظهرت من المدنية الإسلامية بصحبته القدسية، تَرَ فيها ملوكًا في زي الفقراء وملائكة في زي الأنـــاسي. ثم اذهب إلى باريس وادخل في لجنة الأعاظم تَرَ فيها عقارب، تلبسوا بلباس الأناسي، وعفاريت تصوروا بصور الآدميين " [٢٣١].

---

[٢٢٧] المكتوبات ص ٥٧٤.

[٢٢٨] انظر المكتوبات ص ٥٧٥.

[٢٢٩] المكتوبات ص ٥٧٤.

[٢٣٠] المكتوبات ص ٥٧٥.

[٢٣١] من المثنوي العربي ص ١٨١

وكان الأستاذ يبين أنَّ قسمًا ضلَّ فانحاز إلى إنكار أهمية الولاية والطريقة، "فحَرَموا الآخرين من أنوار هم محرومون منها" [٢٣٢].

وأسف غاية الأسف من " أنَّ عددًا من علماء أهل السنة والجماعة الذين يحكمون على الظاهر، وقسمًا من أهل السياسة الغافلين المنسوبين إلى أهل السنة والجماعة، يسعون لإيصاد أبواب تلك الخزينة العظمى، خزينة الولاية والطريقة، متذرعين بما يرونه من أخطاء قسم من أهل الطريقة وسوء تصرفاهم" [٢٣٣].

وعَجبَ من أهم "يبذلون جهدهم لهدمها وتدميرها وتجفيف ذلك النبع الفياض بالكوثر الباعث على الحياة، علمًا أنه يندر أن يوجد في الأشياء أو في المناهج أوالمسالك ما هو مبرأ من النقص والقصور"[٢٣٤].

وقرر أنه " لا يمكن أن تدان «الطريقة» ولا يحكم عليها بسيئات مذاهب ومشارب أطلقت على نفسها ظلمًا اسم «الطريقة»" [٢٣٥].

ثالثًا– الخلاصة:

يتبين مما تقدم أنّ الأستاذ النورسي رحمه الله، صاحبُ منهج واضح في الطريقة والحقيقة، وأنَّ ما بلَغَنا عنه يشكِّل موردًا ثرًّا ومعينًا صافيًا، يحدونا إلى أن نجعل منه منهجًا للشباب، وأسوةً للكهول؛ لأنَّ حركة الفكر وكلمات العلم لن تكون فاعلةً في المجتمعات حتى تستمدَّ وقودها من أنوار التصوف وحقائقه، وعلى قادة الجماعات في العالم الإسلامي أن يدركوا ذلك، وأن يحولوه إلى ساحات التطبيق، والله ولي القصد.

---

[٢٣٢] المكتوبات ص ٥٧٣.

[٢٣٣] المكتوبات ص ٥٧٣.

[٢٣٤] المكتوبات ص ٥٧٣.

[٢٣٥] المكتوبات ص ٥٧٤.

رابعًا – المصادر والمراجع :

القرآن الكريم

إحياء علوم الدين ، الإمام أبي حامد الغزالي.

الجامع الصغير ، الإمام السيوطي.

الحكم العطائية ، أحمد بن عطاء الله السكندري.

السيرة الذاتية ، إحسان قاسم الصالحي.

الشمس المنتصرة ، آني ماري شيمل ، ترجمة د. عيسى علي العاكوب

الفتح الرباني للكيلاني ، عبدالقادر الجيلاني.

قواعد التصوف ، الشيخ أحمد زروق.

اللمعات، بديع الزمان سعيد النورسي ، ترجمة إحسان قاسم الصالحي.

لواقح الأنوار القدسية في العهود المحمدية ، عبدالوهاب الشعراني.

المثنوي العربي النوري ، بديع الزمان سعيد النورسي.

المكتوبات ، بديع الزمان سعيد النورسي ، ترجمة إحسان قاسم الصالحي .

منهاج العابدين ، الإمام الغزالي .

المواقف ، الأمير عبدالقادر الجزائري.

وصايا الإمام الشاذلي ، عن السوانح الكمالية ، مصطفى كمال الشريف .

يد العشق ، مولانا جلال الدين الرومي ، ترجمة الدكتور عيسى علي العاكوب .

الرمز الصوفي
بين جلال الدين الرومي وبديع الزمان النورسي

أ.د. حسن الأمراني
المغرب

لولا سعيد القديم ما كان سعيد الجديد.

كانت مرحلة سعيد القديم هي المرحلة التي تمكن فيها النورسي من العلوم والمعارف القديمة والحديثة التي جعلته معتدا بنفسه اعتدادا جعله يرفع على باب بيته تلك اللوحة الغريبة التي تقول: (هنا يجاب عن كل سؤال ولا يُسأل عن شيء). إنها مرحلة تذكرنا برحلات مماثلة لعلماء وفلاسفة ومفكرين ومتصوفة أفذاذ صنعوا التاريخ الفكري والفلسفي للإنسانية. هكذا كان حجة الإسلام أبو حامد الغزالي الذي بلغ في المدرسة النظامية ببغداد ما لم يبلغه أحد، وجاءته الدنيا وما فيها من جاه وشهرة ومجد دنيوي صاغرة، فإذا به يطلقها ويقبل في مرحلته الجديدة على ما فتح الله تعالى عليه من المعارف والعلوم، ويطبع الإنسانية بطابعه الخاص. وكذلك كان شأن النورسي الذي انتقل من سعيد القديم المعجب عن جدارة بما آتاه الله من علم، إلى سعيد الجديد الذي لم يعد يتفيأ بغير ظلال القرآن الوارفة التي ألهمته من الفيوضات الربانية ما تحار فيه الأذهان وتكل الألباب، وقد ضمت رسائل النور تلك الدرر التي غاص إلى بحارها القلب المتصل بمن له الخلق والأمر.

كان سعيد الجديد ربانيا لا رهبانيا، باحثا عن الحقيقة لا عن الطريقة، إلا أن تكون تلك الطريقة الوارد ذكرها في القرآن الكريم: (**وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً**) (الجن: ١٦)، فحير النورسي من بعده من الناظرين وهم يتساءلون: أكان بديع الزمان صوفيا صاحب طريقة؟ أم كان عدوا لأهل الطرق والزوايا والتكايا؟ أم كان يقف في المنـزلة بين المنـزلتين؟ وما الدليل على كل ذلك؟

والحق أن النورسي كان معجبا بالأئمة الأعلام الربانيين الموسومين بالتصوف، فأنت تجد من الثناء الجميل على الإمام الرباني، أحمد بن عبد الأحد السرهندي الفاروقي، وجلال الدين الرومي، ومحيي الدين بن عربي، وأبي حامد الغزالي، وأضراب هؤلاء ما يجعلك تظن بلا تردد أن النورسي على مذهب القوم وطريقتهم، ثم تجده ينكر من شطحات القوم وخرافاتهم وما يخالف عندهم السنة والكتاب ما يجعلك تحسب أنه وإياهم على طرفي نقيض. فإذا قادك الفكر الهادئ الرصين إلى التأمل عرفت أن النورسي صاحب مذهب خاص، وأنه صاحب منهج معتدل، فقد أخذ من المتصوفة ما يعين على تزكية النفس وتهذيبها، بل لقد استعان على شرح مذهبه بمصطلحات القوم وأسلوبهم الرمزي في تبليغ المراد، إلا أنه خالفهم كل المخالفة في كل ما ليس بكريم، فصار بذلك نسيج وحده في هذا الطريق، ولو شئنا الاستقصاء للتدليل على ذلك لطال بنا الوقوف مع أبواب متعددة من رسائل النور، ونحن إنما أردنا إلى شيء من الموازنة السريعة بين النورسي وجلال الدين الرومي في الأسلوب الرمزي لنتبين بعض مظاهر الائتلاف والاختلاف بين الرجلين من أجل تبين منهج النورسي في ذلك.

غير أن ذلك لا يعفينا من وقفة قصيرة عند بعض النصوص من رسائل النور، تكشف لنا عن دلالة التصوف عند النورسي من جهة، وعن الرمز الصوفي، باعتباره أداة تعبيرية مكثفة لجأ إليها الأدباء والمتصوفة للكشف عن أمور قد يكون التعبير المباشر عاجزا عن الإحاطة بما يرمي إليه ذلك الرمز، مقتصرين في هذه الدراسة على مجلدين اثنين من رسائل النور وهما: المكتوبات، والمثنوي العربي النوري.

إلا أنه لا بد من الإقرار بأننا ونحن نقف أمام كل من جلال الدين الرومي وبديع الزمان النورسي، نقف أمام بحرين عميقين، كل من يسعى إلى كشف أسرارهما يغرقه الموج في الساحل، كما يقول أبو الطيب، فكيف بمن يسعى إلى الأعماق، وهو ما لا نزعم بعضه هنا؟ وإنما هي رشفات، مثل تلك الرشفات التي كان يجد فيها بديع الزمان كل مقنع.

لقد جرت على قلم النورسي مصطلحات القوم، ومثال ذلك: الطريقة والحقيقة والسياحة والسلوك والمقامات والسعي والولاية والسير والقطب واليقين ووحدة الوجود ووحدة الشهود وغيرها.. وكل ذلك في أسلوب خاص لا يتخلى فيه عن منهجه وطريقته.

ولما كان النورسي ينطلق في مباحثه من القرآن الكريم، جعل مدخل حديثه إلى التصوف قوله تعالى: (**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**) (يونس: ٦٢) ليشرح مفهوم الولاية عنده فيقول:"هناك تحت عناوين التصوف، والطريقة، والولاية، والسير والسلوك، حقيقة روحانية نورانية مقدسة طافحة باللذة والنشوة، أعلن عنها كثير من علماء أرباب الكشف والأذواق وتناولوها بالدرس والتمحيص والتعريف، فكتبوا آلاف المجلدات حولها فأخبروا الأمة وأخبرونا بها، جزاهم الله خيرا كثيرا".[٢٣٦]

ويقول في الموضع نفسه: "فالطريقة والتصوف سر إنساني رفيع وكمال بشري سام".

ويثني على المواقف التاريخية لبعض الطرق فيقول: "وقد كانت الطرق الصوفية وما زالت إحدى القلاع الثلاث التي تتحطم على جدرانها الصلدة هجمات النصارى بسياساتهم ومكايد الذين يسعون لإطفاء نور الإسلام..".[٢٣٧]

إلى هنا يرى القارئ بديع الزمان مدافعا عن التصوف باستماتة حتى يكاد يظن أنه قد سلم لهم بكل شيء. ولكن مهلا... هاهو يسيج الأمر بسياج من الكتاب والسنة، ويحذر من الغلو والتطرف، ويبرأ من البدع والأباطيل, ولنستمع إليه قائلا، وهو يلجأ إلى أسلوبه المفضل من ضرب الأمثال: "إن مثل صاحب الشطحات كمثل ضابط صغير برتبة ملازم، تستخفه نشوة القيادة وأذواقها في محيط دائرته الصغرى، فيتخيل نفسه في لحظة انتشاء وكأنه المشير الذي يقود الفيالق والجحافل، فتختلط في ذهنه الأمور...الخ".[٢٣٨]

ثم يقول مبينا موقفه من وحدة الوجود ووحدة الشهود: "يعتبر وحدة الوجود التي تضم وحدة الشهود من المشارب الصوفية المهمة، وهي تعني حصر النظر في وجود واجب الوجود، أي إن الموجود الحق هو: واجب الوجود، سبحانه فحسب، وإن سائر الموجودات ظلال باهتة وزيف ووهم لا تستحق إطلاق صفة الوجود عليها حيال (واجب الوجود)، لذا فإن أهل هذا المشرب يذهبون إلى اعتبار الموجودات خيالا ووهما، ويتصورونها عدما في

---

[٢٣٦] المكتوبات ص ٥٧١

[٢٣٧] المكتوبات ص٥٧٤

[٢٣٨] المكتوبات ص٥٧٦

مرتبة ترك ما سواه، أي"نرك ما سوى الله تعالى"، حتى إنهم يتطرفون ويـــذهبون إلى حـــد اعتبار الموجودات مرايا خيالية لتجليات الأسماء الحسنى".[٢٣٩]

ثم هو يقدم القول الفصل في هذه الكلمات:"إن اتباع السنة النبوية المطهرة هو أجمـــل وألمع طريق موصلة إلى مرتبة الولاية من بين جميع الطرق، بل أقومها وأغناهـــا. والاتبـــاع يعني: تحري المسلم السنة السنية وتقليدها في جميع تصرفاته وأعماله، والاستهداء بالأحكام الشرعية في جميع معاملاته وأفعاله".[٢٤٠]

حيث يعتبر رسالة المثنوي العربي" نوع تفسير شهودي لبعض الآيات القرآنيـــة".[٢٤١] ويزيد الأمر بيانا في المكتوبات[٢٤٢] فيقدم شرحه الخاص لوحدة الوجود ووحدة الشـــهود فيقول عما سماه التلويحات التسعة: "هناك تحت عناوين التصوف والطريقة والولاية والســـير والسلوك حقيقة روحانية مقدسة، طافحة باللذة والنشوة، أعلن عنها كثير من علماء أرباب الكشف والأذواق... ونقصر الكلام هنا على ورطة خطرة قد يقع فيها قسم من الحـــائمين حول وحدة الوجود، وهي: إن هذا المشرب يصلح لأخص الخواص عند حالات الاستغراق المطلق، وللمتجردين من الأسباب المادية، ومن الذين قد قطعوا علاقتهم بما سوى الله مـــن الممكنات والأشياء". وهذه مبالغة في التحذير من مزالق هذا الطريق الوعر.

على أن أوضح ما قاله في هذا وأجلاه، مع الاختصار البليغ قوله في المثنوي: "ولكـــن مشرب أهل وحدة الشهود هو: الصحو والتمييز والانتباه، بينما مشرب أهل وحدة الوجود هو: الفناء والسكر. والمشرب الصافي هو مشرب الصحو والتمييز ".[٢٤٣]

فهل بعد هذا البيان من بيان؟

هذا والنورسي مع كل ذلك يستشهد في كلامه بأعلام التصوف ويحلي بيانه ببيـــانهم، ولاسيما الشعراء منهم، من أمثال مولانا جلال الدين وسعدي الشيرازي وعبـــد القـــادر الكيلاني وسواهم، بل هو يستعير منهم بعض لآلئهم مثلما صنع في المثنوي عندما اســـتعار

---

[٢٣٩] المكتوبات ص٥٧٩

[٢٤٠] المكتوبات ص٥٨١

[٢٤١] المثنوي العربي النوري ص٣٤

[٢٤٢] المكتوبات ص ٥٧١-٥٨٠

[٢٤٣] المثنوي العربي النوري ص٤٣٤

دعاء للشيخ الكيلاني ونادى بصوته عند باب مغفرة الله تعالى. ومن يطالع المكتوب التاسع والعشرين يبلغ المراد ويجد أن بديع الزمان في بابه هذا شفى واشتفى.

فماذا عن الرمز الصوفي عند النورسي؟

لسنا بحاجة إلى جهد كبير من أجل أن نتبين سلوك النورسي مسلك شعراء التصوف في اللجوء إلى الرمز الصوفي للتعبير عن المراد. إلا أن الذي يجب أن يلتفت إليه هو الخصوصية التي ميزت النورسي عن أعلام التصوف من الشعراء، وهذا ما نسعى إلى الوقوف عند من خلال البحث عن مظاهر الائتلاف والاختلاف بين النورسي وجلال الدين الرومي.

وقف أهل التصوف من قضية التعبير عن مواجدهم ومقاماتهم ومشاهداتهم ثلاثة مواقف: موقف البوح الصريح، وموقف الكتم الصريح، وموقف البوح الرمزي المبطن الذي يعبر القوم به عما يريدون، يفهم عنهم المراد من كان على شاكلتهم، ويدرءون عنهم العامة الذين يقنعون بظاهر من القول، فيجدون في مملكة التأويل ملاذا يعصمهم من أن يصرفوا جواهرهم لكل عارض، ويبلغون في الوقت ذاته ما يريدونه إلى أهل طريقتهم، ولا يحرمونهم من لذائذ المشاهدة.

فأصحاب الرمز "وإن كانوا يبوحون بما عندهم، إلا أنهم يستخدمون لغة خاصة من الرمز لا يفهمها عنهم إلا المشاركون لهم في المنزلة، والمدانون لهم فيها". [٢٤٤]

ولقد ساعدهم على ذلك أن التعبير الرمزي ليس طارئا، بل هو قديم، حتى إن هناك من يجعل التعبير الرمزي هو الفيصل بين التعبير الأدبي وغيره من ألوان التعبير. أليس العدول عن الحقيقة في التعبير، والجنوح إلى المجاز وصوره التشبيهية والكنائية والاستعارية رمزا؟

ألم يتخذ الشاعر العربي القديم الحديث عن النخلة والبانة والقمر والشمس والظبية والمهاة سبيلا على التغزل الرمزي، هروبا من التصريح باسم المرأة، إما لظروف اجتماعية كانت تقضي بالحيلولة بين المرأة ومن تغزل بها، وإما لأسباب فنية خالصة؟ فما الذي صنعه المتصوفة إذن غير التوسع في هذا الباب؟ أليس هذا هو ما أشار إليه ابن عربي في مقدمة (ذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق)؟

---

[٢٤٤] نظرية الاتصال عند الصوفية: د. سارة بنت عبد المحسن آل سعود، ١٠٤

ولكن لماذا جلال الدين بالذات؟

لأنه الشاعر الذي أكثر النورسي من ذكره، وتأثر به وبأسلوبه، وحسبنا أن يظهر ذلك الأثر جليا في أن يصرح النورسي بذلك وهو يكتب كتابه القيم: (المثنوي العربي النوري) الذي يذكرنا بالمثنوي الشهير لجلال الدين، هذا الكتاب الذي يعد الغرس الأولي لرسائل النور.

ومع ذلك كله، وبالرغم من الاستفادة الجليلة والجلية التي استفادها النورسي من جلال الدين، ومن أسلوب الرمز الصوفي عنده بخاصة، حتى إن القارئ المتعجل قد يحكم بأن بديع الزمان يستنسخ المثنوي الفارسي، عندما يرى الرموز نفسها عند الرجلين، إلا أن شخصية بديع الزمان تظل متميزة عن مولانا جلال الدين تميزا يكشف عن استقلال شخصيته من جهة، وعن شدة تمسكه بالهدي النبوي الكريم الذي لا يبيح له أن يتجاوز في استعمال الرمز ما يخدش العذراء في خدرها، ولو متذرعا بما يسمح به التأويل، من جهة أخرى. فهو لا يريد أن يضع نفسه الموضع الذي وجد بعض (العارفين) أنفسهم فيه، حتى اضطروا إلى وضع شروح لآثارهم يدفعون بها ما عسى أن يتأوله المتأولون، كالذي صنعه محيي الدين ابن عربي مع ديوانه: (ترجمان الأشواق) وشرحه: (ذخائر الأعلاق)،حيث يقول: "والله يعصم قارئ هذا الجزء وساير الديوان من سبق خاطره إلى ما لا يليق بالنفوس الأبية، والهمم العلية، المتعلقة بالأمور السماوية آمين".[٢٤٥]

وسنعرض لبعض صور الإتلاف والاختلاف بين الرجلين، انطلاقا من المثنوي لجلال الدين الرومي، في ترجمته العربية، والمثنوي العربي النوري لبديع الزمان سعيد النورسي.

وقد بدا معالجة ذلك من خلال ما يلي:

الائتلاف والاختلاف:

- هنالك رموز بعينها ترد عند الرجلين، ومن ذلك: الشمس، المرآة، المرأة، الطيور، كالطاووس والديك والبط والنعامة الخ.. والحيوانات كالأسد والكلب والظبي الخ.

---

[٢٤٥] المكتوبات ص١٧٥

المـــرآة: وصورة المرآة أثيرة عند المتصوفة، وهي حاضرة أيضا عند النورسي بقوة. ومما يقوله الرومي في ذلك: "بيان اتحاد العاشق والمعشوق على وجه الحقيقة بالرغم مـــن انهمـــا متناقضان تناقض الاحتياج والاستغناء، كالمرآة الخالية ولا صورة فيها، وانعـــدام الصـــورة متناقض مع وجودها، لكن بينهما اتحادا في الحقيقة يطـــول شـــرحه، والعاقـــل تكفيـــه الإشارة".[٢٤٦]

والنورسي رحمه الله تعالى مولع بضرب الأمثال بالمرآة، سواء أتعلق الأمر بالأمور المادية أم المعنوية.[٢٤٧]

الحيوان والطير: كثيرا ما يكون المنطلق عند الرجلين مـــن كتـــاب الله تعـــالى، مـــع الاحتفاظ ببعض الخصوصيات، فالرومي مثلا يفسر قوله تعالى: ﴿**فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّـــنَ الطَّيْـــرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ**﴾ (البقرة:٢٦٠) بهذا التمثيل: "فاقطع رءوس هذه الطيور الأربعة، واجعـــل العمر العابر سرمديا.

إنها البط والطاووس والغراب والديك، إنها مثال على هذه الخصال الأربعة في النفوس.

فالبط هو الحرص، والديك هو الشهوة، والجاه كالطاووس، والغراب هو الأمنية".[٢٤٨]

هذا هو الذي عنيناه باللجوء إلى الرمز ثم شرحه. فقد أوجز الرومي الرمز في الطيـــور الأربعة، ثم شرح الرمز بأن جعل كل طائر دالا على معنى بعينه.

والديك عنده دائما رمز للشهوة حتى إنه يقول عنه: "إنه شهواني، شـــديد في عبـــادة الشهوة، وهو ثمل من ذلك الشراب المسموم الذي لا قيمة له".[٢٤٩]

وكذلك يستعمل النورسي الطيور رمزا إلى المراد. النفس مثلا عنده نعامة[٢٥٠]

---

[٢٤٦] مثنوي مولانا جلال الدين الرومي: ترجمه وشرحه وقدم له: د. ابراهيم الدسوقي شتا،١٩٩٦ ، الكتاب الخامس ص ٢٢٤

[٢٤٧] يراجع/ النورسي أديب الإنسانية، ٢٦وما بعدها

[٢٤٨] الكتاب الخامس ص ٤٨ ،٤٩

[٢٤٩] الكتاب الخامس ص ١٢٩

[٢٥٠] المثنوي العربي النوري ص٣٠١

ولقد بينت في مكان آخر منهج النورسي في شرح الرمز، ولا بأس من إعادة ذلك هنا للأهمية:

"حين يستعمل النورسي الأسلوب الرمزي لا يضل قارئه ولا يتركه في متاهة، بل هو يأخذ بيده في رفق إلى نور الحق حتى تتكشف عن بصيرته غشاوة الضلالة والأوهام. فالرمز إذن ليس هدفا، بل هو وسيلة من وسائل التعبير التي لا ينبغي أن تعدو مهمتها. فانظر إليه – إن شئت – وهو يقول:"كيف السكون إلى الدنيا بالوجه الثالث والفرح بها"، فإنك تحس بأنه ينعى الإقبال على الدنيا، ولكنك تتساءل:بالوجه الثالث؟ ولكن كم للدنيا من وجه؟ وما دلالة كل وجه؟ إن التحير من مقومات الكشف، لأنه يفتح باب الأسئلة التي هي أسئلة حرجة من دون شك، إلا أن قيمتها تنبع من أنها أسئلة حقيقية. إن هذا التحير إذن ليس غير مرحلة في الطريق، ولذلك يجيء الجواب بعد ذلك سهلا رخاء، فيقول:"إن الدنيا لها وجوه ثلاثة..".[٢٥١] وهو يفصل للقارئ حقيقة هذه الوجوه الثلاثة وطبيعتها.

وكما سبق الذكر فإن النورسي لا يوغل في الرمز حين يستحضر تلك الطيور، وربما استفاد مما يلاحظه من واقع حياتها. فلنستمع إليه وهو يقول: "ثم انظر إلى الحيوانات كيف تلتذ بوظائفها، ألا ترى الديك مثلا: كيف يؤثر الدجاجات على نفسه في دعوتها إلى أكل ما رآه من الغذاء ولا يأكل هو؟ ويرى من طوره أنه يفعل هذا بالشوق والتلذذ والافتخار".[٢٥٢]

– **العشق ودلالاته**: ولأن الرومي يوغل أحيانا في الرمز يجد نفسه مدعوا إلى التنبيه لرفع الالتباس، ومن ذلك قوله: "وإن شرح أحوالك مع أهل الدنيا يكون من قبيل الغبن، فلأكتمه في داخلي كأنه سر العشق".[٢٥٣]

ويقول أيضا: "بيان اتحاد العاشق والمعشوق على وجه الحقيقة، بالرغم من أنهما متناقضان تناقض الاحتياج والاستغناء، كالمرآة الخالية ولا صورة فيها، وانعدام الصورة متناقض مع وجودها، لكن بينهما اتحادا في الحقيقة يطول شرحه، والعاقل تكفيه

---

[٢٥١] النورسي أديب الإنسانية: ص٣٦

[٢٥٢] المثنوي العربي النوري ص٢٧٥

[٢٥٣] الكتاب الخامس ص ٤٦

الإشارة."(٢٥٤) وتحت هذا الكلام يورد قصة للمجنون، يربط فيها بين مرض الشوق وبين ما يلحق الأجساد من أمراض، فيقول:

"اشتكى المجنون مرضا في جسده فجأة من جراء الفراق والهجر.
لقد جاش دمه من لهيب الشوق، فظهرت عليه أعراض مرض الخناق.
وجاء الطبيب ليداويه، فقال: لا بد من فصده.
ينبغي فصده من أجل دفع الدم، واستدعى فصادا بارعا في صنعته.
فربط ساعده، وأمسك بمبضعه، فصاح به ذلك العاشق على الفور بطبعه.
وقال:خذ أجرك، ودعك من الفصد.وإذا مت قل للجسد الذي اهترأ: ألا فلتمض.
فقال له: ما الذي تخشاه آخر الأمر من هذا؟ إنك لا تخاف من أسد العرين.
فالأسد والذئب والدب، وكل حمار وحش ووحش، قد تجمعت حولك طوافة بالليل.
فهي لا تشم فيك رائحة بشر، من فرط الوجد والعشق الذي أدمى كبدك.
إن الذئب والدب والأسد تعلم ما هو العشق، وأقل من كلب ذلك الذي لا يبصر العشق.
فإن لم يكن في القلب عرق من العشق، فمتى كان كلب أصحاب الكهف باحثا عن "أرباب"القلوب؟
وهناك كلاب كثيرة على شاكلته في هذه الدنيا، وإن لم تنل شهرته.
وإنك لم تفهم النزر اليسير عن قلب من هو من جنسك، فمتى تعرف شيئا عن قلوب الذئاب والنعاج؟
فإن لم يكن عشق، متى كان الوجود يصبح الوجود وجودا؟ ومتى تبدل الخبز إلى وجودك أنت؟
فمن أين صار الخبز لك؟من العشق والاشتهاء، وإلا متى كان للخبز طريق إلى الروح؟
إن العشق هو الذي يجعل الخبز الميت روحا، وهو الذي يجعل الروح الفانية خالدة.
قال المجنون: إنني لا أخاف من المبضع، بل إن صبري عليه أكثر من الجبل الراسخ.
وأنا مشرد لا يستريح جسدي دون جراح، إنني عاشق أحوم حول الجراح.
لكن وجودي ممتلئ بليلى، وهذا الصدف ممتلئ بذلك الدر.

(٢٥٤) الكتاب الخامس ص ٢٢٤

وأخاف أيها الفصاد إن قمت بفصدي، أن يخز مبضعك ليلى فجأة.

ويعلم دلك العاقل الذي نور قلبه، أنه لا فرق هناك بيني وبين ليلى".

وفي نسخة: فمن أكون أنا؟ أنا ليلى، ومن ليلى؟ هي أنا، نحن روح واحـــدة ســـكنا بدنين".[٢٥٥]

إن هنا أمورا يثيرها هذا النص نشير إليها هنا:

١- إن حضور المرأة في التراث الصوفي قاسم مشترك، وعادة ما يستند أهل التصـــوف على التراث الغزلي، ويعطونه بعدا رمزيا، حتى إنك تجد عندهم حديثا عن ليلى وابن الملوح، وكل ذلك عندهم يأتي بسبيل الرمز، مع تفاوت واضح فيما بينهم. فمنهم مـــن يكتفـــي باللمح والإشارة، ويكتفي في الاستفادة من التراث الغزلي ببعض الإشـــارات، كاســـتعارة الأسماء أو الأماكن، ومنهم من يوغل حتى لا تكاد تفرق بينه وبين أي شاعر غزلي، وهـــذا هو ما حدا ببعضهم إلى الاعتذار أو أن يقدم بين يدي القارئ ما يزيل الإشكال، كما رأينا من قبل عند ابن عربي.

وهاهو جلال الدين يستعير شخصية المجنون للتعبير عن آرائه في فلسفة الوجود.

٢- إن جلال الدين وإن استعار شخصية المجنون، إلا أنه لا علاقة البتة بين المجنـــون كما تصوره الرومي، وبين صورة المجنون التاريخية، ولا حتى الصورة الأدبية التي يختلط فيها الواقع بالأسطورة كما تجسدت في أثر مثل أغاني الأصفهاني.

إن المجنون كما صوره الرومي شخصية روحانية، والعشق الذي يتحدث عنه عشـــق فوق بشري، وما ذلك إلا ليصلح رمزا معبرا عن أراء جلال الدين الصوفية.

٣- يعود الرومي إلى قصة ليلى والمجنون مرة بعد مرة لتجدد المعاني التي يريد تبليغها، وقد تكون القصة أحيانا مدخلا إلى سلوك طريق الحق، كما في هذا النص:

"قال الخليفة لليلى: أهي أنت التي صار المجنون بسببها مضطربا وغويا؟

إنك لا تزيدين شيئا عن بقية الحسان. قالت: اصمت، فلست بالمجنون".[٢٥٦]

---

[٢٥٥] الكتاب الخامس ص ٢٢٤ـــ٢٢٥

[٢٥٦] الكتاب الأول ص ٧١

وهذه القصة تنظر إلى قصة بثينة التي قال لها الخليفة الأموي: أأنت هي التي تغنى بك جميل. ما أراك كما قال. فقالت: لقد رآني بعينيه، لا بعيني أمير المؤمنين.

٤- إن استناد الرومي على الثقافة الإسلامية لتقوية مراده واضح، فلذلك لم يعد العشق وقفا على البشر، بل تعداهم إلى الحيوانات، من الذئب والأسد والدب والكلب، وقد وجد في كلب أهل الكهف ما يقوي به مذهبه. فكلب أهل الكهف ما كان له أن يكون باحثا عن أصحاب القلوب لو لم يكن قد امتلأ عشقا. وبذلك وحده صار له مكانة متميزة عن غيره من الكلاب.

٥- ليس بالخبز وحده يحيى الإنسان. الخبز غذاء الجسد، ولكنه لن يكون في يوم من الأيام طريق إلى الروح، ولا سبيلا إلى ارتقاء الروح من درجة الفناء إلى درجة الخلود.

٦- هذا النص يقوم دليلا واضحا على قول جلال الدين لا بوحدة الشهود فقط، بل بوحدة الوجود. فالعاشق ممتلئ بالمعشوق، بل هو هو. فلذلك خشي المجنون من الفصاد أن يخز ليلى، إن هو سمح له بفصد جسده. إنه يحتمل الداء الذي يعاني منه على أن يصاب المحبوب بأدنى وخز أو أقل أذى.

وإذا كان هنالك من قال:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا

فإن جلال الدين يقول: " نحن روح واحدة سكنا جسدين"، وذلك أبلغ في التعبير عن وحدة الوجود.

٧- على أن هنا أمرا لا ينبغي أن يفوتنا، وهو رمزية المرأة.

لقد استعار الرومي قصص بعض العشاق للتعبير عن مراده، كقصة ليلى والمجنون، وقصة شيرين وخسرو، ومن الطبيعي أن يكون للمرأة حضور من خلال هذه القصص حتى وإن اتخذت طابعا رمزيا.

ليست صورة المرأة واحدة عند جلال الدين. إن هنالك صورتين متناقضتين تماما: صورة المرأة المثال، من حيث هي كينونة خالقة، ومنبع للخصب، وصورة المرأة الشهوانية التي لا تتورع عن الانحدار إلى الدرك لتحقيق رغباتها.

أما النورسي فقلما لجأ إلى توظيف المرأة، وإن أكثر الحديث عن العشق، إذ العشق عنده ذو دلالة خاصة. فهو يتحدث عن (العشق السديد)، في مقابل العشق الضال، ويقول: "اعلم أن العجز كالعشق طريق موصل إلى الله، بل أقرب وأسلم".[٢٥٧] كما يتحدث عن (العشق الصادق) مقابل العشق الكاذب, والعشق الحقيقي مقابل العشق المجازي. إن"الحسن يستلزم نظر العشق" [٢٥٨]، والحسن الحقيقي مشير على الجمال المجرد الباقي، لا إلى الجمال الفاني، تمييزا له عن"الحسن العرضي"[٢٥٩]،الذي ليس غير إشارة على الحسن الذاتي.

"وما يُرى في خد الكائنات من"الجمال الحزين" المنعكس المرمز إلى وجوب وجود ذي الجمال المجرد..

وما يُرى في قلبها من "العشق الصادق" المنادي على المحبوب الحقيقي.

وما يُحَسّ به في صدرها من "الانجذاب والجذبة" الملوحين بالحقيقة الجاذبة التي تنجذب إليها الأسرار..

وما يُسمع من كلّ الكُمّلين من شهادهم" بمشاهدهم كون كل الأكوان ظلال أنـــوار ذات واحدة..

آياتٌ نيرات..".[٢٦٠]

هكذا إذن يكون الحديث عن العشق عند النورسي، فلا أثر فيه للخلط بين ما هـــو إلهي وما هو بشري..وهو منهج خالف فيه شعراء المتصوفة الذين أكثروا من ذكر النســـاء، حتى ولو صرحوا بأن ذلك ليس غير رمز..

التشابه الحكائي: يعتمد كل من الرومي والنورسي على سوق الحكايـــات وضـــرب الأمثال، ومثنوي جلال الدين يكاد يكون الحكي ميسمه الغالب، بينما يلجأ النورســـي إلى الحكي عند الضرورة. ولكل ميسمه. إلا أن هنالك مرجعية واحدة في بعـــض الأحيـــان، فحكاية (البلبل والوردة) مثلا، وهي حكاية متداولة منذ القديم في الشرق والغرب، يلجـــأ

---

[٢٥٧] المثنوي العربي النوري ص٣٣٩

[٢٥٨] المثنوي العربي النوري ص٣١٠

[٢٥٩] المثنوي العربي النوري ص ١١٧

[٢٦٠] المثنوي العربي النوري ص١١٨

كل من الرجلين العارفين إلى استسثمارها في المثنوي استثمارا يكشف عن منهج كل واحد وخصوصيته.

ففي المثنوي للرومي نقرأ ما يلي: "أيها العاشق، لقد حل العشق بروح طور سيناء، فثمل الطور، وخرّ موسى صعقا.

وأنا لو كنت قريبا للحبيب، لكنت كالناي، أبوح بما ينبغي البوح به.
لكن كل من افترق عمن يتحدثون لغته، ظل بلا لسان، وإن كان لديه ألف صوت.
والورد عندما مضى أوانه وماتت روضته، فلن تسمع البلبل يروي سيرته.
والكل معشوق، والعاشق مجرد حجاب، والمعشوق حي، والعاشق إلى موت.
ولو لم يقم العشق برعايته، يبقى كطائر بلا جناح، ويل له.
فكيف يكون لي علم بما أمامي وبما ورائي، إن لم يكن نور حبيبي أمامي وورائي؟
إن العشق يريد أن يصدر مني هذا الشعر، وإن لم تكن المرآة منبئة، فماذا تكون؟
أتدري لماذا لا تنبئ مرآتك. ذلك لأن الصدأ لم يجل عن وجهها".[٢٦١]

كل الاحتمالات إذن قائمة في نص الرومي، وباب التأويل مشرع، وإن كانت الإشارة إلى الطور، وإلى أن المعشوق حي لا يموت، توجه ذلك التأويل وجهة تنسجم مع الدلالات الروحية التي يرمي إليها الرومي، دون أن يصرح بها.

أما النورسي فقد تكررت عنده قصة البلبل، أو العندليب، والوردة أكثر من مرة، ومع ذلك كان النورسي فيها واضحا، موجها قارئه إلى المراد، وإذا كان العندليب دائما رمزا للعاشق والوردة رمزا للمعشوق، فإن عندليب الكون ليس غير الحبيب المصطفى، صلى الله عليه وسلم.[٢٦٢]

وحدة المرجعية: ما لا شك فيه أن القرآن الكريم كان المرجعية الأولى عند كل من الرومي والنورسي، فلذلك لم يكن عجبا أن تتماثل بعض التشبيهات، وتتماثل بعض الحكايات التي تستند إلى القرآن الكريم باعتباره المرجعية الأولى.

---

[٢٦١] الكتاب الأول ص ٣٧،٣٨

[٢٦٢] ينظر بحث شعرية النص في المثنوي العربي النوري، ضمن كتاب: النورسي أديب الإنسانية

يقول الرومي :"كانت هناك مائدة من السماء، بلا شراء ولا بيع ولا مساومة أو قيل وقال.

وكان هاك عدد من معدومي الأدب من قوم موسى، فقالوا: أين الفوم والعدس؟

فانقطعت مائدة السماء وخبزها، وبقي لنا شقاء الزراعة والفأس والمنجل".[٢٦٣]

ويقول النورسي:"اعلم أن القرآن أنـزل، وأنـزلت به مائدة سماوية، يوجد فيها كل أنواع ما تحتاج إليه طبقات نوع البشر المتفاوتين في اشتهاء الأفهام.. في المائدة أطعمة مترتبة، قُدم أولا في وجه السّفرة الإلهية رزقُ الأكثر المطلق والجمهور الأعظم، أي العوام..". [٢٦٤]

إن مائدة جلال الدين ما تزال مائدة مادية، يراد من ورائها تصوير عاقبة الجحود والكفران، إلا أن نلتمس تأويلا بعيدا. أما النورسي فقد نقلها من المادة إلى الروح، وجعلها مائدة قرآنية، مبذولة للبشر جميعا، ثم إنه ينال منه كل واحد من البشر بقدر استعداده وجهاده..

ونسوق في ختام هذه الكلمة خلاصات تبين لنا وجوه الائتلاف والاختلاف بين الرجلين:

١- إن بديع الزمان معجب أيما إعجاب بجلال الدين، إلا أنه إعجاب لا يمحو شخصيته بقدر ما يثبتها.

٢- إن المثنوي لجلال الدين ديوان منظوم، بينا اختار النورسي النثر للمثنوي العربي النوري. إلا أن الروح الشعرية غالبة على الرجلين.

٣- إن بديع الزمان يلجأ إلى الرمز الصوفي وسيلة لتجلية الأفكار، كالسالفين، إلا أنه يمتاز عنهم بأنه كان لا يوغل في الرمز، بل يلزم الاعتدال في كل شيء.

٤- إن النورسي وهو يتحدث عن العشق لا ينقاد على الحديث عن المرأة ومحاسنها، وهو في مقابل ذلك يعطي الوجدان حقه، ومن ذلك قوله:"إن الوجدان لا ينسى الخالق

---

[٢٦٣] الكتاب الأول ص٤٣

[٢٦٤] المثنوي العربي النوري ص٢٢٣

مهما عطل العقل نفسه وأهمل عمله، بل حتى لو أنكر نفسه. فالوجدان يبصر الخالق ويراه، ويتأمل فيه ويتوجه إليه، والحدس – الذي هو سرعة انتقال في الفهم – يحركه دائما. وكذا الإلهام – الذي هو الحدس المضاعف – ينوره دائما. والعشق الإلهي يسوقه ويدفعه إلى معرفة الله تعالى. ذلك العشق المنبعث من تضاعف الشوق المتولد من تضاعف الرغبة الناشئة من تضاعف الميلان، المغروز في الفطرة".[٢٦٥]

٥- إن الرمز الصوفي عند بديع الزمان وسيلة للكشف والوضوح، بينما هو جلال الدين وسائر المتصوفة وسيلة للكتم والستر، وهذه حقيقية ذات أهمية قصوى. إن منهج الرومي يعبر عنه قول ابن عجيبة: "قد يرخص للعارف الماهر إلقاء الحقائق مع من لا يعرفها بعبارة رقيقة، وإشارة لطيفة، وغزل رقيق، بحيث لا يأخذ السامع منها شيئا".[٢٦٦]

فالعبارة عند القوم إذن ليست وسيلة بيان وكشف بل هي وسيلة تضليل وكتم، وهي ليست عبارة على الحقيقة بقدر ما هي إشارة.

أما النورسي فلا يرى في الرمز فائدة إن لم يكن وسيلة إلى كشف المعنى وهتك حجابه، مع الأخذ بعين الاعتبار أنه "لا يلزم من لزوم صدق كل قول قول كل صدق" وأنه "إذا وقع المجاز من يد العلم إلى يد الجهل ينقلب إلى حقائق مادية، ويفتح الباب إلى الخرافات".[٢٦٧] ومما يدل على أن الرمز عند بديع الزمان طريق للكشف قوله في المكتوبات "نحاول أن ننظر إلى هذه الحقيقة العظمى من بعيد، فهي حقيقة واسعة جدا، وعميقة جدا، لنرى الحقيقة بوضوح، فنبين الداعي والمقتضى لها في خمسة رموز، ونبين الغايات منها في خمس إشارات".[٢٦٨]

فالرموز والإشارات إذن طريق على الكشف ووسيلة إلى الوضوح.

---

[٢٦٥] المثنوي العربي النوري ص٤٣١

[٢٦٦] "إيقاظ الهمم في شرح الحكم،١٤٥، أوردته د.سارة بنت عبد المحسن آل سعود في كتابها: نظرية الاتصال عند الصوفية في ضوء الإسلام/ ص ٢٢٠"

[٢٦٧] المكتوبات ص٦٠٦

[٢٦٨] المكتوبات ص ٣٦٧

٦- إن الرومي يمجد السُكر، والنورسي يمجد اليقظة. فجلال الدين يقول بصريح العبارة:"إن اليقظة في طريق العشق أمر سيئ"[٢٦٩]، أما النورسي فقد رأينا من قبل كيف أنه يرى الصحو أفضل من السُكر.

٧ - إن الرومي يوغل في الرمز، حتى إنه يجعل فرعون سالكا، كما كان موسى أيضا سالكا، ذلك بأن موسى وفرعون كليهما مسخر للمشيئة كالسم والترياق والظلمات والنور. إنه يقول:"موسى وفرعون كلاهما بالنسبة للمعنى سالك، والفرق أن ذلك يجد الطريق بينما يضل هذا.

كان موسى شاكيا إلى الله في نهاراً، بينما كان فرعون باكيا في جنح الليل.
مناجيا: يا إلهي، أي غل هذا في عنقي؟ وإن لم يكن ثم غل فمن يجرؤ على قول هاأنذا؟
وذلك أنك غمرت موسى بالنور، ومن ذلك، جعلتني مظلما كدرا.
وذلك أنك جعلت موسى قمري الوجه، وجعلت قمر روحي اسود الوجه.
ونجمي لم يكن بأفضل من القمر، وما دام الخسوف قد حل ، فأية حيلة لي؟".[٢٧٠]

إن جلال الدين، في هذا النص على الأقل، يقول بالجبرية. أما النورسي فقد عاش ينفي الجبرية في كل مؤلفاته.

٨ - يشترك الرومي والنورسي في بعض الرموز، ثم يستقل كل واحد منهما بطريق، كما رأينا في استعمال كل واحد منهما للمائدة المنزلة من السماء، وقصة البلبل والوردة.

٩ - يتميز النورسي بأنه يبتدع حكاياته، وينشئ رموزه الخاصة في كثير من الأحيان، مما يدل على ملكة خاصة وموهبة متميزة.كما أنه يتميز بضرب الأمثال من الواقع الذي يعيشه، بل من سيرته الذاتية. ومعلوم أن النورسي كان جنديا وشارك بنفسه في الحروب، فلذلك جاءت كثير من الأمثال شديدة الصلة بهذه الحياة.

لنستمع إليه وهو يقول، مستنبطا التشبيه من الواقع: "كهذا الكتاب، يكتب بقلم واحد، مع أنه لا يطبع إلا بحديدات مصنوعة، موضوعة تحته عدد حروفه".[٢٧١]

فهذا التشبيه لا يمكن أن يرتد إلى أبعد من زمن النورسي، زمن انتشار الطباعة.

---

[٢٦٩] الكتاب الأول ص٧١-٧٢
[٢٧٠] الكتاب الأول ص٢٣٣-٢٣٤
[٢٧١] المثنوي العربي النوري ص٢٢٥

ويقول:

"اعلم أنه إن قيل: إن الجود المطلق والرزق بلا حساب يلائمان العبثية، وينافيان الحكمة من جهة؟ يقال له:

نعم، إن انحصرت الغاية في الواحدة، مع أن لكل شيء لا سيما حيّ، غايات متعددة وثمرات متنوعة ووظائف مختلفة. ألا ترى أن للسانك وظائف بعدد شعر رأسك؟ فالجود باعتبارٍ غاية بلا حساب، وباعتبار وظيفة لا ينافي الحكمة. والعدالة في وجوده الناظر إلى مجموعِ الغايات والوظائف، كالعسكر المستخدم في تعقيب ذي جناية أو في حماية قافلة مثلا، ففي العسكر كثرة وجود بلا حساب بالنسبة إلى أمثال هذه الخدمات الجزئية مع القلة والمساواة لما يلزم لحفظ الثغور والحدود وسائر الغايات".[٢٧٢]

١٠ – إن قيل: أين هذا الذي ذكر من الرمز الصوفي؟ قلنا: أليس الرمز الصوفي ابتداء كان مما عهده الناس من الغزل البشري؟ أوليس الغرض من الرمز الصوفي التعبير بالإشارة عن الحقائق الكبرى التي يعجز الكلام المألوف عن التعبير عنها؟ فإن كان الأمر كذلك، وإنه لكذلك إن شاء الله تعالى، فمن الذي يمنع المبدع من أن تكون له رموزه الخاصة، ما دامت تؤدي الغرض؟ بل إن من دلائل العبقرية أن يوفق الأديب على رموزه الخاصة التي يتمكن من خلالها من التعبير أو الإشارة على ما يريد. فهذا إذن لا يقدح في بديع الزمان، بقدر ما يشهد به بالتفرد والإبداع، وأنه كان حقا بديع زمانه.

– تفسير الرموز، وهو منهج يلجأ إليه كل من الرومي والنورسي، ولكن مع بعض صور الاختلاف كما سنرى إن شاء الله تعالى.

– ضرب الأمثال وسرد الحكايات الرمزية

الاختلاف:

– التعفف في ضرب الأمثال وسرد الحكايات عند النورسي، والالتزام بآداب الإسلام، حيث نجد في مثنوي جلال الدين حكايات غريبة هي من قبيل الشطحات التي لا يقبلها المسلم العادي، فضلا عن الملتزم والمحترس، وبعض تلك الحكايات قد تدفعنا إلى الشك في

---

[٢٧٢] المثنوي العربي النوري ص٣٥٦"

نسبتها إلى جلال الدين، لبذاءتها وتهتكها، ولعلها مما نسب إلى الرومي، إلا أنها موجودة في ديوانه، وقد نــزه بديع الزمان مثنويه العربي من كل ذلك، ما ينسجم مع منهجه العام.

ولنا في القرآن الكريم المثل الأعلى. لقد حدثنا عن الفاحشة وعن عمل أهـل لـوط، ولكن باللمح الكريم الذي يجعلنا نستنكر عمل القوم، ولكن بأسلوب كريم لا تستحي منه العذراء في خدرها.

على أنه من المفيد الإشارة إلى أنه يجب إعادة قراءة الرومي بأعيننـا نحـن لا بـأعين الغربيين، كما أوضح ذلك د.إبراهيم الدسوقي شتا مترجم المثنوي إلى العربية حيث قـال: "إن الغرب قدم لنا جلال الدين الرومي التائه، المغرب في الحديث عـن وحـدة الوجـود ووحدة الشهود لكي يصرفنا عن الاستفادة منه".[٢٧٣]

ومعلوم أن النورسي لم يهوم في هذه القضية، وهو على العموم ليس من القائلين بوحدة الوجود، وإن كان يميل بعض الميل إلى وحدة الشهود،كما رأينا من قبل.

الطريق النوري في التربية والسلوك

[٢٧٣] الكتاب الخامس ص٣٤، الهامش٣

الأسس و المميزات

أ.د. عمار جيدل
كلية العلوم الإسلامية
جامعة الجزائر

ملخّص الورقة:

التربية الإيمانية وسيلة العروج إلى الإنسانية الحقّة المستفادة من رباط العبودية لله تعالى، فتحرر الإنسان من الحيوانية، ذلك أنّه بعث لتكميل النفس البشرية بما ييسّر لها الارتقاء إلى الصورة الإنسانية بخلاف الحيوان الذي بعث باستعدادات كاملة مجهّز بها من عالم آخر.

وما دامت التربية الإيمانية وسيلة للرقي إلى مصاف اكتشاف الفقر والعجز بما يوجد دافعية الفعل المعبّر عن العبادة، ويتعهّدها بالصيانة، بما يحقق في النفس من جذوة شوق تبقى متّقدة ما بقي الشعور بالعجز والفقر حيين في النفس البشرية، وذلك معدن العبودية، وهو مثمر للشفقة ومنتج لآثارها الاجتماعية، وطريق اكتشاف ذلك الأصل، التفكّر الإيماني المحدد الأصول المضبوط الساحة، وبذلك التحديد يتحرر الفكر من عبثية المساعي ويفكّ أسر النفوس من الأنانية والاستكبار، وما شابهه من الأمراض النفسية والمعرفية والاجتماعية...

تلك هي الخطوط العريضة للطريق النوري في التربية والسلوك، ويطرح بهذا الصدد سؤال، يدور على جوابه، تحقيق القول في حقيقة الطريق النوري وأسسه ومميزاته، ثم اكتشاف منزلته بين سائر الطرق التربوية وفق الدلالات المتداولة عند الصوفية[٢٧٤]

مدخل:

---

(١) غني عن التأكيد بهذا الصدد أننا نستعمل الدلالات الشائعة وليس من قبيل الإقرار بأن مسلكه يمثّل طريقا صوفيا وفق الصيغ المعروفة، بل يحمل بين طياته الإقرار بأن جهوده تعد استئنافا سننيا لجهود المتصوّفة من جهة والمفسرين التربويين من جهة أخرى بصبغة عقلية قلبية، جعلت جهده حقيقة إيمانية أكثر مما هي طريقة صوفية.

يتألّف عنوان البحث من ألفاظ رئيسة، يقوم على تصورها، تصوّر الموضوع نفسه، لهذا سنضطر إلى بيان تلك العناصر منفردة، لنخلص إلى بيانها في سياقها الكلي المعبّر عن فكر النورسي في التربية والسلوك، ولعل أهم القضايا التي تفرض بيانها، التربية والسلوك، بعد عرض المراد بالطريق النوري.

أولا : الطريق النوري (المصطلح في أدبيات النورسي)

نقصد بالطريق النوري، المسلك الذي رسمه بديع الزمان في التربية، وفق ما جاء في مؤلفاته، ويستشف من تلك المؤلفات أنّه يتلمّس عناصر طريقه من الكتاب الكريم والسنّة المطهّرة، لهذا كان متميّزا، بتعبيره عن الإيمان، يشهد لهذا قوله: الإيمان فقد جعل باب القبر ذاك باباً إلى عالم النور، وتلك الطريق طريقاً إلى السعادة الخالدة، فأصبح الإيمان، بحق مرهماً شافياً لدائي.[٢٧٥]، و قد عبّر عنه في نصوص أخرى بالإسلام، يشهد لهذا قوله:" نعم، إن لي ولله الحمد طريقاً سوياً رفيعاً هو الإسلام"[٢٧٦]، وتمييزا له عن سائر الطرق حدد لها مجموعة من الأسس تعبّر بمجموعها عن المحددات العامة للطريق النوري.

أسس الطريق النوري:

وما دام الطريق النوري لا يزيد عن كونه معبّرا عن الإيمان والإسلام وفق الدلالات الاجتماعية المثمرة لتصرفات منضبطة بالشرع، فقد جعل الوحي أساسه و كان حريا بالسعي نحو تمثّل مسالك معبّرة عن تلك الحقيقة.

١ – طريق القرآن الكريم:

تأسس هذا الطريق بما ورد في القرآن الكريم، إذ كان الكتاب العزيز مرشده وأستاذه، قال بديع الزمان مبيّنا تلك الفكرة " ولله الحمد كان القرآن هو مرشدي وأستاذي في هذا الطريق"[٢٧٧]، و يؤكّد ذلك المعنى في مقام آخر، فيقول: "هذا الطريق على نهج القرآن"[٢٧٨].

---

[٢] الكلمات ٢٣١

[٣] الملاحق ٢٢

[٤] المثنوي العربي ٢٠٦ ، ١٧٠

[٥] الكلمات ٥٦١

و المعاني نفسها مبثوثة في كل مؤلفاته، إذ لا تكاد تخلو صفحة من الدلالة عليها عبارة وإشارة، ولعلّ أوضح شاهد على ذلك اقتباسه من الإمام الرباني[٢٧٩] فكرة توحيد القبلة، والتي مفادها، أنّ أستاذه الحقيقي إنّما هو القرآن فقط.[٢٨٠]

٢ – اتباع السنة:

يؤصل بديع الزمان لطريقه بما ورد في السنّة المطهّرة، مقتبسا الحجج من أقوال كثير من أيمة السلوك، منها قوله على لسان الإمام الرباني: كنت أرى في سيري عبر السلوك الروحاني أن الكلمات المروية عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم منورة متألقة بشعاع السنة المطهرة، في حين كنت أرى الأوراد العظيمة والحالات الباهرة غير المروية عنه ليس عليها ذلك النور والتألق. فما كان يبلغ اسطع ما في هذا القسم – الأخير – إلى أقل القليل لما في السنة... ففهمت من هذا: أن شعاع السنة المطهرة هو الإكسير النافذ، فالسنة المطهرة كافية ووافية لمن يبتغي النور، فلا داعي للبحث عن نور في خارجها...[٢٨١]

ويقرر الحقيقة نفسها في مقام آخر قائلا:" فلابد أن سنة هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وحركاته هي افضل نموذج للاقتداء وأكمل مرشد للاتباع و السلوك وأحكم دستور، وأعظم قانون، يتخذه المسلم أساسا في تنظيم حياته."[٢٨٢]

من مقتضيات اتباع السنّة الابتعاد عن البدعة، وقد بيّن صاحب هذا المسلك التربوي، سلامة هذا الطريق من الوقوع تحت طائلة البدع والخزعبلات، إذ أنّه" طريق أسلم من غيره، لأنه ليس للنفس فيه شطحات أو ادعاءات فوق طاقتها، إذ المرء لا يجد في نفسه غير العجز والفقر والتقصير كي يتجاوز حده.[٢٨٣]

لهذا حذّر رحمه الله من البدع، التي هي إحداث أمور في الأحكام العبادية، إذ أنّها مردودة لمنافاتها الآية الكريمة: (اليومَ أكملتُ لكُم دينَكُم...)، ولكنّه في ذات الوقت يضبط مسألة التعامل مع المحدثات في مجال السلوك التربوي، فيقول مستدركا على ما سلف، غير

---

[٦] الفاروقي السرهندي، مجدد القرن الثاني عشر الهجري.

[٧] المثنوي العربي ٣٠

[٨] اللمعات ٦٠

[٩] اللمعات ٩٥

[١٠] الكلمات ٥٦١

أن تلك الأمور المستحدثة إن كانت من قبيل الأوراد والأذكار والمشارب - كالتي في الطرق الصوفية - فهي ليست ببدعة ما دامت أصولها مستقاة من الكتاب والسنة، إذ أن تلك الأصول والأسس المقررة رغم أنها بأشكال مختلفة وأنماط متباينة إلا أنها مشروطة بعدم مخالفتها للسنة النبوية وبعدم تغييرها لها. وعلى الرغم من ذلك فقد أدخل قسم من أهل العلم بعضاً من هذه الأمور ضمن البدع، إلا أنهم أطلقوا عليها البدعة الحسنة.[٢٨٤]

وقد أكسبت نشأة طريقه في ظلال القرآن الكريم والسنّة المطهّرة، مجموعة من الميزات، حلّته بسمات بهية مستفادة من قبس الكتاب الكريم، فهي منه اقتبست.

مميزات الطريق النوري:

١ – انتظام الموجودات:

ينظر هذا الطريق المؤسس على الأصول الإسلامية الصحيحة إلى الكائنات نظرة تسخير لفاطرها الجليل وخادمة في سبيله، وأنها مظاهر لتجليات الأسماء الحسنى كأنها مرايا تعكس تلك التجليات. أي أنه يستخدمها بالمعنى الحرفي ويعزلها عن المعنى الاسمي من أن تكون خادمة ومسخرة بنفسها.وعندها ينجو المرء من الغفلة، ويبلغ الحضور الدائمي على نهج القرآن الكريم.فيجد إلى الحق سبحانه طريقاً من كل شئ.[٢٨٥] وهذا هو طريق الفطرة.

٢ – طريق الفطرة:

الطريق التربوي الذي وضع خطوطه النورسي طريق فطري، يتميّز بأنه يؤتي أكله وثماره اليانعة النافعة عند كل حركة تتوخى تحقيق مقاصده، يؤكد ذلك أنّ طريقه الفطري المستفاد من القرآن الكريم أنى حفرت يخرج الماء، يقول بديع الزمان: " اعلم! أن الفرق بين طريقي في "قطرة" المستفادة من القرآن؛ وطريق أهل النظر والفلاسفة، هوأني احفر أينما كنتُ، فيخرج الماءُ، وهم تشبثوا بوضعِ ميازيب وأنابيب لمجيء الماء من طرفِ العالَم ويُسلسِلونَ سلاسل وسلالمَ إلى ما فوق العَرش لجلب ماء الحياة، فيلزم عليهم بسبب قبول

---

(١١) اللمعات ٩٠

(١٢) الكلمات ٥٦١

السبب وضع ملايين من حفظة البراهين في تلك الطريق الطويلة لحفظها من تخريب شياطين الأوهام.[٢٨٦]

و قد حلّت ميزة الفطرية الطريق بمجموعة من الميزات الملازمة للفطرية.

٣ – اليسر والواقعية:

أ – الطريق النوري يرفض النخبوية في أصل وضعه النظري، ويراعي تلك الميزة في وضع تفاصيل التطبيق والنظر، وهي ميزة أكسبته القدرة على تحقيق تطلّعات عموم البشر واستعداداتهم، فهو طريق ممهّد للترقي كما صرّح بذلك النورسي[٢٨٧]، إنّه" طريق عام وجادة كبرى"[٢٨٨]

كما أنّه إضافة إلى ما سلف، مختلف" عما سلكه أهل السلوك في طرق الخفاء – ذات الخطوات العشر كاللطائف العشر – وفي طرق الجهر – ذات الخطوات السبع حسب النفوس السبعة. [٢٨٩]

ب – طريق قصير بسيط لا تعقيد فيه، قال بديع الزمان" أما الطريق الثالث: المشار إليه بـ (الذين أنعمت عليهم) فهو الصراط المستقيم والجادة النورانية لأهل القرآن، وهو أقصر الطرق وأسلمه و أيسره، ومفتوح أمام الناس كافة ليسلكوه، وهو مسلك سماوي رحماني نوراني.[٢٩٠]

٤ – طريق السعادة الدنيوية والأخروية:

التعلّق بالوحي الشريف جالب للسعادتين الدنيوية والأخروية، إذ باستطاعتنا بلوغ ذلك العالم المضيء بتلك الطريق . طريق الشريعة، من دون أن نرى صعوبة وكللاً[٢٩١]، وهو

---

(١٣) المثنوي العربي ١٧٠
(١٤) الكلمات ٢٨٠
(١٥) الكلمات ٥٦١
(١٦) الكلمات ٥٥٨
(١٧) الكلمات ٦٥٠
(١٨) اللمعات ٨٩

الطريق ذو السعادة الذي يبينه لك القرآن الحكيم.(٢٩٢)، ذلك المسلك الذي يشعرنا بالراحة، لأنّه منبع اللذات وحياة الحياة، بل يقلب الآلام إلى لذائذ، ويبعث الاطمئنان إلى الروح – حسب قوة الإيمان – والجسد متلذذ بلذة الروح، والروح تتنعم بنعم الوجدان.(٢٩٣)

٥ – طريق جامع بين القلب والعقل:

من مقتضيات تلك الميزة الجمع بين مطالب القلب والعقل في سياق واحد، وقد وفّق هذا المشرب إلى فتح التواصل بين العقل والقلب والروح والقلب، وسعى إلى تحقيق ذلك بطرق خفية إلى معرفة المعرفة الإلهية ودورها في تطهير الأنفس من داخل الإنسان(٢٩٤)

٦ – طريق بمضامين اجتماعية :

كثيرا ما كان إهمال المسألة الاجتماعية في العمل الدعوي سببا جوهريا في فشل تجسيدها فضلا عن الانتشار والبقاء، كما أنّ الإغراق في المسألة الاجتماعية كثيرا ما كان سببا في إهمال مركزية العامل الإيماني الشخصي، فكان موقف بديع الزمان وسطا بين تطرّفين، إذ جعل من المسألة الإيمانية محور التحريك في المسألة الاجتماعية، ذلك أنّه يسعى إلى إيجاد الفاعلية الإيمانية في المجتمع أكثر من سعيه إلى تجسيد التميّز المجتمعي في أصل التوجّه نحو الطريق النوري، ذلك الطريق الذي من ركائزه، السعي إلى إنقاذ الآخرين، بالدرجة نفسها التي نسعى إلى إنقاذ أنفسنا، بل يعد العمل على إنقاذ الآخرين سعيا مستمرا لإنقاذ أنفسنا، يوضّح هذه الحقيقة امتداحه لتصرف أحد المتقين من أهل القلوب بعد أن غيّر مسلكه السابق بمسلك يجعل من خدمة الآخرين والسعي إلى إنقاذهم هدفا رئيسا.

قال رحمه الله، مقتبسا من سعدي الشيرازي في كتابه"كلستان": " لقد رأيت أحد المتقين من أهل القلب في زاوية "التكية" يزاول السير والسلوك، ولكن بعد مضى بضعة أيام شاهدته في المدرسة بين طلاب العلوم الشرعية، فسألته: لِمَ تركت الزاوية التي تفيض الأنوار وأتيت إلى هذه المدرسة؟ قال: هؤلاء النجباء ذوو الهمم العالية يسعون لإنقاذ الآخرين مع

---

(١٩) الكلمات ٧٥٥

(٢٠) اللمعات ٨٩٤

(٢١) انظر المثنوي العربي ٣٢، الكلمات ٥٥٨

إنقاذهم لأنفسهم بينما أولئك يسعون لإنقاذ أنفسهم وحدها إن وفقوا إليها. فالنجابة وعلو الهمة لدى هؤلاء والفضيلة والهمة عندهم".[٢٩٥]

مكوّنات الطريق النوري:

يتكون الطريق النوري من أربع خطوات وهي طريق العجز، الفقر، الشفقة، التفكر، وهو طريق أقصر واقرب من غيره، لأنه عبارة عن أربع خطوات. فالعجز إذا ما تمكن من النفس يسلّمها مباشرة إلى" القدير" ذي الجلال[٢٩٦].

النقطة الأولى: العجز في الطريق النوري

١ – المراد بالعجز:

يقول النورسي: " ولا يذهبن بكم سوء الفهم إلى الخطأ. فالمقصود بالعجز والفقر والتقصير إنما هو إظهار ذلك كله أمام الله سبحانه وليس إظهاره أمام الناس.[٢٩٧]، فلا يذهب بك الخيال بعيدا، واستبعد من البداية الفهم المتبادر من التوجّه الأولي إلى اللفظ، بل المراد نقيض تلك المعاني المشهورة، إنّه حقيق بأن يعد القوة باعتباره محررا للإنسان من العجز أمام البشر من خلال الإقرار بالعجز بين يدي الله.

٢ – أسس الإقرار بالعجز:

أ – المصادر النصية: يستند الإقرار بالعجز في قوته إلى القرآن الكريم، قال بديع الزمان:وقد استفدت من فيض القرآن الكريم – بالرغم من فهمي القاصر – طريقاً قصيراً وسبيلاً سوياً هو: طريق العجز، الفقر، الشفقة، التفكر.[٢٩٨]

ليس هذا فحسب، بل يبصر المؤمن في العجز القوة، [٢٩٩]و اللذة التي لا تضاهيها لذة، يقول رحمه الله:

" وجد من كَمُل إيمانهم في العجز ومخافة الله لذة تفوق أية لذة كانت، حتى أنّهم تبرءوا

---

(٢٢) اللمعات ٤٣١

(٢٣) انظر الكلمات ٥٣١ – السيرة الذاتية ١٧٩، وأنظر السيرة ١٥٨، ١٧٥

(٢٤) الكلمات ٥٥٨، السيرة ١٧٧

(٢٥) السيرة الذاتية ١٧٧

(٢٦) السيرة ١٧٢

إلى الله براءة خالصة من حولهم وقوقمم ولاذوا بعجزهم إليه تعالى واستعاذوا بـــه وحــــده، مقدِّمين هذا العجز والخوف وسيلتين وشفيعين لهم عند البارئ الجليل"[٣٠٠].

ويقرر تلك الخلاصة في سياق آخر:" إن كل فرد مؤمن يعرف ببصيرته ما هو جميـــل حقاً، كل حسب درجة فهمه وذوقه، إلاّ أن اللذة الكامنة في العجز .. لا يقـــاس بشـــيء إطلاقا"[٣٠١].

من هنا كان العجز كما يقول بديع الزمان معدن النداء، والاحتياج منبع الدعاء[٣٠٢]، لهذا كان طريقا موصلا[٣٠٣]بأقصر وقت وأيسر الوسائل و السبل.

ب- مظاهر إعلان العجز:

إظهار العجز أمام جلاله وعظمته بالركوع، وإعلان الذل والخضـــوع - بإعجـــاب وتعظيم وهيام - بالسجود أمام كماله الذي لا يزول، وأمام جماله الذي لا يحول.. وهذا هو أداء صلاة الظهر، فما أجملها، وما ألذَّها، وما أجدرها، وما أعظم ضرورتها!. ومـــن ثم فلا يحسبنّ الإنسان نفسه إنسانا إن كان لا يفهم هذا.[٣٠٤]

يتجلى إظهار العجز فيما يأتي:

— الصلاة:

عجز الإنسان المتجلي في الحيرة من ظلمات المستقبل، وما تخفيه الأيام والليالي ... تدفع الإنسان عند أدائه لصلاة العشاء - بهذا المضمون - أن لا يتردد في أن يردد علـــى غـــرار سيدنا إبراهيم عليه السلام (لا أحبُّ الآفلين). فيلتجئ بالصلاة إلى باب مَن هو المعبود الذي لم يزل ومَن هو المحبوب الذي لا يزال، مناجياً ذلك الباقي السرمدي في هذه الدنيا الفانية، وفي هذا العالم الفاني، وفي هذه الحياة المظلمة والمستقبل المظلم، لينشر على أرجاء دنيـــاه النور من خلال صحبة خاطفةٍ ومناجاة موقتة، ولينّور مستقبله ويضـــمد جـــراح الـــزوال

---

(٢٧) الكلمات ٢٩

(٢٨) الملاحق ٣٢

(٢٩) المثنوي العربي١٩٥

(٣٠) أنظر المثنوي ٣٣٩- السيرة ١٧٧

(٣١) الكلمات ٤٢

والفراق عما يحبّه من أشياء وموجودات ومن أشخاص وأصدقاء وأحباب، بمشاهدة توجّه رحمةِ الرحمن الرحيم، وطلب نور هدايته، فينسى – بدوره – تلك الدنيا التي أنسته، والتي اختفت وراء العشاء، فيسكب عبرات قلبه، ولوعة صدره، على عتبة باب تلـــك الرحمـــة، ليقوم بوظيفة عبوديته النهائية قبل الدخول فيما هو مجهول العاقبة، ولا يعرف ما يُفعل بـــه بعده، وهكذا كان الإحساس بالعجز مفتاحا رئيسا لفاعلية الصلاة في نفس المؤمن[٣٠٥]

— العبادة بصفة عامة:

موازين العجز لها قوّة عجيبة في إدراك درجات القدرة الإلهية والثروة الربانية المطلقتين، فالحاجة المنطوية في نفس الإنسان من ضعف وعجز موازين مركوزة في نفـــوس البشـــر، يدركونها كإدراكهم أنواع الأطعمة[٣٠٦]، لهذا لا ينكرها إلا مكابر.

ج– مميزات إظهار العجز بين يدي الله:

١ – حيوية الإحساس بالعجز ودورها في الفاعلية:

اكتشاف المرء عجزه التام والشامل أمام الله، عامل فعّال في دفع البشر إلى تنمية قدراتهم الإيمانية والمعرفية، وتوخي تحقيق مقاصده الاجتماعية، ذلك أنّ "وظيفة الإنسان الفطرية إنما هي التكمّل "بالتعلم" أي الترقي عن طريق كسب العلم والمعرفة، والعبودية "بالدعاء". أي أن يدرك في نفسه ويستفسر: "برحمة مَنْ وشَفقته أُدارى بهذه الرعاية الحكيمة؟! وبمَكْرَمـــة مَنْ وسخائه أُربى هذه التربية المفعمةَ بالشفقة والرحمة؟ وبألطاف مَنْ بوجُوده أغذى بهـــذه الصورة الرازقة الرقيقة؟!". فيرى أن وظيفته حقاً هو الدعاءُ والتضرعُ والتوسـلُ والرجـــاءُ بلسان الفقر والعجز إلى قاضي الحاجات ليقضي له طلباته وحاجاته التي لا تصل يـــدُه إلى واحدة من الألف منها. وهذا يعني أن وظيفته الأساس هي التحليق والارتفـــاع بجنـــاحَي "العجزً والفقر" إلى مقام العبودية السامي."[٣٠٧]

ويفرض حضور الإحساس بالعجز والاعتراف به، بقاء جذوة التطلّع إلى المعالي والتعلّق بالعبودية، ذلك أنّ العجز الإنساني لا يتغيّر ولا يتبدّل ، بل يـــزداد، ورحلـــة الإنســـان لا

---

(٣٢) أنظر الكلمات ٤٤

(٣٣) الكلمات ١٣٨

(٣٤) الكلمات ٣٥٥

تنقطع، بل تحثّ على السير وتمضي، لهذا لا يحتج العاقل بقول أحدهم:بأن الزمان قد تغيّر، أو أنا مثل الناس، ذلك لأن ما من أحدٍ من الناس يصاحبك إلاّ إلى عتبة باب القـــبر .. لا غير(٣٠٨).

٢ - *طريق العبودية*

إظهار العجز بين يدي الله تعالى يوصل إلى المحبوبية بطريق العبودية، لأنّــه كالعشــق طريق موصل إلى الله، بل هو أقرب و أسلم"(٣٠٩) ، وهو أســاس عبــادة المــؤمن وإدراك تقصيره ونقصه أمام بارئه القدير والتضرع أمام عتبة ألوهيته سبحانه والسجود عندها بكل ذل وخضوع، و بهذا يتحرر من التصنّع والتكلف لأجل أن يلائم نفسه ويحافظ عليها مع مستوى تلك المقامات السامية، فيصان من الوقوع فيما لا طائل وراءه من الغرور والأنانية والمشاكل العويصة.(٣١٠)

٣ – أساس الدعاء:

الدعاء طلب، والطلب مبناه الافتقار والإقرار بالعجز، " يتضرع المريض بذلك العجز وذلك الضعف بالدعاء حالاً وقولاً. وما أودع الله سبحانه وتعالى في الإنسان عجزاً غــير محدود وضعفاً غير متناه إلا ليلتجئ دائماً إلى الحضرة الإلهية بالدعاء سائلاً راجياً، حيث أن الحكمة من خلق الإنسان والسبب الأساس لأهميته هو الدعاء الخالص"(٣١١)

٤ – اكتشاف الذات

العجز عامل مهم في التحرر–كما سبق أن نقلنا عن بديع الزمان– من الأنانية، وهــو بذلك عنصر أساسي في اكتشاف المؤمن ذاته، و هو ما ترشد إليه الآية الكريمة: (ما أصابك من حَسَنة فَمِنَ الله وما أصابك مِنْ سيئة فمن نفسك) وذلك: أن ما تقتضيه النفس دائمــاً أنها تنسبُ الخَير إلى ذاتها، مما يسوقها هذا إلى الفخر والعجب. فعلى المرء في هذه الخطــوة أن لا يرى من نفسه إلا القصور والنقص والعجز والفقر، وأن يرى كل محاسنه وكمالاتــه

---

(٣٥) الكلمات ١٩٣

(٣٦) الكلمات ٥٥٨

(٣٧) أنظر اللمعات ٢٠– الكلمات ٣٦٢

(٣٨) اللمعات ٣٢٥

إحسانا من فاطره الجليل، ويتقبلها نعماً منه سبحانه، فيشكر عندئذ بدل الفخر ويحمد بدل المدح والمباهاة. وهذا مدعاة لتزكية النفس، وتزكيتها في هذه المرتبة هو في سر هذه الآيــة الكريمة: (**قَد أفلَحَ مَنْ زَكّاها**) (الشمس: ٩).[٣١٢] من هذا المنطلق كان العجز كاشفا عن ماهية الإنسان المتجلية في العجز المفضي إلى التزكية باستمرار.

٥ – عنصر أساسي في ماهية الإنسان:

إن ماهية الإنسان قد عجنت – بمعنى تدخل في تركيبها– كما يقول بــديع الزمــان، بالعجز والضعف و الفقر والحاجة غير المحدودة [٣١٣]

إن كنوز العجز والفقر مندرجة في ماهية الإنسانية وسائر المؤثرات المهيجة والمحركة، فلا تمنح المصائبُ الإنسان الالتجاء إلي البارئ بلسان واحد، بل تجعله يلتجئ إليه ويستغيثه بلسان كل عضو من أعضائه. وكأن الإنسان بتلك المؤثرات والعلل والعقبات والعــوارض يغدو قلماً يتضمن آلاف الأقلام، فيكتب مقّدرات حياته في صحيفة حياتــه أو في اللــوح المثالي، وينسج لوحة رائعة للأسماء الإلهية الحسنى، ويصبح بمثابة قصيدة عصــماء ولوحــة إعلان.. فيؤدي وظيفة فطرته.[٣١٤]

٦ – العجز قوة بالإيمان:

العجز بمعزل عن الإيمان موت مستمر وداء ملازم، علاجه وباعث الحياة فيه بإذن الله، الإيمان، فهو علاجه وبلسمه الشافي، وأقصر طريق لبلوغ ذلك العلاج هو الإطــلال مــن نافذتي "العجز والفقر" اللتين تتفتحان بتمزيق المرض المادي لحجاب الغفلة واللتــين جُبــلَ الإنسان عليهما، وبالتالي تبلغ معرفة قدرة القادر ذي الجلال ورحمته الواسعة.[٣١٥]

النقطة الثانية : الفقر في الطريق النوري:

---

(٣٩) الكلمات ٥٦٠

(٤٠) الكلمات ٦٤٤

(٤١) اللمعات ٢٠

(٤٢) اللمعات ٣٢٢، المثنوي العربي ٥٨

١- المراد بالفقر: الفقر في أدبيات النورسي إظهار ذلك أمام الله سبحانه وتعالى وليس أمام الناس[٣١٦]، لهذا فهو افتقار إلى الله لا غير، وهو من مظاهر اسم الله "الرحيم" وهـــي الخميرة والجوهر الخاص المغروز في فطرة النساء وميزتهن الأصيلة.[٣١٧]

يشهد لهذا المعنى وتقرره الوقائع المعيشة، ذلك أن البشر في غاية الفقر والحاجـــة، ممـــا يدفعهم إلى أداء الصلاة، و يلتجئون بالصلاة إلى باب المعبود الذي لم يزل ومَن هو المحبوب الذي لا يزال، مناجين ذلك الباقي السرمدي في هذه الدنيا الفانية، وفي هذا العالم الفـــاني، وفي هذه الحياة المظلمة والمستقبل المظلم، لينشروا على أرجاء دنياهم النور من خلال صحبة خاطفةٍ ومناجاة موقتة، ولينّوروا مستقبلهم ويضمدوا جراح الزوال والفراق عما يحبّونه من أشياءٍ وموجودات ومن أشخاص وأصدقاء وأحباب، بمشاهدة توجّه رحمةِ الرحمن الرحيم، وطلب نور هدايته، فينسوا – بدورهم – تلك الدنيا التي أنسته، والتي اختفت وراء العشاء، فيسكبوا عبرات قلوبهم، ولوعة صدورهم، على عتبة باب تلك الرحمة، ليقوموا بوظيفـــة عبوديته النهائية قبل الدخول فيما هو مجهول العاقبة، ولا يعرفون ما يُفعل بهم بعده.[٣١٨]

الفقر من حيث الاستمداد لا يختلف عن العجز، لهذا لا نطيل فيه الكـــلام، إذ نشـــأ وسابقه في ظلال القرآن الكريم والسنّة المطهّرة، إذ ما يقال في الأول، فالثاني حـــري بـــه أيضا.وهو بالنظر إلى المميزات يشارك الجميع بهذا العجز، لهذا ليس من بحثنا إطالة القـــول فيها.

النقطة الثالثة: الشفقة في الطريق النوري

١- المراد بالشفقة:

---

(٤٣) السيرة ١٧٧

(٤٤) أنظر الملاحق ٢٤٦

(٤٥) أنظر الكلمات ٤٤

تعتبر"الشفقة" في الطريق النوري أهم أساس من الأسس الأربعة في مسلكه ومشربه في الحياة[٣١٩]، وترى موازين الشفقة متناثرة بإحكام على عناصر الكون، "فحُسن تربية صغار الحيوانات وضعافها، و إعاشتها بسهولة ولطف ظاهريين تريااننا أن مالك هذه الكائنات يسيّرها بربوبية لا حدّ لرحمتها.[٣٢٠]

ونظرا لخضوع الشفقة الفاعلة في أصل وضعها النظري إلى العوامل الإيمانية ميّزت عن الشفقة العادية المتأتية من عاطفة بشرية غير محددة المعالم، فعرفت في مؤلفات النورسي بالشفقة الإيمانية[٣٢١]، وهو عين ما نقصده في هذه النقطة.

الشفقة التي ذكرنا يتولّد عنها الشفقة على خلق الله، وكلما تزايدت تنبسط الروح، ويدفع إلى الاستكثار من الخير، وينعش نموها خدمة البشر وتدفع إلى التعاون والتعارف، وأما الشفقة الناشئة من الغفلة والمبنية على توهّم المالكية بتزايدها ينقبض الروح ويتألّم القلب بظلمة الغيوم[٣٢٢].

أسس الشفقة في الطريق النوري:

أ- المصادر النصية:

غني عن التذكير بأن النورسي أسس طريقه بما فهمه من القرآن الكريم، وقد أشرنا إلى ذلك حين الحديث عن أصول الطريق النوري (المكوّنات)، لهذا سنعرض المسألة بهذا الصدد عرضا، سريعا، ففي هذا المقام، ذكر أن القرآن يخاطب البشر قائلاً: إن الرسول صلى الله عليه وسلم ينظر إليكم نظر الرحمة والشفقة من زاوية الرحمة الإلهية ويعاملكم معاملة الأب الحنون من حيث النبوة.[٣٢٣] ويشير في سياق آخر وفق المسلك السابق إلى أنّ الشريعة تربي في روح الإسلام الشفقة وعزة الإيمان.[٣٢٤]، وهو ما يخوّلها تبوّء مكانة سامقة في الحاضر والمستقبل.

---

(٤٦) اللمعات ٣٠٩
(٤٧) الكلمات ٧٣
(٤٨) صيقل الإسلام ٥١٤
(٤٩) انظر المثنوي العربي ١٣٢، صيقل الإسلام ٣٣٥
(٥٠) الكلمات ٤٧٩
(٥١) االلمعات ٨٥٧

ب– السنة المطهّرة:

ويؤكّد أهمية الشفقة بما قصّه من سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسـلّم، الدالـة بنفسها على كمال شفقته، قال بديع الزمان:" إن حمل الرسول صلى الله عليـه وسـلم الحسن رضي الله عنه في حضنه وتقبيله رأسَه بكمال الشفقة والرحمة هو لأجل الكثيرين من ورثة النبوة الشبيهين بالمهدي الحاملين للشريعة الغراء المتسلسلين من سلالة الحسن المنحدرين من نسله النوراني المبارك أمثال الشيخ الكيلاني، فلقد شاهد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ببصيرة النبوة ما يضطلع به هؤلاء الأكارم في المستقبل من مهام مقدسـة جليلـة، فاستحسن خدماتهم وقدّر أعمالهم، فقبّل راسَ الحسن رضي الله عنه علامة على التقـدير والحث. ثم إن الاهتمام العظيم الذي أولاه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بالحسين رضي الله عنه وعطفه الشديد نحوه إنما هو للذين يتسلسلون من نسله النوراني من أئمة عظام وارثي النبوة الحقيقيين الشبيهين بالمهدي من أمثال زين العابدين وجعفر الصادق.[٣٢٥]

ميزات الشفقة في الطريق النوري:

أساس الشفقة بين البشر:

استحضار الشفقة الربانية يستدعي الشفقة والرأفة بالخلق، إذ إدراك الرأفة الربانية عقلا وقلبا، شرط رئيس في وجود الرأفة والشفقة بين البشر دون زهو بما قدّم مـن عمـل، إنّ الربوبية المتّصفة بكمال الشفقة تطمع البشر في رحمة الله التي وسعت كل شيء، لهذا يلجـأ المؤمن إلى الله لعلمه بشفقته، فيدعوه بأجمل الدعاء.[٣٢٦]

ربحها العظيم وطريق سليم وقصير:

---

(٥٢) اللمعة ٣٠

(٥٣) أنظر الكلمات ٧٣

أداء الفرائض من الصلوات تجعل تلك الشفقة تسهم في إبقائها خدمة لله تعالى، لهـذا كانت الشفقة الإيمانية مقرونة بالرحمة والمحبة وبعد عن المنّة[٣٢٧]، لهذا كانت الشـفقة موصلة إلى الله بطرق أنفذ من العشق في السير، وهي أوسع منه مدى، إذ هو موصـل إلى اسم الله" الرحيم"[٣٢٨]

باب لضبط التعامل مع الخلق:

فرط الشفقة أليم وفرط الغضب ذميم، وتحرير للمؤمن من الوقوع تحت طائلـة فـرط الشفقة أو الغضب، يوجب أن تدع الأمور للعادل الرحيم، [٣٢٩] فليس للخلق أشفق من الله لأنه الرحيم.كما أنّه من شأنها عدم التذليل والتحقير[٣٣٠] وفي ذلـك ترسـيخ لأبعادهـا الحضارية والاجتماعية بل وحتى المعرفية.

النفاذ وقوّة التأثير:

الشفقة ذات تأثير عظيم في المستصحب لمعانيها عقلا وقلبا حين ممارسة التحصـيل أو التمحيص أو التبليغ، لأنها تمثّل ألطف تجليات الرحمة الإلهية وأجملها وأطيبها و أحلاهـا.. فهي إكسير نوراني، وهي أنفذ من العشق بكثير، وهي أسرع وسيلة للوصـول إلى الحـق تبارك وتعالى."[٣٣١]

السهولة واليسر:

تربط الشفقة القلب بالله سبحانه ليوصل صاحبَه إلى الله جل وعلا بأقصر طريق وأصفى شكل، وبلا مشكلات[٣٣٢]، قد تتصوّر في العشق

النقطة الرابعة: التفكر في الطريق النوري

---

(٥٤) الكلمات ١٥٩
(٥٥) الكلمات ٥٥٨
(٥٦) اللمعات ٨٦٦
(٥٧) إشارات المجاز ١٠٦
(٥٨) المكتوبات ٩٩
(٥٩) المكتوبات ٩٩

– قيمة التفكّر:

الإنسان الذي بالتفكّر المتعبّد يصبح إنسانا حقاً ويُظهر نفسه أنه في "أحسن تقويم" فيصير بيُمن الإيمان وبركته لائقاً للأمانة الكبرى وخليفة أميناً على الأرض.

– أسس التفكّر:

مستمدة من القرآن الكريم و السنة المطهّرة:

يذكر القرآن الكريم في أكثر الأحيان قسماً من الخلاصات والفذلكات في خاتمة الآيات. فتلك الخلاصات: إما أنها تتضمن الأسماء الحسنى أو معناها، و إما أنها تحيل قضاياها إلى العقل وتحثه على التفكر والتدبر فيها.. [٣٣٣].كما تحثّه آيات القرآن على الاعتبار، فتسوق العقل بواسطة خلاصات إلى اكتشاف الكيفيات والأحوال([٣٣٤])، ودعا مرارا إلى التفكر ولفت الأنظار إلى آلاف من البراهين العقلية القطعية.[٣٣٥]

– ماهية التفكّر:

التفكر، بحث عن سرّ[٣٣٦]، و عبّر بديع الزمان عن مقصده، فسماه التفكّر الإيماني، ذلك التفكّر"امتزج فيه قلبه بعقله منذ ثلاثة عشر عاماً ضمن انتهاج مسلك التفكر الذي يأمر به القرآن المعجز البيان كقوله تعالى (**لعلكم تتفكرون**) (**لعلهم يتفكرون**) (**أوَ لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض..**) (**لآيات لقوم يتفكرون**) وأمثالها من الآيات التي تحث على التفكر مثلما يحث عليه حثاً عظيماً الحديث الشريف كقوله صلى الله عليه وسلم (تفكر ساعة خير من عبادة سنة)[٣٣٧]

---

(٦٠) الكلمات ٤٨٣

(٦١) الكلمات ٤٨٨

(٦٢) الكلمات ٦١٨

(٦٣) الملاحق ٢٠٩

(٦٤) قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء ١-٥٨، وحديث تفكر ساعة خير من عبادة سنة: ابن حبان في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة بلفظ ستين سنة بإسناد ضعيف ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات ورواه أبو المنصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث انس بلفظ ثمانين سنة وإسناده ضعيف جداً، ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ خير من قيام ليلة. اهـ. وانظر كشف الخفاء ١-٣١٠.

ولقد تواردت في غضون هذه السنوات الثلاثين على عقله وقلبه ضمن انتهاج مسلك التفكر، أنوار عظيمة وحقائق متسلسلة طويلة. فوضع بضع كلمات - من قبيل الإشارات - لا للدلالة على تلك الأنوار، بل للإشارة إلى وجودها ولتسهيل التفكر فيها وللمحافظة على انتظامها.

وكان يردد بينه وبين نفسه تلك الكلمات لساناً بعبارات عربية في غاية الاختلاف. وعلى الرغم من تكراره لها آلاف المرات خلال هذه الفترة الطويلة وهو ينتهج هذا التفكر لم يطرأ عليه السأم و لم يعتر تذوقها النقص، و لم تنتف حاجة روحه[٣٣٨]

مميزات التفكّر:

نشأته بتعهّد القرآن الكريم، جعله معروفا بالتفكير الإيماني، وهو بهذه الميزة خرج من طور العبثية إلى طور المقصدية والغائية الجلية، فهو باعتبار النسبة وسيلة لمعرفة الله وعبادته، ومعراج ترقي في سلّم المعارف والرتب الأخروية، وهو المشار إليه كما قال بديع الزمان بدستور" تفكّر ساعة خير من عبادة سنة"، وذلك هو التفكير الإيماني[٣٣٩]

- اليسر والسهولة:

التفكّر طريق ساطع جلي بيّن، وهو أغنى من العشق و أرحب سبيلا، إذ هو يوصل السالك إلى اسم الله " الحكيم "[٣٤٠]، بشرط أن يكون تفكّرا إيمانيا، إذ به يتحرر من العبثية ويعمل على تحقيق مقاصد جلية حدّدها الشريعة الربانية.

- الجمع بين العقل والقلب:

يجمع مسلك التفكير الإيماني حثا تمتزج مخاطبة القلب إلى مخاطبة العقل، يقول بديع الزمان: "لقد امتزج قلبي بعقلي منذ ثلاثة عشر عاماً ضمن انتهاج مسلك التفكر الذي يأمر به القرآن المعجز البيان كقوله تعالى (**لعلكم تتفكرون**) (**لعلهم يتفكرون**) (**أوَ لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض..**) (**لآيات لقوم يتفكرون**) وأمثالها من الآيات

---

(٦٥) اللمعات ٤٥٦

(٦٦) الشعاعات ٢١٢

(٦٧) الكلمات ٥٨٨

التي تحث على التفكر مثلما يحث عليه حثاً عظيماً الحديث الشريف كقوله صلى الله عليه وسلم (تفكر ساعة خير من عبادة سنة)[٣٤١]

- عدم الملل من تكراره:

يورّث طريق التفكّر الاندفاع في طريق التحصيل، إذ بلوغ المنتهى غير متاح على الإطلاق، لهذا كان النورسي يردد بينه و بين نفسه[٣٤٢] تلك العمليات دون أن يطرأ عليه ملل أو سأم، مما يدل على أن صاحبه لا يملّ ولا يكلّ.

أثار التفكر:

- مذيب الغفلة:

يذكر النورسي أن التفكّر الإيماني نور يُذيبُ الغفلة الباردة الجامدة، والدقةُ نارٌ تحرق الأوهام المظلمةَ اليابسة، لكن. إذا تفكرتَ في نفسِك فدقّق وتمهّل وتغلغل وفصّله تفصيلاً[٣٤٣]

- التفكّر دواء:

ملازمة التفكير في آيات الله المسطورة أو آياته المنظورة، دواء نافع في احتثاث الضلالة، ومسلك أساسه للمناجاة [٣٤٤]، فهو طريق القرب والتمثّل والفهم، والاستدراك والتمحيص.

- التفكّر مفتاح على الكون:

السالك المنشغل بمراقبة قلبه يفتح بهذا التفكر آفاقاً واسعة أمام نظره وقلبه، فيشاهد ويراقب بفؤاده ولطائفه كافة الكائنات بكل عظمتها، ابتداء من الذرات إلى السيارات، ويرى بكل وجد في تلك العوالم تجليات أسماء الله تعالى وصفاته الجليلة بألف تجلٍ وتجلٍ،

---

(٦٨) اللمعات ٤٤٥٦

(٦٩) اللمعات ٤٥٦

(٧٠) المثنوي العربي ٢٥٦

(٧١) المثنوي العربي ٢٥٧

وبهذا يرى ويحس بعلم اليقين وعين اليقين بل بحق اليقين أنه في مسجد لا منتهى له يدخلـه ما لا تستوعبه الأرقام من الجماعات.[٣٤٥]

ثالثا: حقيقة الطريق النوري:

يتجلى مما سلف تقريره أن للطريق النوري حقيقة مستفادة من فيض القرآن الكـريم، طريق قصير وسبيل سوي وهو ذلك المركّب مما سبقت الإشارة إليه: العجز والفقر والشفقة والتفكّر.

١ - العجز يوصل إلى المحبوبية بطريق العبودية.
٢ - الفقر مثله يوصل إلي اسم الله " الرحمن " .
٣ - الشفقة موصلة إلى اسم الله " الرحيم " .
٤ - والتفكر يوصل السالك إلى اسم الله " الحكيم " .

و يتميّز هذا الطريق عما سواه من الطرق بما يأتي:
١ — استمد أصله من الكتاب الكريم والسنّة المطهّرة.
٢ — يعبّر عن حقيقة شرعية أكثر مما يعبّر عن طريقة صوفية.
٣ — الطريق النوري بمجموعه تعبير عن صلة العبد بربّه.
٤ — يثمر الطريق النوري صلات ظاهرة، تتجلى في الوظيفـة الاجتماعيـة للتربيـة الإيمانية.

٥ - تنحصر أوراد هذا الطريق القصير وأذكاره في اتباع السـنة النبويـة.. والعمـل بالفرائض، ولا سيما إقامة الصلاة باعتدال الأركان والعمل بالأذكار عقبها، وترك الكبائر.

- منابع هذه الخطوات من القرآن الكريم:
الخطوة الأولى: تشير إليها الآية الكريمة (**فلا تُزكّوا أنفسكم**) (النجم:٣٢).
الخطوة الثانية: تشير إليها الآية:(**ولا تكونوا كالذين نَسُوا الله فأنسـاهُم أنفُسَـهم**) (الحشر:١٩)

الخطوة الثالثة: تشير إليها الآية:(**ما أصابك مِن حسنةٍ فمن الله * ومَا أصابك مِن سيئةٍ فمِن نفسِك**)(النساء:٧٩)

---

(٧٢) السيرة ٣١

الخطوة الرابعة: تشير إليها الآية: (**كلُّ شيءٍ هالكٌ الاّ وجْهَه**) (القصص:٨٨).

وقد لخّص بديع الزمان تلك الخطوات في عبارات روحية إيمانية، ذات مخزون صوفي مؤسس له بالقرآن والسنّة المطهّرة.

الخطوة الأولى:

لا تزك نفسه أيها الإنسان، تحذير له من خطورة الوقوع تحت طائلة حب نفسه، المتمكّن بمقتضى فطرته وبحسب جبلّته، تلك الذات التي لا يحب غيرها في المقدمة. ويضحي بكل شئ من أجلها، ويمدح نفسه مدحاً لا يليق إلا بالمعبود وحده، وينزه شخصه ويبرئ ساحة نفسه، بل لا يقبل نسبة التقصير لنفسه أصلاً ويدافع عنها دفاعاً قوياً بما يشبه العبادة، حتى كأنه يصرف ما أودعه الله فيه من أجهزة لحمده سبحانه وتقديسه إلى نفسه، فيصيبه وصف الآية الكريمة: (**من اتّخذ إلهه هَواه**) (الفرقان:٤٣) فيعجب بنفسه ويعتد بها.. فلابد إذن من تزكيتها فتزكيتُها في هذه الخطوة وتطهيرها هي بعدم تزكيتها.

الخطوة الثانية:

ينسى الإنسان نفسه، فإذا رأى أي مظهر من مظاهر البلاء والامتحان رمى به غيره، غافلا عن مصيره، كأنه لا يعنيه شيء مما يطال غيره، إذ مقتضى النفس الأمارة أنها تتذكر ذاتها في مقام أخذ الأجرة والحظوظ وتلتزم بها بشدة، بينما تتناسى ذاتها في مقام الخدمة والعمل والتكليف. فتزكيتها وتطهيرها وتربيتها في هذه الخطوة هي:

العمل بعكس هذه الحالة، أي عدم النسيان في عين النسيان، أي نسيان النفس في الحظوظ والأجرة، والتفكر فيها عند الخدمات والموت.

والخطوة الثالثة:

تقتضي طبيعة النفس البشرية دائماً نسبة الخير إلى ذاتها، مما يسوقها هذا إلى الفخر والعجب. فعلى المرء في هذه الخطوة أن لا يرى من نفسه إلا القصور والنقص والعجز والفقر، وأن يرى كل محاسنه وكمالاته إحسانا من فاطره الجليل، ويتقبلها نعماً منه سبحانه، فيشكر عندئذ بدل الفخر ويحمد بدل المدح والمباهاة. فتزكية النفس في هذه المرتبة هي في سر هذه الآية الكريمة: (**قَد أفلَحَ مَنْ زَكّاها**) (الشمس:٩). وهي أن تعلم بأن كمالها في عدم كمالها، وقدرتَها في عجزها، وغناها في فقرها، (أي كمال النفس في معرفة عدم كمالها، وقدرتها في عجزها أمام الله، وغناها في فقرها إليه).

الخطوة الرابعة:

النفس تتوهم نفسها حرة مستقلة بذاها، لذا تدّعى نوعاً من الربوبية، وتضمر عصيانا حيال معبودها الحق. فبإدراك الحقيقة الآتية ينجو الإنسان من ذلك وهي: كل شيء بحد ذاته، وبمعناه الاسمي: زائلٌ، مفقود، حادث، معدوم، إلا أنّه في معناه الحرفي، وبجهة قيامه بدور المرآة العاكسة لأسماء الصانع الجليل، وباعتبار مهامه ووظائفه: شاهد، مشهود، واجد، موجود.

فتزكيتها في هذه الخطوة هي معرفة: أن عدمها في وجودها ووجودها في عدمها، أي إذا رأت ذاها وأعطت لوجودها وجوداً، فإها تغرق في ظلمات عدم يسع الكائنات كلها. يعني إذا غفلت عن موجدها الحقيقي وهو الله، مغترّة بوجودها الشخصي فإها تجد نفسها وحيدة غريقة في ظلمات الفراق والعدم غير المتناهية، كأها اليراعة في ضيائها الفردي الباهت في ظلمات الليل البهيم. ولكن عندما تترك الأنانية والغرور ترى نفسها حقاً إها لا شيء بالذات، وإنما هي مرآة تعكس تجليات موجدها الحقيقي. فتظفر بوجود غير متناه وتربح وجود جميع المخلوقات.

نعم، من يجد الله فقد وجد كل شيء، فما الموجودات جميعها إلاّ تجليات أسمائه الحسنى جل جلاله.

الخاتمة:

يستشف مما سبق بيانه، أنّ الطريق النوري يمتاز بالسير في رحاب القرآن، والسنّة المطهرة، فهي أسسه التي استمد منها، و هو مما حلاه باليسر والفطرية والوضوح من جهة، وكونه طريقا عموميا لا شطح ولا خزعبلات فيه من جهة أخرى، فهو حقيقة شرعية أكثر مما هو طريقة صوفية، كما أنّه وليد مكابدة تفكرية (تدبّرية) وتمثّلات اجتماعية، تدل عليها مؤلفات الشيخ عبارة وإشارة.

مصادر البحث:

عمدتنا في إنجاز هذا العمل كليات رسائل النور الطبعات الأولى، دار سوزلر، للنشر-استانبول، تركيا(١٩٩٢-١٩٩٨):

١ — الكلمات، تأليف بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي
٢ — المكتوبات، تأليف بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي
٣ — اللمعات، تأليف بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي
٤ — الشعاعات، تأليف بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي
٥ — إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تأليف بديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق إحسان قاسم الصالحي
٦ — صيقل الإسلام، تأليف بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي
٧ — الملاحق، تأليف بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي
٨ — المثنوي العربي، تأليف بديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق إحسان قاسم الصالحي
٩ — السيرة الذاتية، تأليف بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة واعداد إحسان قاسم الصالحي

الصفات التي ساعدت في إنضاج دعوة النورسي وفكره

د. محمد بن موسى الشريف
جامعة الملك عبد العزيز – جدة

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن كتابة مناقب عظماء الرجال وحصرها وبثها لهو أمر من أجل الأعمال وأحسنها، خاصة في هذا الزمان الذي قل فيه العظماء، واحتاج الناس إلى سير قدوات يقتدون بهم في أخلاقهم وسلوكهم في خضم بحر هائج متلاطم من السخافات الإعلامية يظهر فيها كل تافه وتافهة اتخذهما الناس قدوة لهم في هذا الزمان الصعب.

ثم إن نشر سير ومناقب العظماء ممن قد تخفى مناقبهم وسر عظمتهم على كثير من الناس لهو أمر محمود مهم، وأزعم أن أستاذنا بديع الزمان النورسي هو من جملة هؤلاء الذين ضحوا وقدموا، وبذلوا وأعطوا، وهان عليهم بذل أرواحهم في سبيل نصرة هذا الدين، ثم لم يكلف أبناء الزمان أنفسهم للوقوف على أعمالهم، واستقصاء سيرهم وأخبارهم ، وهذا هو أقل درجات الوفاء تجاههم لكن لعمر الحق إن أهل هذا الزمان قد قصروا تقصيراً بيناً في تحصيل هذا الأمر، وتراخوا وضعفوا حتى وقع المحذور ألا وهو عدم وقوف أكثر الناس على أخبارهم وتفاصيل حياتهم التي هي في غاية الأهمية لكل من يريد تجديداً للدين، أو يروم رفعة للأمة وسيادة لها وتمكيناً ؛ لأن حياة أولئك تجربة فاخرة، وخبرة ثرية تحتاجها الأجيال في طريقها للنصر والتمكين، وقصة كل واحد من هؤلاء العظماء مشاعل هداية ومعالم على الطريق لا يمكن إغفالها ولا تجاوزها .

أما أستاذنا بديع الزمان النورسي فإن الداعي للكتابة عنه أعظم، والناس إلى سيرته أحوج؛ وذلك لأنه تغمض جوانب كثيرة من سيرته على جل المثقفين من المسلمين، ربما باستثناء تركيا، ولذلك أحمد لإخواننا من جماعة النور إقامة مثل هذه الندوة التي تعرف بجانب من حياة الأستاذ وعمله، فهم بذلك يقضون حق الأستاذ، ويوفون له، ويعرفون سائر المسلمين بسيرته العطرة، وليتهم إذ صنعوا هذا يكملون صنيعهم بإقامة ندوات أخرى تشرح سائر جوانب سيرته الأخرى حتى يجعلوها بارزة ظاهرة، وهذا أقل ما يجب في حق هذا الرجل العظيم .

وأزعم أن إخواننا الأتراك قد فعلوا بندوتهم هذه ما لم يفعله كثير من المسلمين الـــذين أغفلوا سير عظمائهم وروادهم، فلا أملك إلا أن أدعو الله لهم بالتوفيق والسداد، وأن يثيبهم على صنيعهم خيراً.

وأشكرهم إذ أحسنوا بي الظن، وقدموني لأتحدث في هذا المحفل العطر عن سيرة حياة رجل تتضاءل كثير من القامات وتنحني كثير من الهامات أمامها، لكن هكـــذا قـــدر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأسأل الله التوفيق والإعانة، فيما توخيته من الإبانـــة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وأزكى الصلاة وأسنى التسليم على خير خلـــق الله أجمعين، وآله وصحبه الغر الميامين.

وكتـــبـــه

محمد بن موسى الشريف

بين يدي البحث

إن المنشئ للدعوات، والمؤسس للجماعات له الأثر الأكبر على دعوته في كل زمان ومكان، سواء أكانت تلك الدعوات والجماعات إسلامية أم غير إسلامية، والناظر في التاريخ يدرك ذلك ويعرفه، فأسماء مثل حسن البنا، ومحمد الياس الكاندهلوي مؤسس جماعة التبليغ، وأبي الأعلى المودودي مؤسس الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية، وأسماء أخرى قديمة وحديثة كان لها أثر كبير جداً في قيام الدعوات والحركات والجماعات التي أسستها وأوقفت عليها جهدها ووقتها وحياتها، فكان ذلك العمل المقدم هو الغيث الذي أنبت الثمار بعد ذلك، و لم يشذ الأستاذ بديع الزمان النورسي عن هذه القاعدة؛ فجهاده في سبيل الله تعالى وتحمله لأشد أنواع الأذى من السجن والنفي والتضييق والحجر، وكتاباته الإيمانية وكلامه المؤثر، وصبره العجيب، وحسن صلته بالله تعالى كل ذلك كان بمنزلة لبنات الأساس في البناء الإسلامي الذي سمي بالنور بعد ذلك، ولولا الأنوار التي أفاضها الله تعالى على ذلك الأستاذ في زمن الظلام لما أضاءت جماعة النور، ولولا توفيق الله تعالى له لما وفقت جماعة النور في نشر رسائلها وتعاليمها لملايين الناس، ولولا الصفات التي جعلها الله تعالى فيه وثبته عليها لما استطاع ذلك البناء الشامخ أن يقوم ويشتد.

وكلما كانت صلة المؤسس بربه قوية، وإخلاصه عظيماً كان بناؤه الذي بناه أرسخ، وأعظم أثراً وأكمل عطاءاً، وهذه سمة بارزة في كل من أسس عملاً وأقام بناء، وأستاذنا – فيما يظهر واضحاً جلياً في ثنايا سيرة حياته – كان قد اكتمل له من الصفات والسجايا والمزايا ما ساعده على إقامة هذا البناء الراسخ والعلم الشامخ، ومن فضل الله تعالى عليه أنه لم يغادر هذه الدنيا إلا وقد ترك خلفه جيلاً يؤمن بدعوته، وأشخاصاً يثقون بفكرته، فصار بذلك في مصاف المؤسسين العظام الذين غيروا مجرى التاريخ، واستطاعوا أن يجددوا المسيرة ويضيئوا الطريق.

وإن الصحوة الإسلامية اليوم – وهي تتلمس طريقها في الظلمات حولها نحو ضياء النصر والتمكين– لفي أمس الحاجة إلى هذه الصفات الجليلة التي كان يتصف بها الأستاذ بديع الزمان النورسي لتربي عليها النشء الإسلامي الجديد إن شاء الله تعالى، فإنني قد قلت

مراراً — وأقولها بدون مواربه ولا تردد– إن الصحوة الإسلامية اليوم لم تؤت أكلها وثمارها المرجوة، و لم تصل بعد إلى ما ينبغي أن تصل إليه إثر تضحيات الرواد الأوائل وبذلهم وعطائهم بسبب ما يعتري كثيراً من أبنائها من الضعف والتراخي، وسقوط الهمة، وقلة البذل، وتدني العطاء، هذا هو السبب الأول في ظني وتقديري لتعثر المشروع الإسلامي العام، ولذلك كنت سعيداً بهذه الندوة وأمثالها لأنها تدعو — بطريق غير مباشرة – العاملين إلى التحلي بهذه الصفات، وإلى التمسك بهذه الخلال، فإنه بدون صبر ويقين، وبذل وعطاء لن يحصل لهذا الدين من التمكين ما يرجوه عباد الله تعالى المؤمنون، وما أشد حاجة تركيا وأهلها اليوم إلى الاستنارة بسيرة هذا الرجل الكبير، والاستفادة من سيرته خاصة وأن إخواننا الأتراك اليوم يتلمسون طريقهم للعودة إلى ما كانوا عليه من مجد وسيادة وعز وتمكين، وأسأل الله أن ييسر لهم أسباب ذلك، وأن يقيهم شر المهالك، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الصفات التي ساعدت في إنضاج دعوته وفكره:

إن الصفات التي كان يتحلى بها الأستاذ بديع الزمان النورسي كانت من القوة والثبات إلى الغاية الرفيعة التي مكنته من إحكام دعوته وإنضاج فكره، وهذه الصفات هي:

أولاً: قوة الإيمان وعظم اليقين:

إن لقوة الإيمان وعظم اليقين أثراً رئيساً في حياة كل إنسان يرغب في عمل مؤثر وتجديد قوي في دنيا الناس، والرسل الكرام والأنبياء العظام هم أقوى الناس إيماناً وأعظمهم يقيناً، وهكذا أصحابهم ومن سار سيرهم ودعا بدعوتهم، والدعوة بدون الإيمان القوي واليقين العظيم مثلها كمثل بستان زاه لكنه بلا ثمار، أو كجدول صغير يسير في وادٍ عظيم.

والأستاذ بديع الزمان قد أوتي حظاً من الإيمان واليقين نحسبه كذلك ولا نزكيه على الله — تعالى — كما يظهر ذلك جلياً في مراحل حياته، وكما يظهر ذلك في أثره على المحيطين به، وعلى ذلك بنى دعوته فقد قال:

"غايتي إصلاح الأسس التي يبنى عليها الإيمان، فإذا أصبح الأساس صلباً قوياً فلا يؤثر فيه مؤثر بعد حتى الزلازل"[٣٤٦].

وقال:

"عصرنا عصر حفظ الإيمان"[٣٤٧].

وقال:

"إن دعوتنا هي الإيمان...وإن زماننا هذا هو زمان خدمة الإيمان، ووظيفتنا هي الإيمان، وخدمتنا تنحصر في الإيمان"[٣٤٨]

ومن الأمثلة الدالة على إيمانه ويقينه تأملاته- التي اشتهر بها- في الكون وبدائع صنع الله تعالى فيه، فاستمع إليه حين يقول:

"بينما كنت على قمة جبل في بارلا أيام منفاي، أسرح النظر في أشجار الصنوبر والقطران والعرعر، التي تغطي الجهات، وأتأمل في هيبة أوضاعها وروعة أشكالها وصورها إذ هب نسيم رقيق حوّل ذلك الوضع المهيب الرائع إلى أوضاع تسبيحات وذكر جذابة واهتزازات نشوة شوق وتهليل، وإذا بذلك المشهد البهيج السار يتقطر عبراً أمام النظر، وينفث الحكمة في السمع، وفجأة خطرت ببالي الفقرة الآتية بالكردية لأحمد الجزري[٣٤٩]:

"يارب! إن كل حي يتطلع من كل مكان، فينظرون معاً إلى حصنك، ويتأملون في روائع الأرض التي هي معرض صنعك، فهم كالدعاة الأدلاء، ينادون من كل مكان، من الأرض، ومن السماوات العلى إلى جمالك.

إلى أن يقول:

أما الروح فقد تعلمت من هذه المشاهد:

إن الأشياء تتوجه إلى تجليات أسماء الصانع الجليل بالتسبيح والتهليل فهي أصوات وأصداء تضرعاتها وتوسلاتها.

---

[٣٤٦] "ذكريات" : ١٥٥/١.

[٣٤٧] "سيرة ذاتية ص٥٢٤.

[٣٤٨] "ذكريات": ٤٤١/٤ نقلاً عن "سيرة ذاتية" ص٥٤٢.

[٣٤٩] قال الأستاذ إحسان الصالحي:هو الملا الجزري، أصله من جزيرة بوتان (جزيرة ابن عمر) واسمه الشيخ أحمد، ولد عام (٥٤٠هـ) حيث كان يحكم الجزيرة الأمير عماد الدين وهو صاحب إمارة فيها، له غزليات غزيرة مدونة في ديوانه المسمى ديوان الملا الجزري:"سيرة ذاتية".

أما القلب فإنه يقرأ من النظم الرفيع لهذا الإعجاز سر التوحيد في هذه الأشجار كأنها آيات مجسمات.

أي أن في خلق كل منها من خوارق النظام وإبداع الصنعة وإعجاز الحكمة ما لو اتحدت أسباب الكون كلها، وأصبحت فاعلة مختارة لعجزت عن تقليدها.

أما العقل فقد وجد انتظام الخلقة ونقش الحكمة وخزائن أسرار عظيمة في هذه الأصوات اللطيفة منبعثة من الأشجار والحيوانات معاً، ومن أنداء الشجيرات والنسائم، وسيفهم أن كل شيئ يسبح الصانع الجليل بجهات شتى.

وقال أيضاً:

كنت يوماً على ذروة قمة من قمم جبل "جام" نظرت إلى وجه السماء في سكون الليل وإذا بالفقرات الآتية تخطر ببالي، فكأنني استمعت خيالاً إلى ما تنطق به النجوم بلسان الحال، كتبتها كما خطرت دون تنسيق على قواعد النظم والشعر لعدم معرفتي بها:

واستمع إلى النجوم أيضاً، إلى حلو خطابها الطيب اللذيذ.

لترى ما قرّره ختم الحكمة النيّر على الوجود.

إنها جميعاً تهتف وتقول معاً بلسان الحق:

نحن براهين ساطعة على هيبة القدير ذي الجلال.

نحن شواهد صدق على وجود الصانع الجليل وعلى وحدانيته وقدرته.

نتفرج كالملائكة على تلك المعجزات اللطيفة التي جمّلت وجه الأرض.

فنحن ألوف العيون الباصرة تطل من السماء إلى الأرض وترنو إلى الجنة.

نحن ألوف الثمرات الجميلة لشجرة الخلقة، علّقتنا يد حكمة الجليل ذي الجلال على شطر السماء وعلى أغصان درب التبانة.

فنحن لأهل السماوات مساجد سيارة، ومساكن دوارة، وأوكار سامية عالية، ومصابيح نوّارة، وسفائن جبارة، وطائرات هائلة!

نحن معجزات قدرة قدير ذي كمال، وخوارق صنعة حكيم ذي جلال ونوادر حكمة، ودواهي خلقة، وعوالم نور.

هكذا نبيّن مائة ألف برهان وبرهان، بمائة ألف لسان ولسان، ونُسمعها إلى من هــو إنسان حقاً.

عميت عين الملحد لا يرى وجوهنا النيرة، ولا يسمع أقوالنا البينة، فنحن آيات ناطقــة بالحق.

سكتنا واحدة، مسبّحات نحن، عابدات لربنا، مسخرات تحت أمره، نذكره تعالى(٣٥٠).

ولقوة إيمانه هذه كان أثره فيمن حوله عظيماً، فتلاميذه أحاطوا به إحاطــة الســوار بالمعصم، والقلادة بالعنق فلم يتركوه، بل إن بعضهم آثر السجن مع الشيخ علــى الحريــة بدونه،وهذا دال على أثر كبير ولا شك، وهناك مثالان من غير تلاميذه:

الأول:

كان هناك طبيب في بلدة أميرداغ متحلل من تعاليم الإسلام، بعيد عن الطريق السوية، ولما كان الأستاذ هناك دعي إلى المحاكمة في بلدة سامسون، وكان لا بد من تقديم تقريــر طبي عن حالة الأستاذ إلى هيئة المحكمة، فجاؤوا بهذا الطبيب، وكان الأستاذ ممدداً علــى فراشه يعاني من مرض شديد، ومع ذلك اجتمع بالطبيب ساعات طويلة، وأهداه كتابــاً، وأوصاه بالصلاة ودعاه إلى الله تعالى، فما كان من الطبيب بعد أن خرج من عند الأســتاذ إلا أن قال :

"يا خسارتنا: لم نتعرف على هذا العالم من قبل؛ فقد أصبحت مديناً لــربي بقضــاء الفوائت"(٣٥١)

والمثال الآخر:

كان الأستاذ قد اجتمع في إسطنبول بالمليونير اليهودي عمانويل قراصوا(٣٥٢) الذي أراد التأثير فيه "لكن هذا اليهودي سرعان ما قطع الاجتماع وتركه هرباً من تأثير شخصية بديع الزمان، إذ قال وهو لا يكاد يصدق نفسه:

---

(٣٥٠) "سيرة ذاتية" ص ٢٢٨-٢٣١ بتصرف.

(٣٥١) ذكريات:١٧٢/٢ نقلاً عن "سيرة ذاتية" ص٥٢٦.

لقد كاد هذا الرجل العجيب أن يزجني في الإسلام بحديثه"[٣٥٣].

تلك كانت أمثلة على قوة إيمانه وعظم يقينه مما جعل مَن حوله يتأثرون به، ويرتضون طريقته وسيرته ولو كانوا من جملة أعدائه ومبغضي دعوته.

وإن إيمانه القوي هذا هو الذي أنقذ الله به مئات الآلاف من الناس في زمان سرت به موجة الإلحاد والكفر سريان النار في الهشيم، حيث أثمرت قوة الإيمان — التي كانت تتأجج في صدر بديع الزمان – رسائل نورانية إيمانية عرفت باسم "رسائل النور" كان لها بفضل الله — تعالى – الأثر الأعظم في حفظ إيمان مئات الآلاف من الشباب والشابات في تركيا في وقت خطير صعب، وصدق شوقي – رحمه الله تعالى– حين وصف تركيا آنذاك بقوله:

يا أخت أندلس عليك سلام ... هوت الخلافة عنك والإسلام

نزل الهلال عن السماء فليتها ... طويت وعم العالمين ظلام

وصدقت مريم جميلة — اليهودية الأمريكية التي أسلمت – حين قالت:

"إنه ليس بمبالغة أن نقول إن ما تبقى من الإيمان الإسلامي في تركيا إنما يرجع إلى الجهود المثابرة لبديع الزمان النورسي"[٣٥٤].

ثانياً: حسن الصلة بالله تعالى:

إن إحسان الصلة بالله تعالى مفتاح مهم أساس لفتح أقفال المشكلات والمعضلات، وهي علامة فلاح العبد، ودلالة على عناية الله تعالى به، وأزعم أن الأستاذ كان حسن الصلة بالله تعالى، وهذا يبدو واضحاً جلياً من ثنايا سيرته العطرة، فمن ذلك:

أ– التعبد:

كان الأستاذ حسن العبادة، من صلاة وصيام وذكر وغير ذلك، وإليكم عدداً من الأمثلة على هذا:

---

[٣٥٢] وهو أحد الثلاثة الوفد الذين أبلغوا السلطان عبدالحميد رحمه الله تعالى بقرار العزل، وقال الأستاذ إحسان الصالحي"العضو البارز في المحفل الماسوني، ورئيس الحاخامين في اسطنبول، والنائب عن سلانيك، أدى دوراً كبيراً في خلع السلطان عبدالحميد الثاني": سيرة ذاتية ص٨٧.

[٣٥٣] "سيرة ذاتية" ص٨٧.

[٣٥٤] "سيرة ذاتية" ص٨٧.

١- كان حال ذكره يجلس على ركبتيه متأدباً كحال الجالس للتشهد، وتدوم هذه الجلسة ساعات وهو على حاله حتى تقرحت أصبع قدمه.[٣٥٥]

٢- كان له أوراد لمدة أربع ساعات كل ليلة لكنه بعد سنة ١٣٧٤-١٩٥٤ قصرها إلى ساعتين[٣٥٦]،وذلك لكبره وتعبه.

٣- في النصف الآخر من شهر رمضان كان يحيى الليل كله ولا ينام فيه[٣٥٧].

٤- كان يدعو كل ليلة قبل الفجر بعد انتهائه من أوراده مدة ساعة كاملة[٣٥٨].

٥- كان يقيم الصلاة على وقتها لا يمنعه من ذلك الأعذار القوية، فهذا أحد تلاميذه يقول:

"خرجنا يوماً من إسبرطة إلى أميرداغ، و لم يبق إلا خمس دقائق للوصول إلى أميرداغ، وإذا بوقت الصلاة قد حان، فنظر الأستاذ إلى ساعته فأقام بنا الصلاة، و لم يكن الأستاذ يبالي بالبرد القارس ولا بالمطر إذا ما حان وقت الصلاة، فكنا نؤديها في وقتها في الحل والترحال"[٣٥٩].

ب- خشية الله ومخافته:

كان الأستاذ حال مناجاته وتضرعه يرتعد من خشية الله تعالى ومخافته حتى وصفه أحد تلاميذه بأن مرارته تكاد تنفجر!![٣٦٠]

وقد أورثه حسن صلته بالله تعالى عدداً من الأمور منها:

١- عفافه وبعده عن الحرام:

الأستاذ لم يتزوج لأنه كان يرى أن زوجه ستظلم معه لشظف حياته وما فيها من تضييق من سجن ونفي، ولأنه يريد ألا يقيد نفسه بزوج وأولاد قد يكونون حجر عثرة في

---

[٣٥٥] "ذكريات": ١٢٤/١ نقلاً من سيرة ذاتية ص٥٢١.
[٣٥٦] "سيرة ذاتية" ص٥٢٠.
[٣٥٧] المصدر السابق ص٥١٩.
[٣٥٨] المصدر السابق.
[٣٥٩] المصدر السابق ص٥١٧ نقلاً عن "ذكريات":٦٤/٣.
[٣٦٠] المصدر السابق:٥٢١ نقلاً عن "ذكريات":١٢٤/١.

صدعه بالحق ودعوته إلى الله تعالى بشجاعة وجرأة بلا خوف على زوج أو ولد[٣٦١]، لكنه مع عزوبته الطويلة لم يتطلع إلى الحرام ولو في نظرة واحدة في عنفوان شبابه فكيف فيما بعد ذلك، واستمع إليه وهو يحكي حياته في اسطنبول في شبابه:

" كنت أستبدل كل أسبوع ملابسي وأختار أجملها وأكثرها أناقة أيام كنت في استانبول ذات الحياة البراقة البهيجة ، كنت أذهب إلى أجمل مناطقها حتى أن أصدقائي العلماء التفتوا إلى هذه الظاهرة، فعينوا أحدهم – دون علمي – مراقباً لتصرفاتي، وأوصوه بملاحظة جميع ما أقوم به وأعمل.

وبعد مضي ثلاثة أيام – من المراقبة الخفية – جمعتنا جلسة معهم، فقالوا لي:

يا أخانا سعيد أنت على حق مهما عملت من عمل، فأنت مسدد إلى الحق وسيوفقك الله.

استغربت من هذا الكلام ومن حكمهم هذا عليّ، وعندما استفسرت عن السبب قالوا:

كنا نراقبك منذ ثلاثة أيام ونحصي تصرفاتك في جميع مناطق استانبول، ومن دون علمك، فلم نر ما يخالف الإسلام قط بل رأيناك منهمكاً بنفسك دون الآخرين، ولهذا نسأل الله أن يوفقك في مسعاك.

نعم! يا إخوتي كما أن ناراً صغيرة بل حقيرة –كعود الكبريت– تحرق غابة عظيمة كثيفة تدريجياً وتجعلها أثراً بعد عين، كذلك النظرة إلى النساء تحرق عمل المؤمن اليومي شيئاً فشيئاً، وأخشى أن تكون عاقبته وخيمة، ثم أضاف:

إن سعيداً القديم وهو في عنفوان شبابه وفي قلب اسطنبول وطوال عشر سنوات لم ينظر نظرة حرام ولو مرة واحدة، ولله الحمد.

- وحادثة أخرى تدل على عفافه وبعده عن النظر الحرام بينها بقوله:

"مكثت سنتين في مضيف الوالي المرحوم عمر باشا في بتليس بناء على إصراره الشديد، ولفرط احترامه للعلم والعلماء، وكان له من البنات ست: ثلاث منهن صغيرات، وثلاث بالغات كبيرات، ومع أني كنت أعيش معهم في سكن واحد طوال سنتين إلا أنني لم أكن

---

[٣٦١] "سيرة ذاتية" ص٤٩٣ نقلاً عن أميرداغ :٢/٤٠١.

أميز بين الثلاث الكبيرات؛ إذ لم أكن أسدد النظر إليهن كي أعرفهن وأميز بينهن، حتى نزل أحد العلماء يوماً ضيفاً علي فعرفهن في يومين فقط وميز بينهن، فأخذت الحيرة الذين من حولي لعدم معرفتي إياهن، وبدأوا بالاستفسار:

– لماذا لا تنظر إليهن؟

– فكنت أجيبهم: صون عزة العلم يمنعني من النظر الحرام".[٣٦٢]

٢– الكرامات:

قد رويت عن الأستاذ كرامات باهرة، والكرامة مكافأة من الله تعالى للعبد على حسن صلته به سبحانه، وهي لا تطلب غالباً لكنها توهب، ومذهب أهل السنة والجماعة إثباتها بشرائطها الشرعية وعدم إنكارها، ويثبتونها للعبد الصالح الذي استقامت أحواله مع الشريعة المطهرة، وأحسب أن الأستاذ –رحمه الله تعالى– كان كذلك، ومن جملة كراماته ما يلي:

أ– عندما هرب من السجن في روسيا أيام الحرب العالمية الأولى كان الأمر يقتضي منه أن يسافر على قدميه مسافة طويلة جداً تقدر بسنة مشياً على الأقدام لكنه قطعها في زمن يسير، وقد قال عن هذه الحادثة:

"إنني لا أزال مندهشاً كيف استطعت الفرار بعد أيام قليلة، وأقطع بصورة – غير متوقعة– مسافة لا يمكن قطعها مشياً على الأقدام إلا في عام كامل، و لم أكن ملماً باللغة الروسية، لقد تخلصت من الأسر بصورة عجيبة محيرة بفضل العناية الإلهية التي أدركتني بناء على عجزي وضعفي، ووصلت استنبول ماراً بوارسو وفيينا، وهكذا نجوت من الأسر بسهولة تدعو إلى الدهشة حيث أكملت سياحة الفرار الطويل بسهولة ويسر كبيرين بحيث لم يكن لينجزها أشجع الأشخاص وأذكاهم وأمكرهم، وممن يلمون باللغة الروسية[٣٦٣] .

ب– سيق إلى مدينة بتليس مكبلاً بالأغلال من ماردين مصحوباً باثنين من الحرس، فحان وقت الصلاة في الطريق فطلب من حارسيه فك القيود فأبيا، ففكها بسهولة ويسر وألقاها أمامهما ، فبقي الحارسان مبهوتين فقالا للأستاذ :كنا حراسك إلى الآن، أما بعد الآن فنحن خدامك.

---

[٣٦٢] "سيرة ذاتية" ص ٦٠ نقلاً عن أميرداغ: ٣١٢/١.

[٣٦٣] "اللمعات" ص٣٥٩ نقلاً عن سيرة ذاتية ص١٣٣.

وحينما كان يُسأل: كيف انحلت القيود؟

يقول: وأنا كذلك لا أعلم، وإن هو إلا كرامة الصلاة ليس إلا[٣٦٤] .

ج- سممه أعداؤه عدة مرات ونجا من الموت، وكان أصعب تلك المرات تسميمه في سجن أفيون[٣٦٥] وبهذه الكرامات حفظه الله تعالى، وحببه إلى الناس، وأبقى دعوته.

ثالثاً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

كان جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حياة الشيخ بارزاً في جملة أحداث في مراحل حياته المختلفة، فمن ذلك:

أ- نهيه عن الظلم:

في إحدى الليالي رأى في المنام الشيخ عبدالقادر الكيلاني — قدس الله سره - وهو يخاطبه:

- ملا سعيد! اذهب إلى عشيرة ميران "مصطفى باشا"[٣٦٦]، وادعه إلى الهداية والرشاد والإقلاع عن الظلم، وليقم الصلاة ويأمر بالمعروف، واقتله إن لم يستجب.

بادر الملا سعيد إلى الذهاب إلى عشيرة ميران قاصداً خيمة مصطفى باشا، ولكن لم يجده فجلس ليأخذ قسطاً من الراحة. وما إن دخل مصطفى باشا الخيمة حتى هب الحاضرون قياماً احتراماً له، سوى الملا سعيد لم يحرك ساكناً. لمح الباشا ذلك فسأل أحد أمراء العشيرة "فتاح آغا" عن هذا الشاب فأعلمه أنه "ملا سعيد المشهور" وحاول الباشا كظم غيظه، وهو الذي ما كان ينشرح للعلماء، وسأل الملا سعيد:

- لم أتيت إلى هنا؟

---

[٣٦٤] "سيرة ذاتية" ص٣٨٥.

[٣٦٥] "سيرة ذاتية" ص٣٨٥.

[٣٦٦] قال الأستاذ إحسان الصالحي: كان السلطان عبدالحميد الثاني قد منح رتبة الباشوية له ولبعض رؤساء العشائر الكردية في شرقي البلاد حيث كان هؤلاء يؤلفون بأتباعهم المسلحين ميليشيات تقوم بمهمة الحراسة على الحدود مع روسيا وتعاون الجيش النظامي ، وتحفظ الأهالي من هجمات العصابات الأرمنية المسلحة، ويضمن السلطان بهذه الطريقة ولاء رؤساء العشائر للدولة ويحول دون قيامهم بحركات عصيان ضدها.

– جئت لإرشادك إلى الحق فإما أن تتخلى عن الظلم وتقيم الصلاة، أو أقتلك!

لم يتحمل الباشا هذا الكلام فاندفع خارج الخيمة، وتجول قليلاً ثم عاد إليها وكرر السؤال نفسه.

فأجابه الملا سعيد: لقد قلت لك جئت من أجل ما ذكرت!

أشار الباشا إلى السيف المعلق بعماد الخيمة وقال بسخرية :

– أبهذا السيف الصدئ تقتلني!؟

– اليد هي التي تقطع لا السيف!

مرة أخرى ترك الباشا الخيمة وهو يفور غضباً، ثم دخلها مخاطباً الملا سعيد:

– إن لي جمعاً غفيراً من العلماء في منطقة الجزيرة "جزيرة ابن عمر" وسأعقد مناظرة علمية فيما بينكم فإن أقمت الحجة عليهم وألزمتهم أنفذ طلبك وإلا فسألقيك في النهر.

قال الملا سعيد:

- كما أنه ليس من شأني إلزام جميع العلماء، فليس باستطاعتك إن تلقيني في النهر، ولكن إن تفوقت عليهم أطلب منك بندقية "ماوزر" لأقتلك بها إن لم تحافظ على وعدك.

عقب هذه المشادة العنيفة ذهبا معاً على الخيول إلى الجزيرة، ولم يتكلم الباشا مع ملا سعيد طول الطريق، ولما وصلا إلى أحراش "باني خاني" أخلد الملا سعيد إلى النوم بعد أن أصابه الإرهاق، ولما أفاق وجد علماء الجزيرة ومعهم كتبهم ينتظرون ساعة المناظرة.

انعقد المجلس، وبعد تبادل السلام دارت أقداح الشاي على الحاضرين ولكن العلماء كانوا يقلبون صفحات الكتب، مأخوذين بشهرة الملا سعيد ومنتظرين أسئلته، بينما لم يحفل الملا سعيد بالأمر، ولم يكتف بشرب شايه، بل بدأ بارتشاف الشاي الموضوع أمام اثنين أو أكثر ممن حوله من العلماء المشغولين بالنظر في الكتب.

وعندها خاطب مصطفى باشا العلماء وهو يراقب مجرى الأمور:

- على الرغم من أني لست متعلماً فإنني أرى أنكم ستغلبون أمام الملا سعيد في مناظرتكم له، لأني لاحظت أن انكبابكم على الكتب ألهاكم عن شرب الشاي، بينما شرب الملا سعيد الشاي ثم عدداً من أقداح غيره.

بدأ الملا سعيد بالملاطفة وشيء من المزاح مع العلماء ثم قال:

- أيها السادة! لقد عاهدت ألا أسأل أحداً وها أنا منتظر أسئلتكم.

فأطمأن العلماء وبدأوا بطرح ما يقارب الأربعين سؤالاً. وأجاب الملا سعيد عن الأسئلة كلها إجابات صائبة، سوى سؤال واحد أخطأ في جوابه، دون أن ينتبه إليه العلماء، حيث صدرت من الجميع علامات التصديق.

وبعد أن انفض المجلس، تبعهم الملا سعيد قائلاً:

- أرجو المعذرة لقد سهوت في جواب السؤال الفلاني ولم تفطنوا إليــه، والجــواب الصحيح هو كذا وكذا .

- فقالوا: حقاً إنك قد ألزمتنا الحجة، فإننا معترفون بذلك!

ثم باشر قسم من هؤلاء العلماء يجلسون منه مجلس الطالب لينهلوا من فيض علمه، أما مصطفى باشا فقد وفى بوعده وأهدى إلى الملا سعيد بندقيــة "مــاوزر" وبــدأ بإقامــة الصلاة[٣٦٧].

وبعد أن ظل مدة في الجزيرة توجه مع أحد طلابه "الملا صالح" إلى بيرو وهي منطقــة بدو العرب، ومكث فيها مدة حتى طرق سمعه أن مصطفى باشا قد عاد إلى عادته القديمة في ظلم الناس، فذهب إليه وأبدى له النصائح مدة ثم هدده قائلاً:

– أوَ بدأت الظلم مرة أخرى ؟ سأقتلك باسم الحق.

ولكن كاتب الباشا تدخل في الأمر وهدأ الموقف، بينما الملا سعيد استمر في تعنيفــه الباشا وتوبيخه لكثرة مظالمه، فلم يتحمل الباشا هذه الإهانات وهم بقتله فحــال شــيوخ عشيرة "ميران" دون ذلك. ثم تقرب نجل الباشا "عبدالكريم" من الملا سعيد ورجاه قائلاً:

- لا تكترث بصنيع أبي إنه لا يسمع كلاماً من أحد، عقيدته فاسدة، أرجوك رجــاء خالصاً أن تتشرف إلى مكان آخر، فمال الملا سعيد إلى كلام عبدالكريم ورجائه، وغــادر المكان متوغلاً في صحراء "بيرو".[٣٦٨]

---

[٣٦٧] "سيرة ذاتية" ص ٥٥–٥٦.

[٣٦٨] المصدر السابق ص ٥٧.

أما خاتمة أمره مع مصطفى باشا فقد حكاه هو بقوله:

لما لم يكن في مدينة "وان" عالم معروف دعاه الوالي "حسن باشا" إليها فذهب إليها واستقر فيها خمس عشرة سنة، قضاها في التجوال بين العشاير لإرشادهم وفي تدريس الطلاب. فضلاً عن تكوين علاقات مع الوالي والموظفين في المدينة. كان جل اهتمامه في هذه الفترة المصالحة بين العشاير. فما كان يطرق سمعه نزاع بين العشاير إلا ويتوجه إليهم ويرشدهم، حتى أنه استطاع أجراء صلح بين "شكر آغا" و "مصطفى باشا" رئيس عشيرة ميران بينما أخفقت الإدارة العثمانية في فض النزاع بينهما.وعندها خاطب الملا سعيد مصطفى باشا:

- ألم تتب إلى الآن؟
- سيدنا إنني طوع كلامك !

وقدم له فرساً مع كمية من النقود، إلا أن الملا سعيد رفض ذلك قائلاً:

– ألم تسمع أنني لم آخذ مالاً من أحد لحد الآن؟ فكيف آخذه من أمثالك من الظالمين! يبدو أنكم قد أفسدتم توبتكم! وعلى هذا لا تصل إلى الجزيرة بسلامة.

– وفعلاً مات مصطفى باشا في الطريق و لم يصل إلى الجزيرة. وكأن دعاءه عليه قد استجيب[٣٦٩].

ت– نهيه عن المنكر:

وكان هذا سمة بارزة في حياة الشيخ رحمه الله تعالى، فمن ذلك أنه قد طرق سمعه يوماً في "بتليس" أن الوالي وعدداً من الموظفين يشربون الخمر فثارت ثائرته وقال :

لن يرتكب هذا الفعل شخص يمثل الحكومة في مدينة مسلمة مثل بتليس! فذهب فوراً إلى مجلس الخمر، ووعظهم موعظة بليغة أولاً واستهلها بحديث شريف حول الخمر، ثم أخذ ينهال عليهم بكلام جارح، وكانت يده على مسدسه يتوقع إشارة من الوالي للتعدي عليه، إلا أن الوالي كان حليماً صبوراً لم ينبس ببنت شفة.

وعندما انصرف الملا سعيد من المجلس قال له مرافق الوالي:

---

(٣٦٩) "سيرة ذاتية" ص ٦٢.

- ماذا فعلتم؟ إن كلامكم هذا يوجب الإعدام.

- لم يرد على خاطري الإعدام، بل كنت أحسب العقاب سجناً أو نفياً، وعلى كل حال ما ضر إن مت في سبيل دفع منكر واحد!

وبعد ما يقرب من ساعتين من عودته من المجلس، أرسل إليه الوالي شرطيين لاستدعائه، فدخل عليه واستقبله الوالي بإعظام وإجلال، وهم بتقبيل يده، وقال :

لكل أحد أستاذ قدوة، وأنت أستاذي القدوة"[٣٧٠].

وهكذا برزت عبادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واضحة في حياة الشيخ – رحمه الله تعالى – وهذه العبادة تلاشت في نفوس أكثر الدعاة اليوم في شطرها الإنكاري، فلم يعودوا ينهون عن المنكر إلا قليلاً، ويرون المنكرات تمتلئ بها الأسواق والشوارع فلا يفكرون في وسيلة ينكرون بها على الناس منكراتهم، بينما طريقة الصالحين في كل زمان ومكان غير ذلك، والله تعالى امتدح المؤمنين فقال: (**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ**)[٣٧١]وليلاحظ القارئ كيف قدم الله تعالى ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان لإبراز أهميته واختصاصه بهذه الأمة والتصاقه بها أكثر من غيرها من الأمم.

رابعاً: العفة عن أموال الناس:

لقد أثر عن الأستاذ بديع الزمان تعففه عن أموال الناس، وعدم قبوله الزكاة من أحد، وعدم قبوله الهدايا على فقره الشديد وحاجته، وقد قال رحمه الله تعالى:

" كنت أرفض قبول أموال الناس وهداياهم منذ نعومة أظفاري، وما كنت أتنازل لإظهار حاجتي للآخرين رغم أنني كنت فقير الحال في حاجة إلى المال، وما كنت زاهداً ولا صوفياً ولا صاحب رياضة روحية فضلاً عن أنني ما كنت من ذوي الحسب والنسب والشهرة.

فإزاء هذه الحالة كنت أحار من أمري كما كان يحار من يعرفني من الأصدقاء.

---

[٣٧٠] "سيرة ذاتية" ص٥٩.

[٣٧١] سورة آل عمران: آية ١١٠.

ولقد فهمت حكمتها قبل بضع سنين، إنها كانت لأجل عدم الرضوخ للطمع والمـــال، ولأجل الحيلولة دون مجيء اعتراض على رسائل النور في مجاهداتها، فقد أنعم علي الباري – عز وجل– تلك الحالة الروحية وإلا كان أعدائي الرهيبون ينـــزلون بي ضربتهم القاضية من تلك الناحية.

ويا إخوتي تعلمون أنني لا أقبل الصدقات والمعونات، كما لا أكون وسيلة لأمثالها من المساعدات، لذا أبيع ملابسي الخاصة وحاجياتي الضرورية، لأبتاع بثمنها — من إخـــوتي — كتبي التي استنسخوها وذلك لأحول دون دخول منافع دنيوية في إخلاص رسائل النور، لئلا يصيبها ضرر، وليعتبر من ذلك الإخوة الآخرون، فلا يجعلوا الرســـائل وســـيلة لأي شـــئ كان.[٣٧٢]

وقال أيضاً:

إن السبب المهم للاستغناء عن الناس هو ما يقوله ابن حجر[٣٧٣] — الموثوق حســـب مذهبنا الشافعي–: يحرم قبول ما يوهب لك بنية الصلاح إن لم تكن صالحاً.

نعم إن إنسان هذا العصر يبيع هديته البخسة بثمن باهظ، لحرصه وطمعـــه، فيتصـــور شخصاً مذنباً عاجزاً مثلي ولياً صالحاً، ثم يعطيني رغيفاً هديةً، فإذا اعتقدت أنني صالح — حاش لله– فهذا علامة الغرور، ودليل على عدم الصلاح، وإن لم أعتقد بصلاحي فقبـــول ذلك المال غير جائز لي.

وأيضاً أن أخذ الصدقة والهدية مقابل الأعمال المتوجهة للآخرة يعني قطـــف ثمـــرات خالدة للآخرة بصورة فانية في الدنيا.

هذا وإن أسباباً كثيراً تمنعني عن قبول الهدايا، أذكر أهمها وهو: الإخـــلال بالعلاقـــة الخالصة الحميمة بيني وبين طلاب النور، علاوة على أنني لست محتاجاً حاجة ماسة، وذلك بفضل الالتزام بالاقتصاد والقناعة والبركة ، بل لا أستطيع أن أمد يدي إلى أموال الـــدنيا؛ فذلك خارج طوقي وإرادتي .

---

(٣٧٢) "أميرداغ" : ٣١٨/١.

(٣٧٣) قال الأستاذ إحسان الصالحي: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي (٩٠٩–٩٧٤هـ) شيخ الإسلام أبو العباس: فقيه باحث مصري له تصانيف كثيرة منها "الفتاوي الهيتمية" وشرح الأربعين النووية" وتحفة المحتاج لشرح المنهاج في فقه الشافعية وشرح مشكاة المصابيح للتبريزي" عن الأعلام للزركلي: ٢٣١/١.

وسأبين سبباً دقيقاً واحداً من بين الأسباب الكثيرة:

أتى صديق حميم تاجر بمقدار من الشاي يبلغ ثمنه ثلاثين قرشاً فلم أقبله.

فقال: لا تردني خائباً يا أستاذي، لقد جلبته لك من استانبول! فقبلته ولكن دفعت له ضعف ثمنه.

فقال: لم تتعامل هكذا يا أستاذي، ما الحكمة فيه؟

قلت: لئلا أنـــزل قيمة الدرس الذي تتلقاه – وهو بقيمة الألماس – إلى قيمـــة قطـــع زجاجية تافهة. فإنني أدع نفعي الخاص لأجل نفعك أنت!

نعم! إن درس الحقيقة الذي تأخذه من أستاذ لا يتنازل إلى حطام الدنيا ولا تزل قدمه إلى الطمع والذل، ولا يطلب عوضاً عن أدائه الحق والحقيقة، ولا يضطر إلى التصنع، هـــذا الدرس هو بقيمة الألماس.

بينما الدرس الذي يتلقى من أستاذ اضطر إلى أخذ الصدقات، وإلى التصنع للأغنيـــاء، وإلى التضحية حتى بعزته العلمية في سبيل جلب أنظار الناس إليه، فمال إلى الرياء أمام الذين يتصدقون عليه، وبهذا جوّز أخذ ثمرات الآخرة في الدنيا، أقول : إن هذا الدرس نفسه يهون في هذه الحالة إلى مستوى قطع زجاجية.[٣٧٤]

وقال أيضاً:

"إني على قناعة تامة الآن من أن حكمة هذا الأمر هي: عدم جعل رسائل النور — التي هي خدمة سامية خالصة للإيمان والآخرة – في آخر أيامي وسيلة لمغانم الدنيا، وعدم جعلها ذريعة لجر المنافع الشخصية.

فلأجل هذه الحكمة أعطيت لي هذه الحالة، حالة النفور من تلك العادة المقبولة، وتلك السجية غير المضرة، والهروب منها، وعدم فتح يد المسألة من الناس.

فرضيت بالعيش الكفاف وشدة الفقر والضنك وذلك لئلا يفسد الإخلاص الحقيقـــي الذي هو القوة الحقيقية لرسائل النور. واشعر كذلك أن في هذا الأمر إشارة فيها مغـــزى،

---

[٣٧٤] "سيرة ذاتية" ص٤٩١-٤٩٣ نقلاً عن عدة مصادر.

بأن هذه الحاجة هي التي تدفع أهل العلم إلى الانهماك في هموم العيش حتى يغلبوا على أمرهم في الزمان القابل"[٣٧٥]

وأرى والله أعلم أن السبب الأساس الذي منعه عن سؤال الناس أو قبول ما يعطونه هو الرؤيا التي رأى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام حيث رأى "أن القيامة قد قامت والكائنات بعثت من جديد، ففكر كيف يتمكن من زيارة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ثم تذكر أن عليه الانتظار في بداية الصراط الذي يمر عليه كل فرد، فأسرع إليه، وهكذا مر به جميع الأنبياء والرسل الكرام فزارهم واحداً واحداً وقبل أيديهم، وعندما حظي بزيارة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم هوى على يديه فقبلها، ثم طلب منه العلم، فبشره الرسول صلى الله عليه وسلم : سيوهب لك علم القرآن ما لم تسأل أحداً"[٣٧٦]

ولقد صدق الأستاذ رحمه الله تعالى فيما قاله عن علة امتناعه تماماً عن قبول أموال الناس، فلطالما رأينا هامات متطاولة في دنيا الناس لكنها إذا لوّح لها بالدرهم والدينار تهاوت وتهافتت وطمعت، وظهر سوء معدنها، وضعف تربيتها، وما أحسن قول القاضي علي الجرجاني[٣٧٧]:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ، ودنسوا
محياه بالأطماع حتى تجهما

---

[٣٧٥] "سيرة ذاتية" ص٤٤ نقلاً عن أميرداغ:٢/٣٦١.

[٣٧٦] "سيرة ذاتية" ص٤٥.

[٣٧٧] هو على بن عبد العزيز بن الحسن الجرجاني. أبو الحسن. ولد في جرجان وإليها نسبته. من العلماء الأعلام، رحل في طلب العلم على العراق والشام واقتبس من أنواع العلوم والآداب حتى أصبح من أعلام عصره في الأدب والعلم والشعر. وفد على الصاحب بن عباد فقربه واختص به وحظي عنده وقلده قضاء (جرجان) ثم ولاه قضاء (الري) ومنحه رتبة قاضي القضاة. كان إلى جانب علمه الوفير في الفقه شاعرا وناثرا ومتكلما، ولكنه اشتهر بالشعر والتأليف. كان شعره جزلا، نقي الألفاظ متين السبك مع سهولة وعذوبة، وأحسن فنونه الحكمة والغزل. أما نثره فسهل ممتنع، توفي في الري سنة ٣٩٢هـ ودفن في جرجان .

خامساً: الحافظة العجيبة والذكاء:

كان الأستاذ — رحمه الله تعالى – يتمتع بحافظة واعية عجيبة بحيث إنه يحفظ المقـادير العظيمة في أيسر وقت وأسرعه، ويدوم هذا الحفظ في ذاكرته سنين طويلة بحيث يسترجع محفوظه متى شاء، وقد ذهب – رحمه الله – إلى أخيه الملا عبدالله الذي كان يسكن في مدينة مجاورة – وذلك زمان الصبا – فسأله أخوه عما قرأه، فقال الأستاذ بديع الزمان:

لقد قرأت ثمانين كتاباً.

الملا عبدالله: ماذا تعني؟

بديع الزمان لقد أنهيت الكتب المقررة كلها، بل قرأت كتباً أخرى علاوة عليها.

الملا عبدالله: إذن سأمتحنك.

بديع الزمان: أنا مستعد، سل ما بدا لك!

ثم امتحنه الملا عبدالله بتوجيه الأسئلة إليه، ولما أصغى إلى أجوبته السديدة قـدر فيـه كفاءته العلمية حتى اتخذه أستاذاً له مع أنه كان قبل ثمانية أشهر تلميذاً لديه"[٣٧٨].

وقد " انكب على حفظ المتون من كل علم فحفظ عن ظهر قلب خلال سنتين مـن متون الكتب كـ"المطالع"[٣٧٩] و"المواقف" وأمثالهما من الكتب التي ترد الشبهات وتـدفع الشكوك الواردة على الدين فضلاً عن حفظه متون كتب العلوم الآلية كالنحو والصـرف والمنطق وغيرها، ومتون كتب العلوم العالية كالتفسير وعلم الكلام والحديث والفقه فبـدأ بحفظ متن كتاب المرقاة [٣٨٠] دون حواشيه وشروحه، ثم قارن بين وجهة نظـره ومبلـغ فهمه، وما ورد في حواشي الكتاب وشروحه فرأى أن جميع مسائله متطابقة لما في ذهنه إلا في ثلاث كلمات لم تتطابق مع الشرح. واستحسن العلماء عمله هذا وأعجبوا به.

---

[٣٧٨] "سيرة ذاتية" ص ٤٨

[٣٧٩] قال الأستاذ إحسان الصالحي: مطالع الأنوار في المنطق للقاضي الأرموي. اعتنى بشأنه الفضلاء شرحاً وتعليقاً.

[٣٨٠] قال الأستاذ إحسان الصالحي: مرقاة الوصول إلى علم الأصول : كتاب في المذهب الحنفي لمحمد بن فرا مروز الخسروي (ت:٨٨٥هـ).

ولهذا اهتم بحفظ تلك المتون من أمهات الكتب الإسلامية في مختلف العلوم والفلسفة، لتصبح مفاتيح للحقائق القرآنية، ورداً للشبهات الواردة على الدين.

واستمر على ذلك حتى نهاية عمره فيقول عن نفسه:

إن ومضة نور معنوي في دماغ إنسان يملك قوة حافظة لا تتجاوز حجم ظفر، هـذا الشخص أدرج في دماغه كلمات تسعين كتاباً، ويتم قراءة هذا الجزء فقط من حافظتـه في ثلاثة أشهر بمعدل ثلاث ساعات يومياً، ويمكنه أن يراجع ويخرج من تلك الحافظة ما يشاء، ومتى يشاء مما شاهده وسمعه وما تراءت أمامه من صور ومعان وكلمات أعجب بها أو تحير منها، أو رغب فيها من جميع الصور والأصوات طول عمره الذي ناهز الثمانين، كل ذلك في مجموعة في صحيفة تلك الحافظة. لذا يرى أن تلك الحافظة كأنها مكتبة ضخمة نسـقت فيها محفوظات منتظمة مرصوفة فكانت تلك الملكة نعمة عظمى؛ إذ لو كنت أجيد الكتابة لما كانت المسائل تقر في القلب، فما من علم بدأت به سابقاً إلا وكنت أكتبه في روحـي لحرماني من الكتابة الجيدة"(٣٨١)

ولقوة حفظه، وذكائه ، ومواهبه لقب ببديع الزمان.

سادساً: زهده في التنعم والأخذ من الطيبات:

كان الأستاذ – رحمه الله تعالى – زاهداً في متاع الدنيا، مقبلاً على الآخرة، جـاعلاً ذلك همه وهدفه، متجافياً عن دار الغرور، وهذا متمثل في الآتي:

– كان نومه قليلاً، وكان يرى أن حاجة الإنسان الطبيعي منه لا تتجاوز السـاعات الخمس في اليوم والليلة(٣٨٢).

– كان أكله قليلاً جداً ولا يكفي حاجة الإنسان الطبيعي(٣٨٣).

– ونفقته كانت محدودة جداً تبعاً لذلك، بحيث يكفيه المال القليل شهوراً وسـنوات، وساعده عدم زواجه على قلة نفقته.

---

(٣٨١) "سيرة ذاتية" ص ٦٠-٦١ نقلاً عن عدة مصادر.

(٣٨٢) "سيرة ذاتية " ص ٥١٨ نقلاً عن ذكريات :٥١/٣.

(٣٨٣) المصدر السابق.

- و لم يتزوج قط، وبرر هذا بإرادته أن يكون حرّ التصرف، ليس مرتبطاً بزوج ولا أولاد قد يؤثرون على قوله كلمة الحق، ولأنه يرى أن زوجه بوضعه ذلك وسجنه ونفيه الدائم ستتعب وتتضرر.[٣٨٤]

سابعاً: عزته:

صفة العزة في الأستاذ بديع الزمان النورسي واضحة، لكنها عزة ممزوجة بالتواضع الحميد؛ فلم تخرجه إلى غرور أو ترفع عن الناس، وأسمي عزته هذه الاستعلاء الإيماني، أي أن الإنسان يرى نفسه بإيمانه أعلى من الكفرة والظلمة والفساق، وهذا الاستعلاء وتلك العزة مكنته من مواجهة أعدائه بقوة، وصدعهم بالحق، وتثبيت دعوته في القلوب والعقول، وإليكم بعض المواقف بإيجاز:

١- محاكماته الكثيرة التي حوكم فيها، فأظهر دروباً من العزة عجيبة، وأفحم القضاة والمدعين، وبين رسالته ودعوته في زمن صعب، و لم يأبه بالتهديد بالإعدام والسجن الطويل والنفي[٣٨٥] .

٢- وقوفه بقوة أمام مصطفى كمال وأعضاء البرلمان في أنقرة لما رآهم يتهاونون في الصلاة، ورأى الإلحاد فيهم فاشياً، حتى أنه واجه مصطفى كمال مواجهة عزيزة قوية تتجلى في الحديث التالي، وذلك عقب أن ألقى أحد النواب في برلمان أنقرة بياناً إيمانياً قوياً نيابة عن الأستاذ بديع الزمان، فقال له مصطفى كمال:

"إننا لا شك بحاجة إلى عالم قدير مثلك، فقد دعوناك هنا للاستفادة من آرائك السديدة فاستجبتم الدعوة إلا أن أول عمل قمتم به هو كتابة أمور حول الصلاة فبذرتم الخلاف فيما بيننا.

فأجابه أجوبة شافية، ثم قال له محتداً مشيراً بإصبعه إليه:

باشا، باشا: إن أعظم حقيقة في الإسلام — بعد الإيمان – هي الصلاة، والذي لا يصلي خائن، وحكم الخائن مردود.

---

[٣٨٤] انظر "سيرة ذاتية" ص ٤٩٤ وما بعدها.

[٣٨٥] انظر مثالاً: "سيرة ذاتية" ص٣٩٠،٢٥٢.

فاضطر مصطفى كمال إلى كظم غيظه وترضيته.[٣٨٦]

٣- موقفه من الأسئلة الإنجليكانية:

احتل الإنكليز اسطنبول أيام الحرب العالمية الأولى، ودخل مع الإنكليز القساوسة والرهبان كالعادة من أجل بث باطلهم وزعزعة عقائد المسلمين، فسأل رئيس أساقفة الكنيسة الإنجليكانية ستة أسئلة، سألها دار الحكمة الإسلامية في اسطنبول، لكنه سألها بغرور وتعال، فطلب مسؤلو دار الحكمة من الأستاذ بديع الزمان الإجابة عليها — وكان عضواً فيها- في حدود ستمائة كلمة فقط كما طلب الأساقفة، فقال الأستاذ:

إن جواب هذه الأسئلة ليس ستمائة كلمة ولا ست كلمات ولا كلمة واحدة بل بصقة واحدة؛ لأنه عندما داست تلك الدول بأقدامها مضايقنا، وأخذت بخناقنا — كما ترون - ينبغي البصاق في وجه رئيس أساقفتهم إزاء أسئلته التي سألها بكل غرور، ولهذا قلت ابصقوا في وجوه الظلمة التافهة[٣٨٧].

٤- موقفه من القائد الروسي:

عندما أسر الأستاذ بديع الزمان في روسيا أيام الحرب العالمية الأولى أرسل إلى معسكر للأسرى في سيبريا، وحدث أن خال القيصر الروسي والقائد العام لجبهة القفقاس زار المعسكر للتفتيش فقام له الأسرى احتراماً إلا بديع الزمان لم يقم فاستاء القائد وسأل الأستاذ بوساطة مترجم:

-أما عرفتني.

- نعم أعرفه، إنه نيقولا فيج، خال القيصر والقائد العام لجبهة القفقاس.

- فلم إذاً قصد الإهانة؟

- كلا معذرة إنني لم أستهن به، وإنما فعلت ما تأمرني به عقيدتي.

- وماذا تأمر العقيدة؟

- إنني عالم مسلم، أحمل في قلبي الإيمان، فالذي يحمل الإيمان في قلبه أفضل ممن لا يحمله، فلو أنني قد قمت له احتراماً لكنت إذاً قليل الاحترام لعقيدتي، ولهذا لم أقم له.

---

[٣٨٦] المصدر السابق ص ١٨٧ ونقل عن "الشعاعات" ص٤٨٧،٥٠٥.

[٣٨٧] "سيرة ذاتية" ص١٤٥.

– إذاً فهو بإطلاقه صفة عدم الإيمان علي يكون قد أهانني، وأهان جيشي، وأهان أمتي والقيصر، فليشكل حالاً محكمة عسكرية للنظر في استجوابه.

ثم عقدت المحكمة، وأظهر فيها العزة الإيمانية، و لم يبال بآسريه، ثم نجاه الله تعالى قبل إعدامه بدقائق، واعتذر له القائد العام**!!**[٣٨٨]

ثامناً: صبره:

الصبر مفتاح الفرج، وهو عدة الداعية، وطريقه للتمكين، وقد صبر الشيخ كثيراً على أذى أعدائه من سجن، ونفي، وتضييق، وعزلة جبرية عن الناس، ومحاولة تشـويه سمعتـه وعرضه، وهذا ظاهر مبثوث في سيرته، لكنه لم يقابل ذلك كله إلا بالصبر الجميل، وحفظ دعوته من استئصالها لو أنه قاوم أو فقد صبره، وهكذا عوضه الله تعالى وكافأه على صـبره بأن أظهر دعوته، ونشر رسائله، وكثر أتباعه، ومكن لهم في الأرض، وصدق الله العظـيم حين يقول:

" **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** "(الزمر:١٠).

– هذه الصفات الثمان – في ظني وتقديري – هي التي حفظ الله تعالى بهـا دعـوة الأستاذ بديع الزمان النورسي، وجمع القلوب حولها، وعظم شأنها، ورفع قدرها، ولا غـرو في هذا فبالقدر الذي يصب المؤسس فيه من صفاته على شجرته التي غرسها تنمـو هـذه الشجرة وتترعرع، ويشتد عودها، وما دعوته اليوم وحضورها القوي في تركيا إلا شـاهد على عظمة المؤسس، ورفعة قدره وصفاته، وتأثر أتباعه بها، ولله الحمد والمنة.

وأنا أدعو جماعة النور اليوم للسير في ركاب دعوة أستاذهم، والتحلي بصفاته التي كان عليها، ومجاهداته التي جاهدها، وأن يجددوا مقاصد دعوتهم، وأن يستجيبوا لمطالب زمانهم، وأن يسايروا العصر بما يحقق مصلحة الإسلام والمسلمين في هذا البلد الحبيب القريـب إلى النفوس الذي ظل عاصمة الخلافة خمسة قرون، فهذا هو الذي يرضي روح الأستاذ، ويقـر عينه.

---

[٣٨٨] "سيرة ذاتية" ص١٣٠-١٣١.

وليتعاونوا مع إخوانهم المسلمين العاملين من جميع الفئات في تركيا، فالبلاد اليوم تمـــر بمرحلة مهمة وحساسة وخطيرة في طريقها للعودة إلى الإسلام مـــن جديـــد، وأســـأل الله للجميع التوفيق.

هذا والله أعلم وأحكم، وصلى اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

التقرير النهائي عن جلسات الحلقة الدراسية

حـــول

الإدراك الروحي بين التصوف والنورسي

يومي ٢٦ - ٢٧ /٧ / ٢٠٠٥

إعداد: د. محمد جكيب
جامعة شعيب الدكالي
الجديدة – المغرب

شارك في هذه الحلقة الدراسية عدد من الباحثين من دول مختلفة، فمن سوريا شارك أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي، ود. محمد توفيق رمضان البوطي، ود. أبو الهدى الحسيني، وشارك من المغرب، أ. د. مصطفى بنحمزة، وأ د. حسن الأمراني، وأ. د. فريد الأنصاري، ومن مكة المكرمة أ. د. عمر الجيلاني ومن بلغاريا أ. د. تزافيتان ثيوفانوف، ومن استانبول أديب إبراهيم الدباغ، ومن العراق أ. د. محسن عبد الحميد

تابع أعمال هذه الحلقة الدراسية ثلة من المهتمين والباحثين من تركيا ومن خارجها، وقد أشادوا جميعا بحفاوة الاستقبال، ودقة التنظيم، وأهمية موضوع الندوة وعمقه، وحيوا المنظمين لاستضافتهم عددا من علماء الأمة ودعاتها، على رأسهم الدكتور سعيد رمضان البوطي، لتدارس قضية التزكية الروحية، ومناهجها.

وهذا تقرير مفصل عن أهم ما عرفته هذه الندوة المباركة من نقاش، وما أثارته من أفكار.

بعد افتتاح الندوة بآيات بينات من الذكر الحكيم، رحب بضيوف الحلقة ورسائل النور، وطلب من مصطفى صونغور تلميذ الأستاذ سعيد النورسي التحدث فعبر بصدق ورقّة عن فرحه وسعادته بانكباب الحاضرين على تدارس رسائل النور، وذكر بالمؤتمرات العديدة التي نظمت في تركيا وفي مناطق عديدة من العالم لكي تتدارس رسائل النور وتكشف عن حقائقها المشرقة، النابعة من اشراقات القرآن الكريم، ولمح تلميحا جميلا إلى أن الأستاذ يقول في اللمعات بأن للشمس سبعة أطياف، متمنيا أن تتجل تلك الأطياف في محاضرات الحلقة، ثم تدخل محمد فرنجي تلميذ الأستاذ سعيد النورسي فرحب هو الآخر بضيوف رسائل النور، وعبر عن سعادته بحضور أعمال الحلقة الدراسية وثمن ما ستأتي به من فائدة عامة.

أعلن أ. د. سعاد يلدرم انطلاق أعمال الحلقة الدراسية، بالتذكير بأهمية موضوعها، وبما قدمته رسائل النور من آثار تنويرية وعملية في تركيا وفي مناطق مختلفة من العالم، معتبرا إياها تفسيرا عصريا للقرآن الكريم، وتفسيرا موضوعيا للحقائق الإيمانية، إلى جانب كونها تفسيرا عمليا، لتجسيدها الصورة القرآنية لما يجب أن يكون عليه الإنسان في الحياة العملية، فهي نظرة نور قرآني انتقل صداه إلى مختلف أنحاء العالم. واعتبر الحلقة الدراسية من حسنات

الرسائل، ثم قدم صاحب العرض الأول الدكتور سعيد رمضان البوطي، وذكر بعنوان المداخلة، وهو "الوهج الروحي في حياة الأستاذ سعيد النورسي".

أشار سعيد رمضان البوطي في مستهل عرضه إلى أن موضوع التزكية الروحية موضوع له أهميته وخطورته، لأن مجال الدعوة في أمس الحاجة إليه أكثر من أي وقت مضى، حتى يتبين الذين يحملون شرف الدعوة إلى الله أنهم في أمس الحاجة إلى أن يحملوا بقلوبهم لا بأيديهم، وتفرض أهميته تلك مناقشته في مؤتمر خاص يحضره العلماء والمهتمون من كل الأنحاء وبمختلف اتجاهاتهم، لأن الموضوع أوسع من أن تستوعبه ورشة عمل واحدة. معتبرا الشباب الظامئ أكثر فئات المجتمع حاجة إليه.

كان التصوف حسب تصوره أيام رسول الله ﷺ، وصحابته رضوان الله عليهم مسمى لا اسم له، وذلك من خلال ما كان عليه الرسول ﷺ نفسه من سمو روحي تلقاه عن ربه تعالى، ومن خلال تزكيته لصحابته رضوان الله عليهم. فمعاني التصوف كانت متألقة في حياة الرسولﷺ والصحابة، ولم يكن لهذا العمل الرباني أي مصطلح يميزه، لأن صدر الإسلام لم يكن يحتضن المصطلحات، ولم تكن هناك مصطلحات لمختلف الأعمال التي تسمو بالنفس سوى الاسم الذي أطلقه الله تبارك وتعالى وهو الجهاد ويعطى لمختلف أنواع الجهاد، وما لبث أن خلف خلف اهتموا بالعلوم ووضعوا لها مصطلحات، ومن اهتمامهم بقدسية المسمى وقدسية السلوك وضعوا له مصطلحا هو "التصوف" الذي صادف ألقا كبيرا في نفوس المسلمين فتعلقوا بالاسم لقدسية المسمى على أساس رد الفعل الشرطي كما وصفه، ثم ما لبث الناس أن تركوا المسمى القدسي العظيم وتعلقوا بالاسم إلى أن أصبح التصوف كقُبة لا مزار تحتها.

الأستاذ بديع الزمان النورسي يشكل استثناء في نظره لأنه أراد الرجوع بالتصوف إلى ما كان عليه أيام الصحابة رضوان الله عليهم، ولهذا أنكر أن يكون متصوفا، فهو لم يتنكر للمسمى ولكن تنكر للاسم، لأنه كان يريد أن يعود بالمسلمين لاسيما محبيه إلى ما كان عليه الصحابة من سمو روحي، أي إلى حقيقة المسمى لا الاسم، وأن يلفت نظر الناس إلى حقيقة السلوك في عصر تعلق فيه الناس بالمصطلحات، أي أنه كان يريد أن يحول اهتمام الناس بمظهر القبة إلى الاهتمام بمضمونها وبما تحتها، والنورسي إنما أنكر أن يكون متصوفا تواضعا مع الله، لأن التصوف شأو عظيم كان يظن بأنه لم يصل إليه. وهو لم يكن في

اعتقاده من المتصوفة فحسب بل كان من الواصلين الذين ذاقوا معنى الفناء عن الذات والنفس، والبقاء مع الله، واستشهد بنص يؤكد ذلك، وعلق عليه بقوله «هذا الكلام لم أسمع بمثله في هذا العصر بهذا الشكل إلا من بديع الزمان، وحقيقة إن الإنسان عندما يبحث عن مواجده ويراقبها، نعم كنت اشعر بالخشوع و لم أعد أشعر به، (يقصد ما قاله النورسي) كنت أشعر بلذة مناجاتي لله عز وجل، افتقدت هذه اللذة، هذا في الظاهر مع الله، وفي الباطن مع مشاعره ومع لذائذه، وينبغي لهذا السالك أن يرقى فوق هذا المستوى ويتساءل هل كان خشوعي اليوم تاما هل كان فنائي عن الذات تاما كما أتمنى، الإنسان الذي يرقى صعودا إلى الله عز وجل يتيه عن نفسه ومن تم يتيه عن موازين قربه وبعده عن الله عز وجل، يكون دائما في فناء عن نفسه ومتجها إلى مولاه وخالقه وهذا الكلام العظيم من أعلى درجات القرب إلى الله عز جل، أن ينسى الإحسان النابع من نفسه وأن يجد نفسه لا شيء أمام المحسن الأوحد الذي هو الله عز وجل، أي أن قول الله: ﴿ هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ يكون لأصحاب الدرجات المتخلفة، نعم إذا وصل الإنسان إلى درجات القرب سيجد أن المحسن الأوحد هو الله، وما قيمة إحساني، هل كان إحساني إلا بإحسان الله علي وهل كان توفيقي إلا بتوفيق الله لي هذا كلام شخص بلغ أعلى درجات التصوف إذا جاز هذا التعبير. وأستشهد بنص آخر يتجلى فيه اعتناء النورسي بالتصوف المسمى لا الاسم من خلال مبدإ الخشية من الله والخوف منه ومناجاته له سبحانه وتعالى.

فحياة النورسي كانت مظهرا من مظاهر التصوف، وكان يريد أن يتجاوز الاسم إلى حقيقة المسمى، في وقت أصبح فيه التصوف مقترنا بالبدع، سواء تعلق الأمر بالاسم أو بالمسمى، والتصوف الحقيقي هو أن يكون الإنسان حارسا على باب الشريعة من أن تتسرب إليها البدعة، وهي ظاهرة موجودة في حياة النورسي.

وعن موقف النورسي من ابن عربي خلص إلى أن موقفه منه يجمع بين موقفين يعتبرهما كثير من الناس متناقضين، ولكنه رأى بينهما تعايشا عند النورسي، وذلك شأن الإنسان الذي فاض قلبه عبودية لله عز وجل وحسن ظن بالناس، فقد اعتبر نفسه كالنملة أمام علم وإدراك ابن عربي، لكنه أعلن في الوقت ذاته قدرته على التصدي لأفكاره بالاعتماد على القرآن والشريعة، فانتقد فكرته بخصوص وحدة الوجود دون تكفيره، وذلك من باب حسن ظنه بالناس.

وقال بأنه كان يريد أن يجد عند النورسي شيئا مما ذكره المحققون في فكر ابن عربي، مشددا على أن الذين ترجموا لابن عربي أكدوا أن الباطنية وخاصة الإسماعيلية قد دست على كتبه وخاصة كتاب "الفتوحات"، فقد كانت هذه الفرقة تنظر إلى الكتب التي تتداولها الأيدي فتدس فيها، وما يؤكد ذلك هو أن قارئ كتاب "الفتوحات" يلاحظ أشياء تتعارض مع الشريعة، ثم بعد صفحات قليلة يقرأ ما ينسخ الكلام الأول.

وختم بمناقشة أمور قال بأنها تأرق باله متعلقة بأمر الدعوة التي تراوح في مكانها ولم تعط الثمار المرجوة منها، لأن الناظر إلى أعمال الدعوة الكثيرة وأعمال الدعاة سيجد النتيجة ضئيلة جدا، وأما النورسي الذي قضى عمرا طويلا بين السجن والمنفى بعيدا عن تلاميذه وكان لقاؤه معهم عن طريق الكتابات وجسور من المراسلات، فثمار دعوته أعطت وتعطي أكلها وأعماله التربوية ما تزال ممتدة تفعل فعلها إلى اليوم ليس في تركيا فحسب، بل في كثير من أقطار العالم العربي والإسلامي، والسبب هو أنه لم يخاطب العقول إقناعا فقط، على أن هذا السبيل لابد منه في نظره، وإنما كانت الشرارة التي قدحت زناد النور والنار بين الجوانح هي حرقة قلبه واللظى الذي كان يهيمن على مشاعره، ومصدره خلواته وأوراده ومناجاته وقراءاته وهذه التربية التي كان يأخذ نفسه بها ونظره إلى الأكوان من خلال زجاج شفاف يؤمن بوجوده ولكن لا يرى في إطار وحدة الشهود ولا وحدة الوجود، ثم عندما يعود من تأمله يكتب ذلك لتلامذته فيؤثر فيهم ويغير مجرى حياتهم، والسر في ذلك كذلك هو ارتقاؤه الروحي أو الصوفي وعنايته بقدسية المسمى لا بقدسية الاسم.

في بداية جلسة المناقشة تدخل أ. د. محسن عبد الحميد وقال بأن روحانية النورسي نابعة من شمولية فهمه لمكونات العالم المادية والروحية، لأنه استطاع أن يطابق مطابقة كاملة في حدود الطوق البشري بين القرائين الثلاثة القرآن المقروء والقرآن المنظور الذي قال عنه الإمام الرازي "كلما ازددنا علما بالكون المنظور ازددنا علما بالكون المقروء"، وكذلك القرآن الناطق المطبق وهو الرسول الكريم ، وذلك لأنه كان يمشي في طريق شمولي متوازن ومتكامل، وهي شمولية فقدها كثير من مشايخ التصوف في المراحل الأخيرة.

وبخصوص القول بأن الإسماعيلية أو الباطنية شوهت على الأرجح كلام ابن عربي فيرجع ذلك إلى كثرة استشهادهم به، كما لم يستشهد بأحد غيره من علماء الإسلام،

والدليل هو أنهم دسوا عليه تفسيرا بالكامل فالقاشاني الأندلسي الباطني ألف تفسيرا وأسنده لابن عربي، والكثير من الأفكار الواردة فيه تلتقي مع ما جاء في الفتوحات، وتساءل عن الكيفية التي يمكن أن يفسر بها كلام ابن عربي لأن الشطح يحدث نتيجة لجذبة ثم عندما يذكر الولي بما قاله في خلال الجدبة ينكر ما قال، لكن ابن عربي كان يكتب هذا الشطح ويقرؤه الناس ولا يصححه؟ وطلب تفسيرا لذلك من الأستاذ البوطي.

وبخصوص الحركات الإسلامية وعلاقتها بالتزكية الروحية ألح على أن العالم الإسلامي عرف حركات تنويرية مهمة كحركة حسن البنا في مصر، والمودودي وإقبال في باكستان، والسنوسي في ليبيا وكالحركات الإصلاحية في شمال إفريقيا والمغرب، لكن الظروف التاريخية والأوضاع السياسية دفعت بها إلى ساحة الفعل السياسي ظنا منها أنها تستطيع أن تصل إلى الهدف وتشعل الإسلام في النفوس بأسرع ما يمكن وما قدرت الظروف حق قدرها، الشيء الذي حاد بها عن دورها الطبيعي في مجال التزكية الروحية، لكن النورسي لم يقع في هذا، لأنه فقه خطورة الأمر وفهم الواقع وحقيقة الأوضاع بخصوص مستقبل الإيمان. وقد كاتب الشيخ حسن البنا لأنه أدرك أن الحركة الإسلامية لا تسير على الطريق الصحيح. والتمس من البوطي أن يتسع صدره لأنه من غير المعقول أن يقال أن آثار هذه الحركة منعدمة لأن ملايين الشباب قد اهتدوا بتأثير دعاة مثل حسن البنا وسيد قطب والمودودي قبل أن يعرفوا النورسي مع الاعتراف بعلو كعبه في هذا المجال.

أيد سعيد رمضان البوطي المتدخل في كل ما قاله وألح على إمكانية براءة ابن عربي من الشطحات، لأن الباطنية تقولت عليه الكثير ولأن هناك تطابقا بين ما قاله ومقولات الباطنية وأشار إلى أن ما قاله محسن عبد الحميد يؤكد أن شطحات ابن عربي مدسوسة.

وفي إطار التعليق على قضية المنهج أكد أن النورسي هو أول من وضع منهجا تربويا متكاملا نقله إلى تلاميذه، وكذلك فعل حسن البنا الذي أبدع منهجا تربويا فعالا وأنشأ جيلا ربي هذه التربية، التي هي مدار الحديث في الندوة، ولهذا الجامع المشترك بين بديع الزمان النورسي وحسن البنا اعتبره من الرعيل الأول الذي أكرم الله به الرعيل الأخير لكن تلاميذه لم يستطيعوا السير على منهجه إذ ما أن مات، ومضى على وفاته سنوات حتى تفرع السبيل سبلا وكان أوصى تلاميذه بألا يغيروا في المنهج، وأما أبو الأعلى المودودي

فكان فعالا في العقول، و لم يكن فعالا في القلوب، كان قويا في مقارعة المبطلين العلمانيين وكان قويا في كل ما هو عقلي لكنه أهمل العاطفي أو الروحي المرتبط بالتزكية الروحية. وأضاف بأنه يؤمن دائما بضرورة السير إلى الله بعجلتين عجلة العقل وعجلة الوهج العاطفي، ومن أراد أن يسير بعجلة واحدة فقط لم يصل إلى الله فلا العقل وحده كاف ولا العاطفي وحده كاف. وأما حسن البنا فقد جمع بينهما وكان يربي تلامذته على ذلك وكان يعلو إلى الله بجناحين، والمنهج الصحيح هو المنهج الذي يجمع بينهما مع التشديد على عنصر الإخلاص.

تدخل الدكتور حسن الأمراني فشكر البوطي على ما يثيره من قضايا دقيقة، وقال بأن الإشكال المطروح بخصوص كون التصوف كان مسمى لا اسم له، قبل أن يتحول إلى اسم لا مسمى له، هو عزوف النورسي عن الاسم تواضعا وإيمانا منه بأنه دون مستوى هذا الاسم خاصة وأنه كان يثني على كثير من الطرق الصوفية وعلى عدد من المشايخ كالإمام الرباني وجلال الدين الرومي وابن عربي لكنه في الوقت نفسه ينكر ما عند هؤلاء من شطحات مخالفة للشريعة، ثم تساءل عما إذا كان قد دس شيء ما على جلال الدين الرومي كما دس على ابن عربي، خاصة وأن المهتم يجد في المثنوي شيئا كثيرا مخالفا للسنة، والدافع إلى طرح السؤال هو أن بعض هؤلاء الأعلام قد وضعوا هم أنفسهم شروحا لشطحاتهم كما فعل ابن عربي في "ذخائر الأعلام" فالذي ينكر قام هو بشرحه وبين في كثير من المواطن مقصده مؤكدا أن الناس يقفون عند حدود الظاهر، وتساءل إلى أي حد يمكن اعتبار نصوصا معينة مدسوسة وكذلك الشروح التي وضعت على ألسنتهم.

أجاب البوطي بأن النورسي كان يركز على لباب الدين، ولباب الدين هو التصوف بغض النظر عن الاسم، وأضاف بأنه لا يمكن القول بأن قد دس على جلال الدين الرومي، إذ لم يقرأ له – كما قال – شيئا مناقضا لمبادئ الدين مناقضة حادة، مشددا على أنه من عشاقه، وأنه درس حياته ويعرف كيف كان في بداية حياته فقيها حنفيا قبل أن يتحول إلى الحياة الوجدانية. وأما ما يقال بخصوص شطحات المتصوفة التي دونت ثم قام قائلوها فيما بعد بشرحها فهو القول بما قاله العلماء وهو الجنوح إلى حسن الظن بالناس وحسن الظن بالمآل الذي انتهى إليه ابن عربي، مع تحريم قراءة كتبه معتبرا من الغلو القول بأن هذه

الشروح قد دست، وذكر في هذا الشأن بمنهج والده الذي كان شديد الورع وشديد التشبث بالفقه وكان مع ذلك متصوفا داعيا إلى التصوف الصافي، ولكنه حرم قراءة كتب ابن عربي، وقال بأنه تتبع كلام والده بدقة فما وجده مرة يكفر أحدا وإن كان ابن عربي، ولكن كان يكفر الكلمات، وقد يكون ابن عربي ربما تراجع عن كل ما قاله في آخر أيام حياته.

وعلق توفيق سعيد رمضان البوطي على ما قيل بأن لا مبرر أن نشطح ثم يبحث الناس عن تأويل هذه الشطحات.

ارتكزت ملاحظة الدكتور أبو الهدى الحسيني على أن العلماء يقسمون التصوف إلى قسمين قسم في تزكية النفس، وقسم في معرفة الله، وصورة التصوف لا تكتمل إلا بالوجهين معا، لارتباط الأول بالثاني، إذ لا يمكن الحديث عن الأول دون الحديث عن الثاني، ملحا على أن للمصطلح دوره في الدلالة على المقصود بالتصوف، ومعنى ذلك هو أنه لا يمكن الحديث عن المسمى دون الحديث عن الاسم، ومثل لذلك بعلم الحديث والفقه، الذي يحوي ثروة مصطلحية كبيرة ومع ذلك لا أحد يدعو إلى العودة إلى ما كان عليه الحديث في زمن السلف، وبخصوص تحريم قراءة كتب الشيخ ابن عربي، أكد بأن الكثير من العلماء انكبوا على قراءة كتبه كالشيخ محمد الهاشمي التلمساني الذي قرأه في مجلسه، والإمام الشعراني ناقش القضية وقصر القراءة على أهل الاختصاص فتحريمها هو على غير أهل الاختصاص.

والنورسي وإن كان قد أنكر وحدة الوجود، فقد تحدث عن ذلك في المثنوي، وأنه كان يرى بأن عبارات القوم وشطحاتهم قصرت عن تعبير الفكرة فحدث ما حدث من التباس.

علق البوطي على الملاحظة بكون التصوف حال تتلبس الإنسان وتبعده عن رعوناته وعما يشده إلى الأرض وأهوائها، وأن الجانب المعرفي يقود إلى هذه الحال، ملحا على أن الأول أي المعرفي طريق إلى الثاني، لأن التصوف ليس قواعد تحفظ، وإنما هو حال تعاش، والناس كثيرا ما يتيهون في الجانب المعرفي، معتقدين أن التصوف قواعد علمية، تشبه دراسته دراسة الفلسفة وعلم الكلام وغيرهما من العلوم، وهؤلاء هم من انحرف بالتصوف عن

مساره الصحيح ومثل لذلك بالمستشرقين الذين يتخصص بعضهم في التصوف وهم أبعد ما يكونون عن التصوف.

وبخصوص الحرص على الاحتفاظ بالاسم أي التصوف لا يرى داعيا إلى ذلك في هذا العصر الذي تتجاذبه القوارع والفتن، وتساءل ما الضير في ترك اسم كان سببا في تفرق الناس فرقا بين مؤيد ومستنكر، إذ هناك من يتحسس من كلمة التصوف فلم لا تترك جانبا، وقال بأنه كان ألف كتاب "شرح الحكم" وأخرج منه كلمة التصوف فكان أن وجد قبولا في المملكة العربية السعودية، بالرغم من كونه كتابا في التصوف.

وبخصوص قراءة ابن عربي في سوريا أكد بأنه يعلم بأن بعض مشايخ التصوف يقرأون ابن عربي لمريديهم، وأكد بأن اجتهاده الخاص وما أخذه عن والده يفرض ألا يكون ذلك في حضور العامة، لأنهم لا يفهمون شيئا مما يقال، وكان على هؤلاء المشايخ ألا يفعلوا ذلك.

النورسي ينكر فكرة وحدة الوجود، ولا يقول بوحدة الشهود، ذلك لأن كلامه يقوم على فكرة رؤية الوجود من الموجود الواحد، ولا يساوي ذلك في نظره القول بأنه ينبغي ألا نتصور سوى وجود واحد كما قال أصحاب نظرية وحدة الوجود.

بعد العرض الأول كان الحضور على موعد مع عرض "أهمية روحانية النورسي في عالم متأزم" للدكتور مصطفى بن حمزة الذي استهل كلامه بقول بأن ما يعرفه العالم الإسلامي من مخاض عسير جراء اصطراع العديد من الأفكار الناتجة عن آفاق ثقافية متنوعة تبلغ في تباينها وتنوعها درجة التضارب، وتماسك الهوية يظل مرتبطا أشد الارتباط بالتدين الذي يمنح الإنسان رصيدا معرفيا يؤطر توجهه العقدي والمذهبي ويصله بمصدر إنتاج القيم، التي تمنح شخصيته خصوصيتها وتوازنها. وعلى الرغم من كون التدين هو فرصة الإنسان الأخيرة للإفلات من حالة الاغتراب فإن هذا التدين نفسه قد أصابه التمزق الأمر الذي جعل الباحث عن التدين في حيرة ممضة تدفعه إلى طرح العديد من الأسئلة كسؤال الصيغة المثلى للتدين الحق، هل هو الذي يستقى من نصوص العلوم الشرعية ويخاصم العقل، أم الذي يعتمد على تأويل النصوص؟ أم الذي يجمع بينهما؟ أم الذي يقوم على تهويمات روحية وسبحات وجدانية تقنع باللذة الروحية وتنسحب من حركة التغيير وصنع الحضارة. وفي

خضم المثقل يبرز التصوف مراهنا على جدارته على تحقيق الاستواء الروحي للإنسان، لكن هذا التصوف قد أصابه ما أصابه من تباين قد يتسع خلال زاوية منفرجة تمتد من تصور التصوف على أنه مجرد زهد وتزكية للنفس إلى أن يصير فلسفة إشراقية ورؤى حلولية اتحادية تعدم الفرد وتلغي وجود الكائنات. ومن هنا يبرز فكر سعيد النورسي ومنهجه على أساس مجموعة من الأسس وهي:

- علمه الواسع بالشريعة وتشبعه بحقائقها وفهمه لأسرارها وإخلاصه في التشبث بها.
- إلزامه نفسه حياة الزهد والتأمل والعبادة .
- نهوضه برسالة التجديد في بلد الزوايا والتكايا.

وهذه الدعائم هي التي تقود إلى إمكانية الاستعانة بالتصوف لصد موجة الإلحاد، ولكن التصوف المراد هو التصوف الذي يحرص على الالتزام بأحكام الشريعة ويقاوم البدعة والضلالة، أي التصوف الذي يجعل هدفه بناء الإنسان ليكون إيجابيا.

النورسي كان رجل مرحلة عصيبة مرت منها الأمة، تمكنت فيها القوى المعادية للإسلام من فرض العلمانية وإسقاط الخلافة، وكان صاحب نظرة عميقة بخصوصية المرحلة، وما تستدعيه من جهد فكري لتمتين علاقة الأمة بدينها، وإبقاء علاقتها بالقرآن قائمة، ولهذا لم يكن ليهتم بموضوع جزئي لا يهم الأمة كلها كموضوع التصوف، الذي لا يعنى حسب قوله بإثبات الإيمان واستدامته في القلوب، بقدر ما يعنى بتحصيل اللذة الوجدانية في قلوب مؤمنين. فقد كان مؤمنا بضرورة الإصلاح، والمتتبع لهذا الأمر سيلاحظ بأن النورسي كان يضع نفسه في المكان المناسب له باعتباره عالما من علماء الأمة يتحمل مسؤولية التوجيه والتقويم، ولذلك كان يعتبر المؤسسات الصوفية واقعا لا يمكن الاستهانة به ويجب إصلاحه من الداخل وتقويم أخطائه المخالفة للشريعة، ومن ثم فقد انتقد بعض المقولات الصوفية التي تتعارض مع جوهر الإسلام كموقفه من نظرية وحدة الوجود والاعتقاد المبالغ فيه في الولاية والأولياء. وخلص إلى أنه قام بما يشبه عملية الحسبة والتوجيه على التصوف كما قام بها عدد من العلماء على مر العصور حتى لقب الشيخ أحمد زروق بمحتسب العلماء والأولياء. ثم بين أن النورسي قد وقف طويلا عند العديد من المصطلحات عارضا إياها على مقياس الشريعة ومن هذه المصطلحات وحدة الوجود، ووحدة الشهود، وحدود الولاية الصوفية،

وختم الولاية، والمعراج الصوفي، والديوان الصوفي، وثنائية الحقيقة والشريعة، والتمييز بين علوم القلوب أو الحقيقة وعلوم الشريعة معتبرين الأولى علوما حية والثانية علوما ميتة، وذاك مجرد وهم وخطأ نشأ عن الجهل بالشريعة، ثم أبرز أن السالك في الطريقة يرتفع تدريجيا إلى أعلى المراتب التي ينال فيها ما في الشريعة نفسها من حقيقة وسر الطريقة. وأما موقف النورسي من نظرية وحدة الوجود، فيتلخص في اعتبارها من المشارب المهمة عند الصوفية، وتعني حصر النظر في واجب الوجود دون غيره واعتبار الموجودات مجرد ظلال باهتة وزائفة لا تستحق أن يطلق عليها صفة الوجود حيال واجب الوجود، لكن النورسي رد ذلك واعتبره مجرد حال ونزعة ناقصة، ومجرد مشرب ولذة، والذين يدخلون فيها لا يرغبون في مغادرتها ظانين أنها المرتبة الأخيرة في حين أن الطريق المستقيم هو طريق الصحابة والتابعين والأصفياء.

لقد رد النورسي على القائلين بفكرة وحدة الوجود وفكرة لا موجود إلا هو، وإنزال الموجودات منــزلة العدم بأن أسماء الله الحسنى لا تجد تجلياتها إلا من خلال الموجودات، كاسم الرزاق الذي يظل اعتباريا مادام اسم الرزاق يستوجب مرزوقا موجودا، وإذا كانت الموجودات معدمة فإن معاني هذه الأسماء تتعطل وتصير من غير فائدة .

وبخصوص ابن عربي بين مصطفى بن حمزة بأن النورسي ينطلق من كون ابن عربي في مشرب وحدة الوجود، لا يخدع ولكن ينخدع وبأنه مهتد ولكن لا يمكنه أن يكون هاديا. وختم بأن النورسي لم يكن صوفيا كما أراد له الكثيرون أن يكون ولكنه كان ناقدا ومحتسبا وناظرا بمنظار الشريعة في كل ما حوله، ومن جملة ما كان حوله التصوف، ولم يواجهه ومواجهة مطلقة بل يعترف له بالفضل عندما يكون منسجما مع الشريعة، وينتقده شديد الانتقاد عندما يكون خارج الشريعة.

أشار الدكتور محسن عبد الحميد أن وعي النورسي كان عميقا بحقيقة المرحلة، حين التحم الصراع الحضاري بالحضارة الغربية ونواقص المجتمع الإسلامي، إذ لم يوجد مجدد استطاع أن يفهم فهما عميقا طبيعة هذه المرحلة مثله، مضيفا بأنه استفاد كثيرا من فكره، وتمنى بأن يعقد تلاميذه مؤتمرا يخصص لفكره ووعيه العميق بطبيعة المرحلة. وتساءل لَمَ لم يخترق نور النبوة قلوب المنافقين أيام رسول الله ﷺ . خاصة وأن النورسي يقول بأن نور النبوة يخرق القلوب، وكان يخرق قلوب أصحابه، فلمَ لم يخرق قلوب المنافقين كابن أبي؟

تدخل الدكتور سعيد رمضان البوطي، فقال إن هناك أحكاما في الديانة وأحكاما في القضاء، والقول بصحة الصلاة قضائيا معناه توافر شروط صحتها شرعا، وحكمها ديانة عائد إلى شيء آخر لا يطلع عليه إلا علام الغيوب، كهل حضر الإخلاص في الصلاة أم أن صاحبها كان منافقا، أو هل كان مع الله في صلاته، فتلك أحكام ديانية، ولا أحد يستطيع أن يأخذ على الناس بها.

واعتبر مسألة النبوة والولاية التي ورد ذكرها في العرض مسألة محلولة، فالنبوة لا تتحقق إلا بالولاية فمن كان نبيا أكرمه الله بالولاية وكل الأنبياء مكرمون بها، لكن ليس كل من كان وليا كان نبيا ومعنى ذلك هو أن ولاية النبي هي الغاية المدركة عن طريق النبوة، فنبوة محمد ﷺ حققت له الولاية، لكن دون اعتبار الأولياء أفضل من الأنبياء.

وسؤال لماذا لم يخترق نور النبوة قلوب المنافقين؟ أجاب بأن الذي منعهم هو الاستكبار، فقد حال دون تسرب هذا النور إلى أعماقهم، وفي القرآن الكريم لم يهدد الله العصاة بالمحق والعذاب الشديد الأبدي، وإنما هدد المستكبرين، فمن كانت المعاصي قد غلبت عليه نجد أن نور النبوة قد اخترق كيانه إلى قلبه وهدي بعد ضلالة.

بين مصطفى بن حمزة في رده بأن ما قاله البوطي بخصوص ثنائية الحقيقة والشريعة هو ما يقول به الشيخ الطوسي، والأمر في نظره لا يقف عند حدود القول بالثنائية فقط، بل يتعداه إلى القول بأفضلية الحقيقة على الشريعة، فالحقيقة في رأي أصحاب هذا النظر هي التي تضبط الشريعة، ومن تم اعتبرت علوم الشريعة علوما ظاهرة ومتجاوزة، ولو وقف الأمر عند هذا الحد في نظره لكان مقبولا لكن عندما يتجاوز ذلك إلى القول بأن هناك علوما وهبية تأتي هكذا ففي ذلك إجهاض للمعرفة وتلك هي القضية التي تركز عليها الانتقاد.

والحكم في نظره سواء كان قضاء أو ديانة، هو من تأسيس الشريعة دائما أي لولا تأسيس الشريعة له لما كان حكما مقبولا واعتبر ما طرحه النورسي في هذا الباب جميلا لأنه يوسع دائرة الشريعة ليندرج الجميع فيها، وترك العلماء هذا الباب دون تقعيد هو الذي أدى إلى التطاول على الدين، حتى صار هؤلاء كمن يؤسس شريعة جديدة هي غير الشريعة الإسلامية، وشدد على ضرورة العودة إلى هذه القضايا لإحداث الانسجام فيها، فالسلفية

قدمت في وقت ما على أنها مناقضة للعقل، وهي أبعد ما تكون عن ذلك، لأن علماء السلف جمعوا بين العقل والنقل، ثم قدمت فيما بعد على أنها نقيض البدعة، ولذلك وجب إصلاح فكرة السلفي أولا ويبين بأن طرح العلماء لها ليس صحيحا.

وعن قضية عدم احتراق نور النبوة لقلوب المنافقين، أكد أن هذا النور كان موجودا، وأن الرسول ﷺ كان صاحب همة عالية يؤثر بها في الصحابة، وقد أكده الصحابة ذلك، لكن هناك موانع كانت تمنع عددا من أن يتأثر بهذه الهمة بدافع المصلحة والاستكبار، وتبقى المسألة في نظره اختيارية أي اختيار الناس لهذا الدين بكل حرية.

تحدث د. أبو الهدى الحسيني في البداية على أنه كان ينتظر من خلال عنوان البحث أن يكون مدار التحليل ما يمكن للتصوف أن يقدمه للناس في عصر تغلبت فيه المادة. وتساءل عن المقصود من عبارة الحلول يلغي وجود الكائنات، التي وردت في العرض وأكد بأن الحلول يقتضي وجود الكائنات والحلول هو اجتماع صفة مع ذات، والاتحاد هو اتحاد وجودين، وجود الكائنات ووجود الحق سبحانه، وقال إن المصطلح الصوفي مرتبط في العمق بحالات حقيقية، وهو تجسيد لهذه الحالات، واستشهد بالطوسي صاحب "اللمع"، الذي تحدث عن علم ظاهر مرتبط بالأعمال الظاهرة، وعلم باطن هو خطاب الله.

أكد الدكتور مصطفى بن حمزة في رده أن النورسي انتقد نظرية وحدة الوجود وبين عيوبها وقصورها، مع الإلحاح على أن تجليات أسماء الله الحسنى تفقد معنى تجليها عندما تكون الموجودات مجرد ظلال باهتة، وعندما يقال الحلول والاتحاد ففي ذلك إلغاء للذات، فالذين قالوا بهذه النظرية نظروا إلى أنفسهم على أنها معدمة، حتى وصل بعضهم إذا مر به حيوان من الحيوانات ناداه باسم الربوبية، ولكن ليس كل الصوفية يؤمنون بذلك، مع وجود من يؤمن بأن الأشياء مجرد مظاهر، حتى قيل برفع التكليف عن بعض الصوفية، ومرد ذلك هو إلغاء الفرد. وأما النورسي فقد رد فكرة وحدة الوجود بقوة، واعتبر طريق الصحابة هو الطريق المستقيم، مع عدم اعتبار الموجودات مجرد خيالا كما يدعي البعض. وأما المصطلحات الصوفية فقد وقف منها في نظره موقفا وسطا يؤيدها فيما وافق الشريعة ويرفض ما يعارضها.

وبخصوص السؤال المتعلق بمضمون البحث أشار إلى أن الذي كان يحركه هو حدود الإيمان في قضية النورسي من خلال سؤال الهوية المتوقف على مرجعية الدين، وتساءل عن طبيعة هذا الدين هل هو التوفيق بين المعقول والمنقول أو الاكتفاء بأحدهما على حساب الآخر، والنورسي في نظره استطاع الإجابة عن السؤال لأنه جعل الشريعة المقياس الذي ينفذ منه، ولو لم تكن له تلك روحانية مشذبة التي تمر عبر مدخل الشريعة لما وفق في كثير مما قال، فروحانية النورسي روحانية تحتكم للشريعة.

واعتبر موضوع الظاهر والباطن مستحدثا وقال إن هناك من تحدث عن علم باطن وآخر ظاهر وتقبل المسألة لو وقفت عند هذا الحد، لكن عندما يصير الباطن هو العنصر الأساس والظاهر لا وجود له، حتى تظهر تفاسير كلها باطنية تجهض المعنى الشرعي وكل ضوابط التفسير. وأكد بأنه إذا كان الأمر يتعلق بعمل الجوارح فهو مقبول وقد تحدث عنه العلماء.

وتدخل الدكتور سعاد يلدرم فقال أن النورسي كان يبغي إبراز الحاكمية المطلقة للقرآن الكريم، وكان يريد بأن أن تكون كل المذاهب الإسلامية مرايا لثقافة القرآن الكريم، لأن القرآن يحتاج في نظره إلى مرايا وليس وكلاء، وتأسف لوجود بعض الكتب والمذاهب والأفكار والطرق التي تحولت إلى حجب على القرآن وثقافته، لكن النورسي جدد الفكر الإسلامي حين جعل منه مرآة تعكس ثقافة القرآن، وأضاف بأنه تحدث في كتاب المكتوبات عن ثماني آفات للتصوف، وفي الوقت نفسه ذكر له تسع ثمرات.

ثم أشاد بالموقف المثالي لطلاب النور في علاقتهم بأصحاب الطرق وقال بأنه عندما كان في مدينة أرضروم كان له صديق من طلاب النور اسمه حسن وهو الآن رئيس قسم في كلية الطب في إحدى المدن، وكان لا ينغلق على حلقته بل كان ينفتح على كثير من الحلقات الطرقية، وكان بعضها يقترح عليه أن ينضم إليها فكان يرفض، وكان على صلة بشيخ طريقة اسمه صالح أفندي وطلب منه في يوم من الأيام أن ينتسب إلى طريقته لأنه هناك الكثير من الطرق يطلبون منه أن ينتسب إليهم وهو يستحي أن يردهم، فقال له صالح أفندي إن غاية الطريقة هي تربية الأفراد وأنت لا تحتاج إلى طريقة فقد وجدت منبعا فياضا.

وتدخل محمد توفيق البوطي فأشار إلى أن الحديث في الجلسة الأولى كان عن التصوف وأنه كان في أول عهده مسمى لا اسم له قبل أن يتحول اسم لا مسمى له، وتساءل عن مدلول التصوف في ذهن مصطفى بن حمزة حتى تتم المقارنة بين شخصية بديع الزمان والتصوف.

أكد د. مصطفى بن حمزة أن الجانب الروحاني في الإسلام أساسي وهو مع الحرص على الشريعة يؤدي إلى تحصيل كل بركاتها، والمطلوب هو الإسلام في شموليته، والإنسان مطالب بأن يرى بأن للتصوف مدخلا واحدا هو مدخل الشريعة فمن أراد أن يعبر إلى ذلك من غير تلك طريق فسيجانب الصواب، والتصوف فيه الصالح وما دون ذلك ولا أحد ينكر أن الكثير من الطرق الصوفية أدت دورا كبيرا في مقاومة الاستعمار فهذا التصوف هو جزء من الشريعة الإسلامية، وكلما كان العالم عالما كان له حظ من هذه الروحانية، مع الغيرة على الشريعة الإسلامية.

افتتح الدكتور فريد الأنصاري مداخلته "بديع الزمان النورسي من برزخ التصوف إلى معراج القرآن" في الجلسة الثالثة بتثمين ما جاء في عرض الدكتور البوطي عن حقيقة التصوف قبل أن يصير مجرد اسما خاليا من كل دلالة روحية كما كان في الأصل.

ثم فصل في الحديث عن حياة النورسي وما تميزت به في حدود علاقتها بالتصوف، فوقف عند كيفية طلبه العلم على يد مشايخ التصوف، خاصة ما اتصل بالثقافة السائدة في زمانه، والتي لم تكن في مجملها منفصلة عن التصوف، الذي لم يقاطع، ولكنه جدد فيه، وسلك فيه مسلكا جديدا دون التنكر له كلية. والتحولات التي عرفها في حياته كانت تستجيب لعدة اعتبارات منها ما هو ذاتي ومنها ما هو موضوعي، فقد عاش العديد من التحولات التي عرفها المجتمع التركي وخاصة تلك التي جعلت من الدين هدفا لرماح الأعداء، أمام فشل المشايخ في العمل على رد الأمور إلى نصابها بالدروشة تارة وبالقوة تارة أخرى.

وكان للدكتور فريد الأنصاري وقفة تأمل قادته إلى أن حاجة العصر هي التي تحدد طبيعة التصور والتفكير، وأن طبيعة الفترة التاريخية هي التي جعلت النورسي يخرج بمنهج تربوي متوازن. بعد أن أدرك الخطورة التي تحدق بالأمة بعد سقوط الخلافة العثمانية، فكان

إلحاحه القوي على أن الزمن لم يعد زمن تصوف، ولكنه أصبح زمن إنقاذ الإيمان. ومن هنا يأتي الإلحاح على أن التصوف فاكهة والإيمان هو الطعام الضروري لحياة الإنسان، لأن الإنسان يدخل الجنة بالإيمان، ولا يدخلها بالتصوف ومن هنا مركزية القرآن عند النورسي، حيث وقف على جملة من المقومات تتلخص فيها علاقة القرآن بالتصوف وهي:

- المعرفة القرآنية ضرورة والمعرفة الصوفية فاكهة.
- المعرفة القرآنية مباشرة والمعرفة الصوفية برزخية.
- المعرفة القرآنية مأمونة والمعرفة الصوفية مغامرة.

كان الدكتور محسن عبد الحميد أول من تدخل، فثمن ما قدمه فريد الأنصاري وقال بأن البحث أضاف خاصية جديدة عند النورسي وهي خاصية وعيه العميق بحقائق الإسلام، وتساءل عن مصدر هذا الوعي ولماذا انفرد في هذا العصر عن بقية المجددين بوعيه العميق المتوازن والشامل بحقائق الإسلام، ولماذا انفرد وبقدرته على الموازنة بينها وبين طبيعة المرحلة ذاتيا ومحليا وإقليميا، فقد أدرك في نظره أن هناك نقصا في الفكر الإسلامي، خاصة فيما يتصل بتجليات أسماء الله الحسنى، التي منحها الله تجليا جامعا ومتوازنا في شخص الرسول ﷺ، لكي يكون المثل الأعلى في الوجود، ولا دليل على اجتماع هذه الأسماء في نبي من الأنبياء قبل الرسول ﷺ، لكن تجليات هذه الأسماء أخذت تتبعثر شيئا فشيئا بعد عصر الصحابة رضوان الله عليهم بفعل تطورات الحياة والظروف التاريخية واندماج الحضارات فيما بينها إلى أن وصلنا إلى العصر الحاضر، والنورسي حاول جمع هذه الأسماء، وقد يقول القائل بأن الإمام الغزالي حاول ذلك بدليل كتابه "المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى" .بما يتناسب وظروف عصره حيث بين أن نصيب العبد من هذه الأسماء هو كذا وكذا، لكنها مع ذلك ظلت مبعثرة.

إن ظروف زمان النورسي كانت هي ظروف زمان الرسول ﷺ لما بعثه الله لمقاومة الجاهلية وإعادة الناس إلى حضرة التوحيد بجمعه لما تبعثر من تلك الأسماء، وسر رسائل النور هو أنها مجموعة عن تجليات هذه الأسماء، مع تحويلها إلى سلوك إنساني متوازن شامل يوقف المسلم أمام العصر الجديد كما فعل الرسول ﷺ والصحابة أمام الجاهلية، وهذا الموقف هو الذي جعل شخصية النورسي تتميز عن شخصيات كل المجددين في هذا العصر.

وعن قضية الشيخ والمشيخة قال بأن القرآن لا يمكن أن يتأتى فهمه وإدراك دلالاته العميقة دون السنة النبوية الشريفة، لأن في سيرة الرسول ﷺ ما يفسر جوانب عديدة منه، والمعركة في الحقيقة معركة هوية فبقدر الاعتناء بالقرآن يكون التوفيق، لأن القرآن هو العنصر الجامع الذي يمكنه توحيد الأمة إذا أدركت أبعاده على الصورة الحقيقية والصحيحة التي أراد الله تبارك وتعالى.

وتدخل د. توفيق رمضان البوطي مشيرا إلى أن عصر النورسي كان عصر التحولات الكبرى والخطيرة على كافة المستويات السياسية والفكرية والدينية ولذلك انحصر نشاطه في منهج الطرق الصوفية وكان الغرض هو العمل على إعادة تلامذته والأمة إلى منهج الشمول، الذي يجعل من المنهج التربوي الموجود في الطرق الصوفية جزءا من نشاطه وليس كل نشاطه، وجزءا من دعوته وليس كل دعوته، والأمة أحوج ما تكون إلى تطبيق هذا المنهج الشمولي في التعامل مع الرسائل التي تدفع إلى الأخذ بجميع جوانب الإسلام لا بالجانب الفكري منه فقط.

وتدخل الدكتور مصطفى بن حمزة متسائلا عما أسهم به التصوف في صياغة شخصية النورسي، وعما أسهم هو به في تجلية التصوف، معتبرا من الخطإ تجزيئ شخصية النورسي، لأنه لو كان مجرد صوفي وله كتابات في التصوف لكان مجرد إضافة لمجموع الصوفية الموجودين في العالم ومنهم المصيب ومنهم المخطئ، ولو كان مجرد عالم لكان كواحد من العلماء، ولو كان داعية لكان مجرد داعية ككل الدعاة ، لكن شخصية النورسي متداخلة ومتعددة، شخصية متشبثة بالكتاب والسنة ولذلك لا يكثر عليها الاعتراض، وتساءل عن الكيفية التي كان الناس يتلقون بها الرسائل، معتبرا إياها كتابات رائدة مقارنة بزمنها، لأن الكتب التي تناقش العقيدة تورد أدلة معروفة ومطروقة في كتب العقيدة، لكن النورسي يستدل على البعث بأسلوب عميق وسهل، كاستدلاله بالسنبلة على البعث وكيف تحيا وتموت ثم تعود إلى الحياة من الجديد، وهو أسلوب لا يقدر حق قدره، واعتبر أن أهم جانب في شخصية النورسي هي شخصية العالم المشارك غير المنسحب فقد عاش ظروفا حالكة وذاق مرارة السجن. والبعض عندما يراهن على التصوف لا يراهن عليه باعتباره نشاطا روحيا بل باعتباره مفرا من مواجهة مشاكل الحياة، فتصوف النورسي تصوف مشاكس.

شدد الدكتور فريد الأنصاري في رده على ما قاله الدكتور مصطفى بنحمزة على أن ما كتبه النورسي كان له وقع خاص، نظرا لأن الحاجة إلى كلامه كانت ملحة، ولأن الإلحاد كان جديدا في العالم وكانت المدارس الإلحادية تتأسس في كل مكان، لكن عندما يأتي من ينقض المشروع الإلحادي بسرعة فإن وقع ذلك يكون كبيرا، وتكون النتيجة جيلا متميزا. وبخصوص صوفية النورسي وعدمها أشار إلى أنه وصف نفسه بتلميذ القرآن الذي يعطي لمن يتلقى عنه الشمولية الكاملة، أو الاستيعابية الشمولية.

وتدخل بعده الدكتور محمود أبو الهدى الحسيني وأشار إلى عدم تمييز فريد الأنصاري بين الطريقة والتصوف واقترح أن تستبدل عبارة مقارب للطريقة بعبارة مقارب للتصوف التي وردت في العرض، لأن الطريقة في نظره وجه من وجوه التصوف، ومعناه التمييز بين الطريقة التي هي وسيلة إلى التصوف، وبين التصوف الذي هو المعرفة الإحسانية، أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك، وعبارة الفكر الصوفي لا تؤدي المعنى المراد لأن الفكر حركة ذهنية، ولذلك اقترح توظيف عبارة العلم لأن أداة التصوف الأصلية هي القلب والروح، وأداته الفرعية هي العقل، ولذلك جاز قبول عبارة الفكر الصوفي عند مستشرق، ولم يجز قبولها عند صوفي، والتتلمذ على القرآن سبب مشكلا كبيرا في نظره، إذ لا يمكن فهم ذلك إلا إذا عرف أن الصوفية تبنوا قضية التتلمذ على القرآن من مقتداهم إلى منتهاهم، والإمام الشعراني بعد أن جمع كلام الأئمة من الجنيد إلى المتأخرين أكد أن الصوفي لا يكون من أصحاب الولاية إلا بعد أن يستمد من القرآن والسنة، وقضية لا معبود إلا هو ولا مشهود إلا هو تتحدد من خلال التوظيف، مبينا بأن ظاهر الإنسان قائم على التكاليف وروحه وقلبه متعلقان بالحق سبحانه، واستشهد بحديث جبريل الذي اجتمع فيه الإسلام مع الإيمان ومع الإحسان مؤكدا بأن محل الإسلام غير محل الإيمان والإحسان.

علق د. فريد الأنصاري على هذا الكلام بفتح صدره على مصراعيه مع حبه بأن يرى الأمة تجتمع أكثر فأكثر في زمن التمزقات، وتساءل عن الكيف التي توصل إلى ذلك، خاصة أن النورسي عندما يتحدث عن التصوف وعن الطريقة لا يفرق بينهما، مؤكدا بأن حديثه عن الحالة التي وصل إليها التصوف كان المقصود بها السلوك الذي سبب للأمة مشكلا مع الآخر، خاصة وأن التصوف قد مر بعدة مراحل بين القوة والضعف، لكن منذ القرن الثاني عشر والثالث عشر الهجريين عرف التصوف نهضة جديدة، لكن الذين أرخوا للتصوف

مثل الثعالبي صاحب كتابه "الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي" ذكروا الكثير من المظاهر السيئة التي آل إليها، لكن القول بالحالة المزرية لا ينفي وجود تصوف متنور. والرجوع إلى القرآن من أجل التأصيل مرحلة أساسية، وأما قول بأن التتلمذ على القرآن مرحلة من مراحل التصوف، فهو قول مردود لأنه جعل الجزء كلا والكل جزءا، واستدل على ذلك بنـــزول القرآن على الرسول ﷺ وما كان التصوف موجودا، وكان الصحابة يتكونون على يده ﷺ، ثم ذكر جملة من الأمثلة تدل على الوضع المزري الذي وصله التصوف، من ذلك ادعاء رفع التكليف، وحب المال، والشكلانية القطبية، وتنازع المشيخة، وأنهى تعليقه بكون الرجوع إلى القرآن يتضمن معنى التأصيل.

ثم تدخل الدكتور عمر الجيلاني فأشار إلى أن أعمال الندوة أتاحت الاطلاع على كلام يريد أصحابه أن يصلوا إلى الحقيقة إرضاء لله وابتغاء لمقام عنده، وبأنه وإن لن يكن ممن نظروا طويلا في رسائل الإمام النورسي إلا أنه لم ير له مصادمة مع التصوف بل كانت له نظرات في واقع المتصوفة، مرجعا ذلك إلى ما وقع فيه البعض من كلام ناتج عن غرور نشأ عن الوصول إلى حال، لكن مع احتفاظه لصاحب تلك المقولات بمكانته، فالنورسي أظهر في نظره العيب في مثل فهم الصوفية للموجود، ولا موجود إلا هو، ولا مشهود إلا هو، مع أن الكثيرين وجهوا هذه المقالات فيما لا يتعارض مع الشرع، وأكد بأن النورسي كان يرى بأن ما يناسب المرحلة هو الاهتمام بمسألة الإيمان لأن ذلك أحسن من الاهتمام بالإحسان، الذي هو التصوف فالقضية قضية أولويات ولا مفارقة بينهما، ونبه على أن رجوع النورسي إلى القرآن أتى عندما سلك مسلك أهل العلم وهو تحصيل العلوم التي تؤهله للنظر في القرآن، واعتبره في الأخير ظاهرة إنسانية غير عادية.

شكر د.فريد الأنصاري المتدخل على توجيهاته، وبين بأنه إذا تم الاتفاق على جعل القرآن منطلقا فلابد من الأدوات، معتبرا الأمر مفروغا منه لأنه لا يمكن إطلاق العنان لأي كان للخوض في القرآن. وعن كلام وأفعال بعض المتصوفة أكد بأن الدال على الله لا ينبغي أن يكون كغيره ولا ينبغي أن يكون تابعا بل متبوعا.

وتدخل أحمد توفيق فسرد مجموعة من الأحاديث تلح على الجانب الروحي، وأهميته، وقال بأن الرسائل تعتبر محركا في البوسنة، وقال إنه لا يوجد كتاب في البوسنة يحرك الشباب مثله، رافضا بذلك ما قيل عن التصوف وأضاف بأنه لا يوجد كتاب عربي

كالرسائل وتساءل أين العلماء العرب؟ يحسب القرآن عينا أولى والسنة عينا ثانية والعلماء عينا ثالثة، ثم ثمن أعمال الندوة وأكد بأنه سينقل إلى مدينته سراييفو أن تحرك الأمة والعلماء قد بدأ من مدينة اسطنبول، وطالب بالتواصل بين العلماء وخاصة بين العلماء العرب وبين إخوانهم في البوسنة.

وتدخل الدكتور عبد الله غازيوي فأكد بأن التصوف بحسب ما جاء في العروض هو اتباع أخلاق ﷺ واتباع منهج القرآن، مشيرا إلى أن الندوة لم تبرز تباينا في المواقف والتصورات وحث على ضرورة الاعتناء بنشر الفهم الحقيقي للتصوف أو حقيقة المسمى لا الاسم، وطلب من فريد الأنصاري توضيح مفهوم التصوف فاكهة، معبرا عن تخوفه من أن يكون في الكلام ما يلغي مبدأ القدوة، وهو يعد النورسي من حسنات الرسول ﷺ والحاضرين من حسنات هذا الرجل وتساءل كيف تنسف القدوة وتصبح الأوراق أستاذا؟

علق د. فريد الأنصاري بأنه لم يقل بأن الأستاذ لم يستفد من التصوف، ولكنه كان شخصية متميزة، وبأنه لا يجب الاعتراض على استفادة الشخص من الآخرين، ثم تكون له شخصية خاصة، وأكد بأنه لم يلغ القدوة، وبأن الرسول ﷺ هو القدوة الكبرى التي غيرت الصحابة لأنهم وجدوا فيه القدوة الصحيحة.

وتساءل محمد العمراوي عن السر صمود أفكار النورسي بعد موته وانتشارها انتشارا واسعا؟ وأجاب بأن السر كامن في انطلاقه من القرآن، الذي هو كلام الله، وأضاف بأن النقاش احتدم حول صوفية النورسي أو عدمها، والحقيقة أنه لم يكن في حاجة إلى أن يرشف من كؤوس لأنه غرق في بحر عميق هو القرآن، وطلبة النور يجدون في رسائل النور شيخهم لأنهم يحملونه في قلوبهم.

ثم تدخل الدكتور سعيد رمضان البوطي ليقول بأنه يريد أن يختم الجلسة بقصة مرتبطة بالنورسي تؤكد علاقته القوية بالتصوف وتؤكد بأن لكل شيء سر وتساءل ما السر في أن شهود الخالق كان ساريا في كيانه وكانت مراقبته منذ أن كان في طلب العلم وهو حديث السن، وقال بأنه سينقل قصة سمعها عن والده بسندها، قال رواها والدي عن صهر بديع الزمان الملا سعيد الكردي زوج أخت بديع الزمان الذي عاش في دمشق وقضى نحبه في المدينة المنورة، والملا سعيد نقل القصة عن الملا عبد المجيد شقيق بديع الزمان، قال يقول

عبد المجيد كان أخي طالبا معنا في المدرسة و لم يكن له شأن خاص يتميز به، وفي يوم من الأيام وفد إلينا في المدرسة إنسان رث الهيأة يثير منظره الاشمئزاز ويبدو عليه أثار المرض، وأقام في المدرسة والمدارس عبارة عن غرف آنذاك، قال فانفرد أخي عنا بخدمته كان الطعام عندما يأتي إلى الطلبة لكل واحد قصعته ومعها ملعقة فكان إذا جاءت قصعة أخي وفيها الطعام أخذها وجلس أمام هذا الإنسان وتناولا معا الطعام مرة يأكل هذا الإنسان المثير للاشمئزاز منظره، ومرة يأخذ الملعقة أخي وهكذا وكان يخدمه خدمات أخرى دقيقة، وكنا نعجب لهذا التصرف و لم يتجه إلى خدمته أحد غيره. وبعد حين غاب هذا الإنسان ومنذ أن غاب نظرنا وإذا بأخي تجلت في حياته أمور غريبة وعجيبة بدءا من الحافظة كان يقرأ الصفحة تنقش بين جوانحه فنقرأها عليه، إلى جانب الشفافية الروحية، وإلى جانب صلواته وقيامه في الليل كل ذلك ظهر في هذه الفترة، كل شيء له سر وسر هذا التميز هو هذا الذي ذكر وأكد بأنه رواها بسندها.

وبعد استراحة قصيرة كان الحضور على موعد مع عرض الأستاذ أديب إبراهيم الدباغ، "النورسي ما بعد التصوف"، الذي تميز بالأسلوب الأدبي الرائع، الصادر عن حس مرهف ذوق رقيق ذاق عبق القرآن من خلال الرسائل.

اعتبر الدباغ النورسي صاحب وعي ذكي لماح كشعلة نار دائمة الاستيعار، وصاحب فكر ملكوتي يصل بين الله والإنسان، بأنه استلم من القرآن عالما فكريا يوجد فيه ظل من الله وظل من سرمديته، ثم بين بأن ما كان يربط النورسي بالتصوف هو معرفته لحقيقة التصوف، وتأثره به ومعرف مشايخه وتأثره بهم، مما يؤكد خروجه من عباءتهم، لكنه لم يكن في أي وقت من الأوقات تبعا لأحد منهم، لأنه خط لنفسه طريقا خاصا به يستمد مقوماته من القرآن الكريم.

اختار الدكتور فريد الأنصاري أن يكون تدخله شعرا، لأن المداخلة غلب عليها إيقاع الشعر، فأنشد خواطر شعرية وليدة اللحظة والحين في صفات الشيخ بديع الزمان النورسي.

ثم تدخل د.أبو الهدى الحسيني فأشار إشارة إلى أن حب الأستاذ لا ينبغي أن يجر إلى الإفراط اللغوي لأن لغة الأستاذ تعكس معاني العبدية والافتقار في الوقت الذي عكست فيه لغة الدباغ عكس ذلك والندوة لم تأتلف في نظره من أجل المدح، بل من أجل إيجاد المنهج

العملي في الإصلاح، وعن علاقة النورسي بالتصوف لاحظ أن العرض قد أنكر أن يكون للتصوف دور ما في منهجه.

رد الدباغ بلباقة وهدوء بأن القصد هو أن النورسي كانت له شخصية مستقلة بالرغم من كونه خرج من عباءة التصوف، فهو نسيج وحده وشخصية متكاملة، وسر ذلك راجع إلى إدراكه معاني الإحسان في شبابه.

كان الحضور في اليوم الثاني من الحلقة على موعد مع عروض الجلستين الثالثة والرابعة وبحوثهما. وكان بحث الدكتور محمد توفيق رمضان البوطي "التصوف وأثره في شخصية بديع الزمان النورسي" أولها.

ألح الدكتور توفيق رمضان البوطي على أن طرح مسألة التصوف في هذه المرحلة من حياة الأمة له مبرراته ودلالته، لأن الأمة مطالبة بمراجعة نفسها وإعادة النظر في مناهج الدعوة والتربية، مضيفا بأن التصوف يوجد بين تيارين في التعامل معه، فهناك من يرى بأنه دخيل ولذلك وجب إلغاؤه في حين يرى تيار آخر بأنه ضروري في تكوين الشخصية وتزكية النفس والرقي بها. وهو يرتكز في نظره على:

- تعميق الحقيقة الإيمانية القائمة على توحيد الله سبحانه وتعالى.
- تزكية النفوس والسمو بها إلى معارج التقى والصفاء.

وفهم النورسي لحقيقة التصوف كان عميقا كما قال، يظهر ذلك في التلويحات التسع في كتابه أنوار الحقيقة، لوقف عند التلويح الثاني، الذي خصصه النورسي للحديث عن حقيقة الطريقة، والولاية، وحقيقة الذكر وأهميته في الحياة الدنيا، وخصص الثالث للحديث عن الحقيقة والشريعة معتبرا إياهما متكاملان.

ثم فتح باب المناقشة وتدخل الدكتور سعاد يلدرم، فتقدم ببعض التوضيحات بخصوص خلق الأكوان محيلا على ما كتبه النورسي في الكلمات، وأشار بأن الآلوسي في تفسيره يشير دائما بقوله "وهذا يعرفه أهل المعرفة".

ثم تدخل رئيس الجلسة فأشار بأن الندوة قد عرفت إطلاق العديد من المصطلحات التي تحتاج إلى الدراسة والتدقيق والتسجيل، لتبرز توصية من توصيات الحلقة الدراسية وهي توصية الاهتمام بكل المصطلحات المرتبطة بمجال التصوف وبالتزكية الروحية. وشدد على

ضرورة إطلاق مصطلحات واضحة المعنى وسهلة الفهم بغرض جعل تعاليم الإسلام سهلة التناول.

أيد د. توفيق رمضان البوطي اقتراحه، وأضاف بأن الأستاذ عندما يتحدث عن الطريقة فإنه يوضع خارج الطريقة، ولكنه سمى نفسه من أهل الطريقة والحقيقة والشريعة، وتساءل عن الأسباب التي تجعل الناس ينتقدون المصطلح الصوفي ويطالبون بتبسيطه ولا يطلبون ذلك من علم النحو مثلا، وأكد في الإطار نفسه بأنه من أنصار إشاعة المصطلح القرآني ومن أنصار مخاطبة الناس بما يفهمون.

وتدخل الدكتور حسن الأمراني فأشار بأن المنهج مسألة اجتهادية وبين أن المحاضر في معرض استدلال على منهج الطريقة وكون النورسي من القائلين به، حشر من درر النورسي أشياء كثيرة لإثبات ذلك فكان كمن يريد إدخال الجمل في سم الخياط، وتساءل عن صفة حالة الترقي وحالة التدلي.

علق د. توفيق رمضان البوطي بأن علاقة النورسي بالطريقة ليست علاقة متوهمة بل هي علاقة موجودة ولكنه اتخذ لها منهجا خاصا. وأما بخصوص مفهوم الترقي والتدلي فبين بأنه مصطلح صوفي يعني التفكر في ذات الله وفي وجوده ثم التدلي أي النـــزول لرؤية ذلك في الوجود وفي الكائنات.

وعلق د. سعيد رمضان البوطي في إطار قضية المصطلح وخاصة ما تعلق بمفهومي الترقي والتدلي الواردين في العرض بأن المصطلح الصوفي مرتبط بالتعبير عن حالة موجودة وهي الحالة التي ينتقل فيها من الأكوان ليستدل بها على وجود الله تعالى من خلال كل ما يحيط بالإنسان. وأكد بأن الحالة ليست وهمية بل هي حالة موجودة.

ثمن الدكتور فريد الأنصاري العرض وخاصة حسن انتقاء النصوص المستشهد بها لقديم رسائل النور على أسلوب معين وهو الطريقة وإن كان النورسي يكثر من ذكر مصطلح شريعة أكثر من ذكر مصطلح الحقيقة أو الطريقة ثم تساءل في خلاصة هذه الملاحظة عما إذا كان النورسي يتبع الطريقة، لأن الواقع يثبت غير ذلك وشدد على أنه يمكن إيجاد كل ما يراد عند النورسي من خلال الرسائل فمن يقرأه بنظرة عقلية يجد ما يدل على أن النورسي كان عقلانيا الشيء الذي يدل على شمولية الرجل، ثم تحدث عن مفهوم العلم الحضوري

المستعمل عند المناطقة في مقابل العلم الحصولي ، فالأول مرتبط بما يجده الإنسان في نفسه حاضرا كالجوع، في مقابل العلم الحصولي الذي يحصله الإنسان.

قال الدكتور توفيق رمضان البوطي إن مفهوم العلم الحضوري هو كذلك من مصطلحات التصوف ويحيل على مقام المراقبة، وبأن مفهوم الظلال الباهتة التي جرى ذكرها قد وردت عند النورسي في معرض الحديث عن وحدة الوجود وكون إدراكه لا يكون إلا لخاصة الخواص. ثم أشار إلى أن التحلية تفرض عنصرا سابقا هو التخلية وبأن مقصوده بالعلم هو العلم الوهبي الذي يهبه الله لخاصة عباده، وأحال على ما قصه سعيد رمضان البوطي عن النورسي مع الغريب مؤكدا بأن في الرواية علما وهبيا.

وما وقف عليه النورسي لا ينبغي أن يصرف الناس على الاسترشاد بالشيخ المربي إن وجد.

قال مسير الجلسة في الختام إن أهل الطريقة يؤكدون بأن منهجهم مؤسس على الكتاب والسنة، وبأن ما جاء في العرض يؤكد ذلك، مضيفا بأن حتى التيار السلفي يؤكدون أنهم أهل السنة، الأمر الذي يدل على أن المبادئ جيدة، وتساءل أين الخلل إذا؟ وأجاب بأن الخلل آت من غياب فقه الشريعة الصحيح، وغياب العلم الحقيقي بها، والأمة ليست في حاجة إلى كثرة الأسماء والمصطلحات، بقدر ما هي في حاجة إلى الإسلام الصحيح، وثمن الحلقة الدراسية وشدد على ضرورة تكرارها.

كان موضوع الجلسة الثانية هو "المنهج الصوفي المعرفي والسلوكي في حياة النورسي" للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني وقد ترأس هذه الجلسة الدكتور عمر الجيلاني، الذي ذكر بأهمية مثل هذه اللقاءات، وعبر عن شرفه وسعادته بالمشاركة فيها.

قال أبو الهدى الحسيني في مستهل عرضه بأن عظماء الأمة يتميزون بثلاث أمور وهي:

- العلم الواسع القابل للتطبيق العملي.
- الدعوة المتدفقة بحيويتها.
- التصوف المحرق الذي ينفخ الروح في العلم والدعوة.

ليبرز أن النورسي أحد أولئك العظماء الذين ميزوا تاريخ الأمة، جازما بتصوف الأستاذ سعيد النورسي، وملحا على جمعه بين الطريقة والحقيقة، وبأنه كان من المتحققين بالحقائق، ثم بين حقيقتها وطبيعتها وأدواتها عنده، وأبرز أدواتها معرفة الله تبارك وتعالى، وهي تكون بالروح وبالقلب، ومراتب معرفة الله هي التوحيد الحضوري والشهودي، مبرزا في الوقت نفسه أن التوحيد عند الأستاذ توحيدان الأول عامي تداخله الغفلة بل والضلالة في كثير من الأحيان، والثاني حقيقي ويثبت ثبوتا حضوريا، ثم قارن بين نظر أهل التصوف إلى الحقائق، ونظر أهل الفلسفة، ليخلص إلى أن نظرة أهل التصوف تقوم على الجانب الروحاني كما قررها النورسي فتكتشفها في إطاري شمولي، عكس نظر الفلاسفة الذي يعتمد العقل في كشفها وبيانها، فتبقى قاصرة عن إدراك لب الحقيقة.

وأول قاعدة في أسلوب تصوف الأستاذ، قاعدة النية والقيام بحق البدن مع الروح، واستعمال العقل مع القلب، والاتصال بالطرائق وشيوخها، وتتمثل قواعد الطريقة وأصولها في اتباع السنة والإخلاص والمحبة. وأما السالك فهو مطالب بسلوك طريق العجز والفقر والشفقة والتفكر، ثم تحدث عن أوراد الطريقة وأذكارها وأهمية كل ذلك في تزكية السالك، ليخلص إلى نتيجة أساسية وهي انتصار الأستاذ للطريقة، ولينتهي العرض إلى أن النورسي كان صاحب منهج واضح في الطريقة والحقيقة.

طلب الدكتور سعيد رمضان البوطي الكلمة فتحدث عن قيمة التزكية الروحية وأهميتها وضرورة مخاطبة الناس بحسب عقولهم، وخاصة عندما يتحدث إلى الغرب نظرا لحاجتهم الملحة إلى التزكية الروحية، وذكر بأنه شارك في مؤتمر في باريس حول موقف الإسلام من الأقليات في بلاد الغرب وبلاد المسلمين، وكان ضمن الحضور في إحدى جلسات المؤتمر التي كان عنوانها العبد والعبودية، صحفية تابعت ما قاله باهتمام كبير، وبعد انتهاء الندوة جاءت تطلب المقابلة فأخبرته وهي تبكي بأنها أحست عندما كان يلقي محاضرته بأنها لا شيء فقال قلت لها أنت منذ اليوم ستصبحين كل شيء، وعلق على ما قصه قائلا: الأصل في البناء هو التزكية، وبناء الشخصية له أساس خفي لابد من الانطلاق منه، وهو تزكية الروح.

وتدخل الدكتور عمر الجيلاني فأبرز بأن الحديث قد تركز على منهج صوفي وآخر سلفي موكدا بأن جميع الآراء تصب في إطار ضرورة الجمع بينهما وتساءل عن مكامن

الخلل؟ وقال بأنه وجماعة من العلماء كانوا قد طلبوا من أحد المسؤولين في دولة من الدول أن يدعو إلى مؤتمر لمناقشة قضايا التزكية الروحية يحضره تيارات مختلفة فرفض بدعوى أن الأمر يتعارض مع مذهب الدولة.

ثم تدخل علي توفيق من البوسنة فبين أن المشكل يعود إلى ضرورة إيجاد نموذج واحد متكامل يجمع بين التزكية الروحية والمنهج المتفاعل مع الحياة وقضاياها السياسية.

وتدخل د. فريد الأنصاري فبين بأن ما يعانيه العالم الإسلامي هو حالة تراكمات نفسية، حتى تحولت إلى حالة سياسية، فالصوفي يريد إلغاء السلفي وينكر عليه، والسلفي ينكر على الصوفي، وقد أصبح من اللازم التفكير في نوع من التعايش فكل واحد منهما ضروري للآخر لأنه إذا لم يكن للصوفي ضوابط شرعية مال إلى الخرافة، والسلفي إذا لم يكن له بعدٌ روحي في تكوينه يصير تطبيقه للشريعة فارغا ولا روح فيه، وخلص إلى الضرورة إيجاد المقومات التي تنهي التصادم.

علق الدكتور عمر الجيلاني قائلا بأنه لا يمكن الاعتماد على السلفي الذي يدعو إلى إلغاء الآخر، مشددا على أن السلفية لا يمكن حصرها في فئة معينة قامت بأشياء تعاني الأمة منها.

وتدخل الدكتور محسن عبد الحميد ملاحظا على عمر الجيلاني بقوله إن السلفي الذي لا يقتل ولا يكفر مقبول ومرحبا به، وألح على مسألة الخصوصية شريطة ألا تؤدي الخصوصية إلى الخروج عن الشرع. فذلك مرفوض في نظره على الرغم من خصوصيته، وشدد على الشمولية واعتبرها مطلوبة في كل بناء، مع الاعتدال في الجزئيات، وحركة الحضارة المعاصرة في حاجة إلى الشمولية وأكد بأن هذا هو أهم ما يمكن الخروج به من الحلقة الدراسية فليس هناك إلغاء للعالم الصوفي ولا للعالم السلفي.

أيد أبو الهدى الحسيني الدكتور محسن عبد الحميد فيما قاله، وأضاف بأن ما تحتاج إليه الأمة هو الداعية إلى الإسلام وليس الداعية إلى المذهبية وشدد على ضرورة التمسك بالكتاب والسنة والقدوة وتزكية النفس.

ثم تدخل أحد الحضور فأشار إلى الزمن هو زمن إنقاذ الإيمان، وليس زمن الصوفية، وألح على ضرورة وجود القدوة الصالحة التي تربي الناس على الإيمان والتقوى وعلى إخلاص

العبادة لله ولا يهم في نظره أن يطلق عليها شيخ طريقة أو غيرها من الأسماء، ونحتاج إلى من يحارب البدعة وبأن تحتاج الأمة إلى نموذج النورسي وحسن البنا لأن في أمثالهما يكمن النموذج المتكامل.

وكان الحضور بعد الظهر على موعد مع الجلسة السابعة وعرض الدكتور عمر الجيلاني "التزكية وحاجة الأمة إليها". وترأس الجلسة الدكتور فريد الأنصاري.

أشار عمر الجيلاني في البداية إلى أن الصحابة كانوا أهل أدب ويمتثلون للأمر وهو أقصى درجات الأدب ثم قال: إن موضوع التزكية موضوع مهم جدا يستلزم تحرير موضوعاته ويستلزم تحرير مصطلحاته وضبطها لكي تقدم للناس واضحة خالية من كل شائبة، وأكد بأن التصوف أصل من أصول الدين، معتبرا التزكية من مرادفات التصوف أو هو مرادف لها، وبأن العلم يتبلور بمصطلحاته، فالفقه في نظره تبلور علما من خلال مصطلحاته وكذلك التصوف، وألح على أن التزكية قد ذكرت في القرآن الكريم ولها كتب محررة، وبأن بينها وبين علوم أخرى عدة وشائج وروابط واعتبر في الوقت نفسه أن التصوف معيار يحكم به على صدق النوايا ومن ذلك الجهاد الذي هو أصل من أصول الشريعة، فالذي يحمل سيفه ليس لأحد أن يحكم على صدق طويته إلا أهل التصوف فهم الذين يستطيعون إدراك مدى إخلاصه، والشيء نفسه بخصوص الخشوع في الصلاة فلا يحكم على الإخلاص فيها إلا أهل التصوف، مذكرا بالتشويه الذي لحقه، الأمر الذي نفر الناس منه وخلص إلى أنه يلزم عدم رفض المصطلح قبل معرفة حقيقته.

ثم تدخل رئيس الجلسة فأشار إلى كون المحاضر قد قدم كلمات قليلة من حيث شكلها لكنها ثقيلة من حيث مضمونها، وأضاف بأن أكثر الناس يقبلون في الغالب على أصل من أصول الدين دون دراية ولا معرفة، وبأن الناس من أهل الطريقة فئتان، فئة قبلت كل ما عندهم حتى ما كان باطلا، وفئة أخرى رفضت كل ما عندهم حتى ما كان طيبا. ثم أشار إلى أن الأمة التي لا تفهم أبعاد الذوق وأهمية التزكية، أمة تعاني من مرض عسير، معلنا بذلك عن بداية المناقشة وكان أول المتدخلين علي توفيق من البوسنة فأشار إلى أنه عندما نقرأ كتب القدماء نجدهم يوقعون كتبهم دائما بأسماء تحيل على طريقة ما كالقادري والجيلاني والرفاعي، وتساءل أين نحن من هؤلاء؟ وأضاف متسائلا هل شربنا من حيث شربوا دون الوقوع في البدعة؟

تركز رد الدكتور عمر الجيلاني على وجوب الاهتمام بضبط المصطلح بما في ذلك مصطلح "البدعة" إذ من اللازم تحديد مفهوم البدعة المقبولة والبدعة غير المقبولة، التي يجب أن تحارب، والسنة نفسها في حاجة إلى الضبط والتحديد وإبراز هل المقصود بالسنة ما يوجد عند أهل الحديث أم التي عند الفقهاء، ثم ركز على ضرورة بيان مقصود الرسول ﷺ والصحابة من البدعة، فالرسول ﷺ يقول بأنه ليس منا من أحدث في هذا الدين ما ليس منه. واعتبر أن كل محدث مقبول إذا شهد له الكتاب والسنة.

تدخل الدكتور سعيد رمضان البوطي فقال إن الإجابة قد أثارت موضوعا ذي شجون ذلك لأن العلماء من الموضوع فريقان:

– الفريق الأول يقدر ما قيل فيرى بأن هناك أمورا لم تكن موجودة ثم أوجدت واعتبروا باب الاستحداث مفتوحا إذا لم يخالف الشرع.

– الفريق الثاني رفض ذلك وأشار بأن هناك أمورا أقحمت على الدين وليست منه .

ولذلك تقدم باقتراح مفاده دعوة العلماء إلى لقاء لمناقشة هذا الأمر أي ما استحدثه أهل التصوف للبحث عن الحلول، لكنه أشار في الوقت نفسه إلى أن باب الحق والحوار موصد وبأنه لا توجد نيات صادقة لمعالجة الموضوع.

أيد د. عمر الجيلاني اقتراح د. البوطي وألح على ضرورة إشاعة ذلك الفهم بين عموم المسلمين أي الفهم الصحيح للإسلام .

أما الدكتور مصطفى بنحمزة فبين بأنه لو لم يكن من بركات هذا اللقاء ونقاشاته سوى إثارة هذا الموضوع لكفاه وألح على ضرورة الحوار حول مختلف القضايا التي أثيرت في اللقاء كالعقيدة والمذهبية والتصوف، وأضاف بأن هناك مخاطر تهدد الأمة تريد اجتثاث هذا الفكر المتنور من جذوره وبأن الكثير من الدول كانت تسير على طريق معين ثم هي اليوم أصبحت تعرف تحولات، وشدد على ضرورة فتح الحوار بخصوص مفهوم التزكية، ولكنه شدد في الوقت نفسه على أن هناك من لا قدرة له على الحوار وينهزم فيه.

وبعد استراحة عاد الحضور للاستماع للعرض العلمي الأخير في هذه الحلقة الدراسية للدكتور حسن الأمراني وعنوانه " الرمز الصوفي بين جلال الدين الرومي وبديع الزمان النورسي" وسير الجلسة الدكتور تزافيتان ثيوفانو.

قال الدكتور حسن الأمراني بأن بحثه يقوم على أسلوب المقارنة بين مولانا جلال الدين الرومي والأستاذ بديع الزمان في إطار الأدب الإسلامي وبأن الرمز الصوفي وثيق الصلة بالشعر، وبأن دراسته عند كل من مولانا جلال الدين الرومي وبديع الزمان النورسي على علاقة ما بالشعر، فالأول شاعر والمثنوي دليل على ذلك، والثاني صاحب لغة شعرية لا يجادل شاعريتها أحد. على أن ما يهم في المقارنة هو البحث عل مظاهر الائتلاف، ومظاهر الاختلاف عند الرجلين، وقال بأن الرمز الصوفي مشترك بين جميع الحضارات والثقافات والشعوب واهتمت به بعض التيارات الأدبية بما في ذلك تيار الحداثة، الذي يعتبر رواده أنفسهم شعراء متصوفة مبينا بأن زعيمهم "أدونيس" علي أحمد سعيد، قد تحدث عنه وكذلك بعض الشعراء النصرانيين وأشار إلى أن ما يهمه هو البحث عن أوجه الخصوصية ومنهج التعامل مع الرمز الصوفي عند كل واحد منهما مبينا بأن كلا من جلال الدين الرومي وبديع الزمان النورسي قد وظفا الرموز نفسها كالبلبل والوردة وغيرهما، لكن كل واحد منهما وظف هذه الرموز بأسلوبه الخاص، فالنورسي اختار الرمز كأستاذه جلال الدين الرومي للتعبير وتشخيص الأوضاع والأحوال المختلفة، لكن مع الاحتفاظ بالخصوصية، وما تسمية كتابه بالمثنوي العربي النوري سوى دليل على هذا التأثر ثم أشار إلى أن هناك تشابها كبيرا في توظيف الرمز عند الرجلين لكن النورسي يوظف المنهج النبوي في التعامل معه، ومن الرموز التي يتردد توظيفها عنده رمز المرآة، التي يكثر من ضرب الأمثال بها، وهناك رموز خاصة بالنورسي كرموز الجندية التي استقاها في الغالب من حياة الجندية التي قضى فيها جزءا من حياته.

وتدخل د. محمد جكيب الذي أشاد بالموضوع وقيمته العلمية ثم بين أن عالم الرمز عند النورسي ما يزال بكرا ويحتاج إلى جهود واسعة من أجل دراسته وجمعه، ودعا إلى ضرورة التفكير في موسوعة خاصة بالرمز في كليات رسائل النور، مضيفا بأن الرمز عند النورسي له وظيفة أساسية هي التزكية الروحية لأن النورسي يعمل على الارتقاء بالإنسان بكافة الوسائل التي يراها ممكنة.

وكان الرد مؤيدا لما قيل حيث شدد الدكتور حسن الأمراني على ضرورة الاهتمام بمجال الرمز عند النورسي.

ثم تدخل د. مصطفى بن حمزة فأشار إلى أن هناك جانبا مهم في حياة النورسي مرتبط بموضوع الحلقة الدراسية وهو اهتمامه باللغة العربية، فالنورسي كان حريصا على ربط الإنسان المسلم بمصادر اللغة العربية، وبأنه كان في العمق أديبا وذاك ما فتح في نظره باب دراسته. ثم أشار إلى أن الشعر حاضر في الثقافة الإسلامية والثقافة العربية.

وجاء الرد مشيرا إلى أن النورسي قد حصل ثقافته من القرآن ومن اتصاله العميق به، الأمر الذي ساهم في إبراز قوته اللغوية وخاصة في اللغة العربية. ثم أعلن المسير نهاية الجلسة شاكرا من تدخلوا فيها وأبدوا ملاحظاتهم.

وبعد هذه الجلسة كان الجميع على موعد مع الجلسة الختامية التي شكر فيها المنظمون الحضور وخاصة السادة الأساتذة الذين تقدموا ببحوثهم وأشاروا إلى أن الحلقة الدراسية عرفت نجاحا لم يكن منتظرا بالنظر إلى القضايا التي جرى حولها النقاش، مع الإلحاح على أن الهوة بين مختلف الأفكار والتصورات التي وردت في أعمال الحلقة الدراسية لم تكن واسعة. والتمس المنظمون من الحضور الإشارة عليهم بخصوص مستقبل الحلقة الدراسية، والكيفية التي يمكن أن تكون عليها، وقد كانت اقتراحات المشاركين مجمعة على ضرورة العمل على استمرار الحلقة الدراسية لكن بصورة تحضر فيها العديد من التيارات الإسلامية تعميما للفائدة وتوسيعا لها، وكان من بين الاقتراحات اقتراح إشراك بعض الباحثين في قراءة البحوث المقدمة للندوة تعميما للفائدة وتعميقا للنقاش بصورة تستفيد فيه الندوة من البحث الأصلي وأوراق أخرى تعد بصدده، وكان من بين الاقتراحات اقتراح إعادة طبع كتب الشيخ عبد القادر الجيلاني نظرا لقيمتها الكبيرة في موضوع التزكية الروحية.

بعض توصيات الحلقة الدراسية

ملاحظة:

لم يعمل المنظمون على تكوين لجنة من أجل الأشراف على تحرير توصيات الحلقة الدراسية، التي كانت تذكر بين الحين والآخر من خلال العروض أو من خلال المناقشات أو من خلال اقتراحها في الجلسة الختامية من أجل المصادقة عليها كما جرت العادة في مثل هذه الملتقيات.

وفي ما يلي بعض التوصيات التي طلب بعض المشاركين تسجيلها، أو التي تم التقاطها من خلال العروض والمناقشات.

- العمل على جعل الحلقة الدراسية موعدا قارا.
- تثمين موضوع الحلقة الدراسية والإلحاح على ضرورة تعميق بحثه في لقاءات أخرى.
- دعوة علماء من تيارات فكرية مختلفة لمناقشة قضايا تهم الأمة بغرض التقريب بين الأفكار والتصورات.
- العمل على تأليف موسوعة خاصة بالتزكية الروحية.
- الاهتمام بالمصطلح توثيقا ودراسة وتعريفا.
- الاهتمام بالرمز الصوفي عند النورسي والعمل على تأليف معجم خاص به.
- العمل على تنظيم مؤتمر موسع يضم تيارات مختلفة لمناقشة موضوع الإخلاص لله.
- العمل على نشر التزكية الروحية بين صفوف الشباب وعموم المسلمين.

نمنمات على بوّابة العشق

د.حسن الأمراني

شمس تبريز أشرقت في كياني
فتجلّت عرائس في الجنان

أيُّ شمس أبهى وأعلى مقاماً؟
لا تقل: "والظلام ليس بفان"

فعلى الأفق من دماء الشهيدين
بقايا.. فالأفق أحمر قان

سبّح اللهَ، مَنْ من الشجر الأخضر
أذكى اللّظى مهيب الدخان

مسّت النايَ نارُ عشق فغنّى
وبكى، فانتشى به الخافقان

كان قلبي من قبل مسّ لظاه
حطباً يابساً جَـــليٍّ الهوان

فاستوى كالشهاب يخترق الأفق
ويدنو.. ويا نعيم الدّاني

وجع الناي شهقة ليس تبلى
قد تلتها من عاشق زفرتان

هو صحو وسكرة.. وظلال
ولهيبٌ مقدّس الهيجان

إن برق الحجاز هيّج قلبي
فهوى في قرارة الأحزان

فأقلّوا العتاب يا أهل نجد
ما لنا في دفع الهموم يدان

قلتُ والحبُّ خير زاد المـُـعَنّى
وجرت فوق وجنتي دمعتان

دُلّني! من أين الطريق إلى النور
، فإني مشتّت الأذهان

قال: "إن الله اشترى" قلت: قلبي
رضي البيع، قال: خذ عنواني

ومشى خطوة.. فلما تجلّى
خرّ موسى.. هل يدرك الثقلان؟

صعقة العشق زلزلت من سناها
أضلع الطور فهو في خفقان

هو إن غصت فيه شلال نور
وعطايا وجْد، ووحي بيان

أيّ كأس سقت عروق المعنّى
فهو في نشوة بديعُ المعاني

ألف ليلى جُنّتْ.. وألف سعاد ليس تدري الذي بجوف الدّنان

"أنت تغلو يا قيس" كلا! عيوني ما رأت غير بارئ الأكوان

وجه ليلى إشارة، وسناها قبسٌ فاض عن يد الرحمن

وأنين التّوبَاد ليس سوى تكبير عبد أفضى بغير لسان

أوّبي يا جبالُ، فالطير حنّت وكؤوس الحنين صنو الحنان

وعلى درب العاشقين دماءٌ ودم العشق قبلة الحيران

حرّكتْ أوتارَ المحبة في الروح يدٌ جالت من وراء الجنان

والفراشات لم تزل تعشق النور وترضى الإبحار في النيران

حجبتني الأوزار عن رؤية النور وهدّت مسحاتها أركاني

والضعيف الضعيف من كان مثلي مثقل القلب، موهن البنيان

طاف قلبي دهراً فلما تداعى سقت رحلي إلى بديع الزمان

سيقول الغلاة إنك تغلو كيف يدري الخليّ فكّ المعاني؟

هيه يا نفسيَ الذليلة هوناً وخذي الحُكم من يد الحرمان

لا تمدّي عينيك.. رُبَّ خوان عرضَتْه.. يكون شرّ خوان

واهتفي: إنني ظمئت إلى النور فجدّد يا بارئي إيماني

أين من همة المحب إذا ما همت الكأس وانتشت شفتان

أين منها بيارق السلطان خافقات وصولة الصولجان

كل شيء يفنى وليس بباق غيرُ نور المهيمن الدّيان

استانبول

٢٠٠٥/٠٧/٢٨

فهرس